

رواية الهلال

جنون الحب

ستيفان زفايج

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامة

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

روايات الهلال

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٧٢ جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً
نقدأ أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٣٥ دولاراً - أوروبا
وآسيا وأفريقيا ٤٠ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٤٥ دولاراً -
باقي دول العالم ٧٥ دولاراً
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة
الاشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد عز العرب بك (الميتديان سابقاً)
ت: ٢٢٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط)
المكائنات: صر: ٦١٦٤٣ - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ -
تلفرافيا: المصور - القاهرة ج. م. ع.
تلكس: Telex 92703 hilal u n
فاكس: FAX: 3625469

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٢٥٠ فلس -
الكويت ١٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريال البحرين ١٢٠
دينار - قطر ١٢ ريال - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان
١٠٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال -
المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٢ دولار - سويسرا ٤ فرنكات
- السودان ٣٠٥ جنيه

الإصدار الأول يناير ١٩٤٩

العدد ٧٣٩ - يوليو ٢٠١٠ - شعبان ١٤٣١ هـ - أيب ١٧٣٦ ق

البريد الإلكتروني: darhilal @ idsc. gov. eg

بريد الاشتراكات: Email: subscription_dep@yahoo.com

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهاب

رئيس التحرير

عادل عبد الصمد

المستشار الفنى

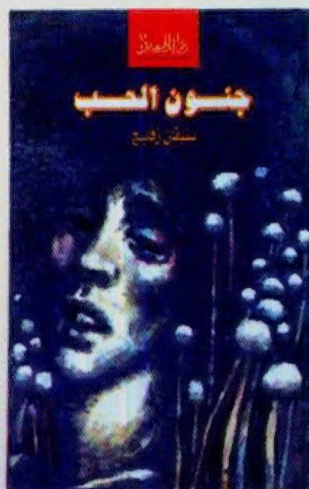
محمد أبوطالب

المدير الفنى

محمود الشيخ

سكرتير التحرير

هالة زكى



الغلاف للفنان: محمد حجي

جنون الحب

بقلم:

ستيفان زفايج

دار الهلال

إشراف : محمود قاسم

رقم الإيداع : ١٤١٤٧ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي : 977-07-1416-X I . S . B . N

٢٤ ساعة في حياة امرأة

شخصيات الرواية

مسز «س» : Mrs. X. عجوز وقور إنجليزية

هنرييت : Henriette زوجة حسناء شابة لبدين ثرى

أنيت وبلانش ابنتاهما Annelie and Blanche

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الأول

حادث مروع

بلغ النقاش ذروته من الحدة، وأنا جالس إلى المائدة فى ذلك الفندق الصغير القائم فى بقعة جميلة على ساحل «الريفيرا» ، وكان ذلك ذات يوم من أيام الشتاء لعشر سنوات خلت قبل الحرب، وكنت قد اعتدت أن أقضى الشتاء فى تلك البقعة التى تأسر النفوس بسحرها وجمالها فتجذب الناس إليها ..

وبوت أن ندرى ، تدرج النقاش حتى تحول إلى احتدام كاد يصير عراكا لما تخلله من ألفاظ السباب، ويرجع ذلك لما تميز به القوم من إدراك ضيق، جطهم ينظرون إلى الأمور من الناحية السطحية، حتى لتدفعهم توافه الأحداث إلى حدة فى الانفعال ليس لها ما يبررها ..

وعلى هذا الغرار كانت الجماعة التى تجلس إلى مائدتنا ، وجل أفرادها من أبناء الطبقة العادية.. فكانت أحاديثهم مقتضبة خالية من الصخب تتخللها دعابات تافهة .. فإذا ما انتهى الطعام تفرق كل لشأنه وهوايته، فيذهب الرجل الألماني وزوجته إلى النزهة لإشباع هوايتهما فى التصوير .. ويعمد الدانمركى إلى صيد السمك الذى كان يقتضى جهودا كبيرة ، أما السيدة الإنجليزية فكانت تفضل قراءة الكتب على سواها من أساليب التسلية .. بينما كان الشاب الإيطالى وعروسه الفاتنة يترددان بين الحين والحين على «مونت كارلو» حيث يجدان متعتهما .. أما أنا فكانت أقبع فى مكان منعزل هادئ وانصرف إلى التأليف .. ولكن الجدل فى ذلك اليوم أنسانا أنفسنا ، فلم نبرح أماكننا .. وكان البعض ينهض من مكانه لا عن رغبة فى الانصراف بل بتأثير انفعال أو غضب ..

وكانت جماعتنا مكونة من سبعة أفراد ، فى ذلك الفندق الصغير الذى بدا وكأنه مبنى قائم بذاته يطل على منظر ساحر على الشاطئ .. بيد أنه كان فى الواقع مبنى متواضعا ملحقا بفندق فخم كبير اسمه فندق «بالاس» ، تقوم بينهما حديقة، كان من السهل علينا أن نتصل عبرها بنزل الفندق

الكبير ، وكان الموضوع الذى أثار جماعتنا غريبا ، إذ كانت قد حدثت ضجة شديدة فى الفندق .. فقد وصل شاب فرنسى قبيل منتصف الساعة الواحدة بدقائق ، واختار لنفسه حجرة تطل على البحر مما يوحى بأنه من أهل الثراء ، وجذب الشاب اليه الأنظار ، ليس لأناقته فقط ، بل لوسامته المفرطة ودماشته .. فقد كان ذا وجه دقيق التقاطيع أقرب إلى وجه الحسناء منه إلى وجه الرجل ، كما كان فمه ينم عن عواطف مضطربة ويستجاب فوقه شارب ناعم فى لون الذهب ، أما شعره فكان ناعما أيضا يتخلله تموج محبب يزيد من بهائه ، يعز على المرء أن يصف لونه بدقة فهو مزيج من اللون البنى والأحمر الداكن .. تشع الدقة والحنان من عينيه ، فهو بذلك نموذج للجمال الطبيعى ، ينكرنا بتماثيل الجمال فى متاحف الشمع ، ويمكن القول باختصار إن التدقيق فى تأمل ملامح الشاب عن كثب يؤكد للمرء أنه نموذج رائع نادر للمدانة الطبيعية فى غير تكلف .

وأخذ الشاب يحيى كل واحد فى بساطة وحفاوة .. وكان لبقا فى أداء التحية مقرونة بالمجاملة الرقيقة ، فلا يفوته أن يبادر إلى السيدة التى تبحث عن معطفها فيعاونها فى أدب وعن طيب خاطر ، ويبتسم لكل طفل ويداعبه .. فكان لطيفا فى غير تكلف يشيع البهجة فى النفوس ، فيضفى عليه ذلك سحرا وبهاء ! .. فخلق وجوده جوا من الحيوية بين النزلاء وبخاصة المسنين منهم ، فاستطاع فى غير عناء أن يسلبهم لبهم بفيض شبابه الذى كان ينفذ إلى القلوب وبما كان يضيفه من مرح وبهجة وحيوية .. فلم تكد تمر بضع ساعات على حضوره حتى كان قد أنس إليه الجميع ، واستأثرت به ابنتا الرجل المكتنز الثرى صاحب أحد المصانع الكبيرة فى «ليون» ، فأخذتا تلعبان معه «التنس» ، وكان عمر إحداهما حوالى ثلاثة عشر عاما ، وعمر الأخرى حوالى أربعة عشر عاما ، واسمها «أنيت» و«بلانش» ..

وكانت والدتهما مدام «هنرييت» لطيفة بالغة الاحتشام والوقار، فراحت تراقب فتاتيتها وهما تسمران مع الشباب وتمزحان معه فى سذاجة وبراعة ، فتعلو شفتى الأم ابتسامة الغبطة والرضى ، ولما جاء المساء اندمج الفتى فى زمـرتنا، وكنا نلعب الشطرنج.. وراح يروى لنا فى هدوء وأدب بعض الأقايصيص الممتعة، وإذا فرغ من ذلك، ذهب إلى الشرفة وراح يتجاذب أطراف الحديث مع والدـة الفتاتين ، بينما كان زوجها منهما فى لعب «اللومينو» مع رجل من رجال الأعمال، ومضى بنا الوقت نون أن نشعر .. حتى إذا كاد الليل ينتصف ، وجدت الشاب فى مكتب سكرتيرة الفندق وقد استغرقهما حديث هادئ خاص وكان حديثهما سر من الأسرار!

وانطوى الليل وانبلج الصبح .. فإذا الفتى يشارك «الدانمركى» صيد السمك ، وقد أظهر مهارة فائقة فى تلك الهواية دهش لها رفيقه .. وعاد فاندمج فى حديث مع والد الفتاتين - صاحب المصنع - وكان حديثهما فى النواحي السياسية ويبدو أن الشاب كان محدثا لبقا، حتى لقد سمعنا الرجل العجوز يضحك فى قهقهة عالية بين الحين والحين ..

وجلس الشاب بعض الوقت مع مدام «هنرييت» فى الحديقة يحتسيان القهوة، ولعب بعد ذلك «التنس» مع ابنتيها مرة أخرى ، حتى إذا انتهى راح يتحدث مع الزوجين الألمانيـين فى البهو ، وحينما وافت الساعة السادسة ، خرجت قاصدا محطة السكة الحديد لألقى خطابا فى مكتب البريد .. فالتقيت بالشاب ورأيتـه يقبل نحوى فى خطوات حثيثة ، وقال لى بسرعة إن ظروفنا قاهرة لم تكن فى الحسبان تضطره للسفر، ولذلك فإنه يودعنى .. ثم ذكر أنه سيعود بعد يومين ..

وعندما حان موعد العشاء لم نره بيننا حول المائدة، ولكننا أحسـسنا أن روحه ماثلة بيننا وإن كان غائبا عنا بجسمه .. فقد كان هو مدار الحديث، لا على مائدتنا فقط بل على جميع الموائد، والكل يمتدحونه ويطرون دماثة

أخلاقه وخفة روحه ، وتفرق معظم الجماعة إلى مخادعهم فى تلك الليلة يلتمسون النوم .. فذهبت الى حجرتى ، وتناولت كتابا كنت قد قطعت فى قراءته شوطا كبيرا ، فأردت أن أفرغ منه ، وكانت الساعة قبيل منتصف الليل، حين طرقت سمعى بفترة ، خلال النافذة التى كانت مفتوحة ، ضوضاء فى الحديقة وأصوات تتصايح .. وحدثت أن أمرا غير عادى يجرى ، فألم بى شعور بالقلق ، وأسرعت الخطى وأنا أجتاز الممر الذى يصل بين الفندق والملحق، يحدونى التوجس أكثر مما يحدونى الفضول .. وإذا بى أجد الجميع - النزلاء وموظفى الفندق وعماله - فى صخب وقلق .. وكان والد الفتاتين قد انهمك فى لعب «الدومينو» مع صاحبه كعادتهما كل ليلة .. بينما لم تكن والدتهما قد عادت من نزهتها التى كانت تواظب على القيام بها كل مساء على شاطئ البحر، وقد توجس الجميع من أن يكون قد أصابها شر ، فاندفع زوجها المكتنز فى رزانة وخفة، وراح يذرع الشاطئ عدوا كحيوان مطارد مذعور، وبدا صوته رهيبا وهو يصيح ويناديها فى انفعال: «هنرييت» .. «هنرييت» .. فكان صوته أشبه بحشرة حيوان صريع ، وراح عمال الفندق وموظفوه يذرعون الفندق ذهابا وإيابا، صعودا وهبوطا ليوقظوا النزلاء النائمين، واتصل مدير الفندق بمركز الشرطة تليفونيا ، كان ذلك يجرى فى الفندق، بينما كان الزوج يهيم على الشاطئ وهو يتخبط وكأن مسأ أصابه ، فقد انتابته نوبة صراخ هستيرية : «هنرييت» ... «هنرييت» فكان صراخه أشبه بالعويل ..

واستيقظت الفتاتان ، ووقفتا بملابس النوم وأخذتا تتنايان أهمها .. وإذا سمعهما والدتهما، هرع يرقى الدرج اليهما ليهدى من روعهما ..

حدث بعد ذلك ما لم يدر بخلد أحد .. ولا يوجد ما هو أبشع ولا أبعث على الألم منه ، فسرعان ما رأينا الرجل يهبط الدرج، وقد بدا عليه الإعياء

والشراسة، وارتسمت على أساريره مسحة جامدة وقد نشر ورقة بين يديه، وراح ينهى إلى رئيس الخدم ويهيب به ويرجّاه أن يكفوا عن البحث الذى لا طائل من ورائه قائلا :

- لقد هربت زوجتى .. !

ورغم تلك الطعنة المسمومة التى أصابته ، فقد أبدى الرجل كثيرا من الشجاعة الخارقة وضبط النفس وجلدا فوق الطاقة والاحتمال ، أمام من التفوا حوله وراحوا يمحطونه بأسئلتهم ويرشقونه بنظراتهم .. ثم تفرقوا من حوله وقد ران عليهم الخجل والفزع فى آن واحد ، فشق الرجل طريقه أماما وهو يترنح نون أن يتطلع إلى أحد ، ويمم شطر غرفة المطالعة .. فدخل إليها وأطفأ الأنوار ، ثم سمعنا الضجة التى أحدثها جسمه البدين الهائل وهو يلقى به على أحد المقاعد متهاككا، وانخرط فى نحيب وحشى .. شأن من طلق البكاء منذ نعومة أظفاره !

وأثر فى نفوسنا ذلك الألم القاتل، حتى فى أقلنا إرهافا وحساسية .. فذهلنا جميعا، فلم تتحرك شفة بيمسية أو كلمة تتصل بالمأساة .. وتفرقنا فى صمت ، وقد غشيتنا سحابة من الكآبة، كأننا شعرنا بالخجل لصدمة الرجل ونكبته ، فراح كل منا يتلمس الطريق إلى غرفته ، الواحد إثر الآخر ..

وظل المسكين - وقد تحول إلى حطام - يبكى ويصل شهيقه إلى آذاننا ، وقد لفته العزلة فى ظلام الحجرة التى لاذ بها .. وكأنه وحيد فى ذلك الفندق، الذى عج لفترة بالهمسات وكأنها طنين خلية نحل، بيد أنها ما لبثت أن أخذت تتضاغل شيئا فشيئا حتى تلاشت فى ظلام الليل، فساد السكون إلا من نحيب المسكين ..

الفصل الثانى

السيدة الوقور

غنى عن القول أن الإنسان يلجأ إلى هذه الأماكن التماساً للراحة والهدوء، وليكون بعيداً عن جو الأعمال والهموم، وعلى هذا الاعتبار فإن حادثاً مروعاً كهذا - يقع بغتة على غير توقع - كفيل بأن يكون له أثر فى النفوس بعيد المدى .. فالمفروض أن الناس يغشون هذه الأماكن سعياً وراء التسلية وأسباب اللهو لتجنب الملل والضجر ..

وكان النقاش الذى اشتد حول مائدتنا والذى كاد يتطور إلى شجار، يمت إلى الحادث الأليم.. ولكنه اتخذ مظهرًا لخلاف فى الآراء حول مبدأ بذاته .. فكان احتداماً بين رأيين متعارضين فى الحياة.. كان الرجل فى فورة غضب عاصف أفقدته وعيه، فالتقى بالورقة التى كانت بين يديه على الأرض بعد فركها فى عصبية، وحدث أن دخلت إحدى الخادومات حجرة المطالعة، ورأتها ملقاة على الأرض فالتقطتها ثم قرأتها، وجرى لسانها بما حوته الورقة.. فلم يعد سرا أن مدام «هنرييت» رحلت برفقة الشاب الفرنسى .. ! وما إن تجلت هذه الحقيقة، حتى أخذت نظرة الإعجاب بذلك الشاب تتقلص، وإن لم يبد غريباً أن سيدة فتية حسناء كهذه ترضى بجمالها على رجل مسن مكتنز بشع المنظر كزوجها، لترتمى بين أحضان شاب وسيم المحيا منطلق الأسارى .

بيد أن اللغز الذى استغلق على الجميع، وأثار حنقهم، أن أحداً من أفراد تلك الأسرة المنكودة - الزوج أو الابنتان أو الزوجة - لم يكن قد رأى ذلك الشاب الفرنسى من قبل .. وأن من العسير أن يقبل العقل أن حديثاً لساعة أو بعض ساعة - ذات مساء فى شرفة الفندق - وحديثاً آخر أثناء تناول القهوة فى الحديقة، يكفیان لاستمالة امرأة تناهز الثلاثين من العمر، - تعتبر ذات مركز مرموق فى عرف المجتمع - وإغرائها على أن تستهين بالمثل العليا، فتهرب من زوجها بهذه الطريقة المزرية .. وتضحى بابنتيها، فتندفع فى نزوة الشباب وتضع مستقبلها بين يدي شاب غريب !

وانتهت جماعة مائدتنا إلى ترجيح الرأى القائل بأن الزوجة لابد أنها كانت على علاقة أثيمة بذلك الشاب من قبل، وهى بذلك قد اقترفت خيانة شنيعة .. فظروف المأساة واضحة كل الوضوح لا غموض فيها ، وأن حضور الشاب كان بمثابة الخيط الاخير فى تدبير هرب الزوجة معه .. فعل يعقل أن تتحول زوجة عن طريق حياتها الزوجية، ويؤثر فيها أول لقاء مع رجل الى حد يدفعها الى الهروب معه !؟ ..

اتفقت الجماعة على هذا الرأى .. أما أنا فقد رأيت غير ذلك .. وأبدت رأى فى شجاعة وحزم، وذكرت أن الزوجة التى تصدم بخيبة فى آمالها وتعتقد أنها لم تحظ بمثلها العليا أو أن حياتها الزوجية يعتمورها الضيق والتبرم، لا نستبعد عليها أن تستسلم لأول تجربة عاطفية أو عرض براق .. ! وقد حدث ما توقعته . فقد تعرض رأى لنقاش أخذ يحتدم حتى صار صخباً، فقد استهجن فريق وجهة نظرى ، وأبى أن يعترف بالحب الذى ينبثق بغتة .. الحب من أول نظرة، وسفهنى هذا الفريق معلناً أن شيئاً كهذا هراء وحماقة، وليس واقعياً ، بل إنه لا يعدو أن يكون من مبتكرات الخيال ..

ولا أنكر أن جدالاً يحدث بين جماعة، يضمهم مكان عام، لا يكون راسخاً فى حججه .. وأن ما يصدر من تلك الحجج غث لأنه يلقى فى عجلة وارتجال، ولا أدرى كيف احتدم النقاش بشكل خاطف .. ولعل ذلك يرجع إلى الاحساس المرهف ورد الفعل الذى نجم عن الحادث، كما يرجع أيضاً إلى أن الفريق الذى عارضنى يتكون من النزيلىين الألمانى والإيطالى وزوجتيهما .. فقد حرص الزوجان أن يبتا فى النفوس أن زوجتيهما لا يمكن أن تقدما على عمل قدر ينطوى على الحماقة كالذى اقترفته مدام «هنرييت» .. ولم يستطيعا أن يدللا على رأيهما الا بضيق أفقى ، وقلة خبرتى بالنساء ، وأنى أجهل أنهم أنواع .. وقد أثارنى ذلك وبخاصة عندما ذكرت الزوجة الألمانية أن

هناك نساء فضليات ونساء فاجرات .. وأن «هنرييت» لابد وأن تكون من النوع الثانى ، فلم أطق منها ذلك وبفعتها بأن قلت :

- كثيرا ما تقع المرأة فى حياتها ضحية لعوامل مبهمه أقوى من إرادتها وخصالها ، فلا يمكن الحكم على هذه المرأة بالفجور .. ثم أوضحت أن اللجوء إلى الأساليب الملتوية، وطمس الحقائق ، إنما نغمر به أنفسنا حتى لا نستشعر بشاعة غرائزنا ، وفى اعتقادى أن كثيرا من النساء اللواتى يعتبرن أنفسهن أمنع من الوقوع فى الزلل ، وأنهن على خلق وطهارة .. أولئك أقرب إلى الانزلاق فى الزلل ، وأنا أرى أن تسير المرأة فى حياتها على سجيبتها وتخضع لغريزتها ، فإن ذلك أحرى بها من أن تعيش فى الظلام فتخون زوجها وهى فى عصمته فتحيا حياة مزوجة شأن الكثيرات من النساء ..!

وإذ ألقىت بقنبلى، تكهرب الجو واشتدت حدة النقاش .. فكنت أدافع عن مدام «هنرييت» الضحية كلما اشتد هجوم المعارضين عليها، بيد أننى شعرت أننى اندفعت أكثر من اللازم تحت تأثير استثارتي ، وبدا لجبهة المعارضة المكونة من الألمانى وزوجته ، والإيطالى وزوجته ، أن اندفاعى يحمل معنى الإهانة ويهدف إلى الاستفزاز .. وكانوا أربعة وأنا واحد ، فغالوا فى مهاجمتى بعنف ، وتحول الجدل إلى نقاش ، والنقاش إلى صخب هائج حدا بالدانمركى العجوز أن ينظر إلينا باشا وينقر على المائدة بأصابعه لكى ينبهنا ، قائلا فى اقتضاب :

- رفقاً أيها السادة .. !

فحملتنا إشارته على الهدوء لحظة قصيرة .. نهض بعدها أحد الزوجين فى اندفاع وغضب كأنما يهم بالإقدام على سخافة، مما جعل زوجته تبذل عناء كبيرا كى تهدئ من ثائرتة ، ووصل بنا الأمر إلى أن كدنا نشتبك فى عراك، لولا أن الله قيض لنا مسز «س» التى هالها الموقف فأخذت تشيع جوا من الهدوء والسلام ، وأمكنها أن تهدئ حدة توتر أعصابنا ..

ومسز «س» امرأة انجليزية وقور، تقدمت بها السن، ذات شعر أبيض وكأنه خيوط من الفضة .. وأمكنها لهذه الأسباب أن تحظى بمركز الصدارة فى مائدتنا .. فعندما نلتف حول المائدة تأخذ مكانها فى جلسة مرتزة وتشمل كلا منها برعايتها بون محابة أو تفضيل .. وكانت ترسل حديثها فى اقتصاد لأنها كانت تفضل الإصغاء على الكلام، ومما يستحق الذكر أن مظهرها يجمع بين المهابة والبشاشة فى صورة تشرح النفس، وريانتها تحمل جليسا على تقديرها .. ولها قدرة فائقة على تكييف الجو الذى تكون فيه فتمنح الود لمن يستحقه، وتزامل من ترى أنه جدير بزمايلها .. بيد أنها فى أغلب الاحيان كانت تخلو الى نفسها فى الحديقة وتتصرف إلى القراءة أو تعزف على «البيانو» اذا راق لها ذلك، ونادرا ما كانت تتحدث إلى غيرها .. واذا تحدثت فبمقدار وميزان، فقد كانت بطبيعتها تحب العزلة والهوى .. فلا عجب أن يكون لها تأثير سحرى فى النفوس، وليس أدل على ذلك من أننا - حين تدخلت فى المسألة التى كنا بصدد حلها - عرفنا أننا جانبنا الصواب وانتهجنا أسلوبا فى الجدل لا يليق ..

وفى اللحظة التى شملنا فيها الهدوء ، ورأى علينا الوجوم، حين وجهت إلينا القول بالترفق فى مناقشاتنا، وأمكن لزوجتنا الالمانى أن تهدئ من فورة غضبه وتحمله على الجلوس بعد أن نهض وافقا، رفعت مسز «س» عينيها الصافيتين - على غير انتظار - ورمقتى بنظرة طويلة مترددة، ثم تكلمت فى الموضوع موضحة وجهة نظرها فى لباقة وبراعة تدل على تعمق فى التفكير، ووجهت إلى الكلام قائلة :

- إذا لم أخطئ فهم ما أدليت به، فمن الجائز أن تكون مدام «هنرييت» قد ترددت فى هذه المغامرة تحت وحى الساعة وبون اتفاق سابق .. وفى رأى أن ذلك محتمل الوقوع لأية أنثى، فتجد نفسها مسوقة إلى أمور، قد

تبدو لها قبل ذلك وكأنه لا يمكن الإقدام عليها أو حتى مجرد التفكير فيها، وفى هذه الحالة ، من الظلم أن يحكم عليها بسوء التصرف.. !

وأعجبني منطقها فى الحديث وتقديرها للأمور الذى دل على تعمق وبراية، فقلت لها على الفور :

- هذا هو رأيى يا سيدتى ..

فعادت تقول فى تودة وريانة شأن من يصدر قوانين راسخة :

- ولكن هذا يقلب مقاييس الاخلاق، بل يجعلها حبرا على ورق، لأنه يعنى الاستهانة بالأوضاع الخلقية والقوانين الاجتماعية .. فاذا كنت ترى أن الاندفاع فى إثم خلقى تحت تأثير العاطفة لا يجوز أن يعتبر جريمة، فلماذا نظم المجتمع ووضعت القوانين وقام القضاء ؟.. وإذا كان الأمر كذلك من وجهة نظرك، فإنك ولا شك لن تعدم دافعا عاطفيا وراء كل جريمة ..!

ورأقت لى بسمتها الغامضة التى تخللت كلامها، وأعجبتنى نبراتهما الواضحة فى اعتداد ، فقلت محاولا أن أجاريها فى لهجتها:

- مما لاشك فيه أن القائمين على العدالة يكون رأيهم أكثر حدة من رأيى لأن من صلب أعمالهم صيانة الأخلاق والمحافظة على الأوضاع الاجتماعية وتقاليدها، ولذلك يلومون أكثر مما يعذرون.. إننى أقف موقف الدفاع لا الاتهام.. أننى أحلل تصرفات الناس نفسيا دون أن أحكم عليهم !

ورشقتنى بنظرة عميقة ثاقبة، ثم بدا عليها التردد .. فجال بخاطري أنها ربما لم تدرك مغزى كلامى، فهممت أن أكرر بلغتها ما قلت، ولكننى عدلت عن ذلك، إذ وجدت أنها تستأنف كلامها فى صلابة وصرامة كأنها أستاذ وكأنى تلميذ:

- ألا يتسم هذا التصرف بالخزى والعار ؟ .. أليس شائنا وخزيا أن تهجر زوجة رجلها وابنتيها لتفر مع شخص دخل حياتها عرضا دون أن تقدر مصيرها، أو تستوثق من أنه يستحق منها هذه التضحية ؟ هل يسيغ

المنطق التماس العذر لتصرف شائن طائش كهذا، وبخاصة من سيدة
جاوزت سن الشباب الأرعن كان خليقا بها أن تقدر إنسانيتها وتحترم
نفسها ووضعها الاجتماعي، إن لم يكن ذلك من أجل زوجها فمن أجل
ابنتيها ومستقبلهما ؟

ولم يقنعني كلامها، وتمسكت بوجهة نظري في تشبث فقلت لها :

- لقد ذكرت ، وها أنذا أكرر، أننى أتكلم فى الموضوع بصفة عامة نون
اتخاذ رأى معين، أو نون أن أحكم على السيدة إزاء تصرفها .. بيد أنه لا
يسعنى إلا أن أقرر أننى بالغت بعض الشيء فى تجسيم الحادث.. إننى لا
أميل إلى تمجيد تصرف مدام «هنرييت»، بل على العكس أعتبره تصرفا
منطويا على الخسة، وفى الوقت نفسه لا يمكننى أن أقول إنها عاشقة
ولهانة، فهى فيما يبدو لى عادية ضعيفة الجناح.. وإن كنت أقدر لها إقدامها
على تنفيذ رغبتها فى جرأة عجيبة وبنون تهيب مما سيؤول إليه مصيرها،
ولذلك فأنى أستشعر العطف والثناء لها ليقينى من مبلغ ما ينتظرها من
تعاسة فى الحياة إن عاجلا أو آجلاً.. ولعلها جعلت الرعونة رائدها، فقد
تعجلت فى إقدامها واندفاعها، ورغم كل ذلك لا أرى أن ما أقدمت عليه
ينطوى على دناءة، وأنكر أن يحتقر الناس امرأة تعيسة..!

وإذ رأت منى هذا الإصرار والتشبث قالت :

- هل أفهم من ذلك أنك ما زلت مصرا على احترامها وتقديرها .. ألم
تتغير نظرتك إليها، حينما كانت بيننا بالامس زوجة فاضلة، ثم بعد ذلك
تضرب بجميع معايير الاخلاق والنظم الاجتماعية عرض الحائط فتهرب مع
رجل غريب عنها مخلقة وراءها زوجها وابنتيها ؟

- لا فارق فى رأى بين الاثنين ! ..

وكأنما لدغتها عقرب، فقد رأيتها تهتف نون وعى حيث استبد بها
الموضوع :

- أتعقل ما تقول ؟ .. أحقا هذا رأيك ؟!

وأخذت تفكر لحظة، ثم نظرت إلى بعينيهما الصافيتين وقالت :

- وإذا فرضنا أنك التقيت بمدام «هنرييت» ، وكانت بين أحضان

عشيقتها .. فهل تحيها مثلما كنت تحيها من قبل ؟

- طبعاً !..

- وتحدث إليها ؟

- بلا شك !..

- وإذا كانت لك زوجة .. هل تسمح لها بمعرفة هذه السيدة وكأنها امرأة

شريفة فاضلة ؟

- أسمح بذلك بلا شك !..

وكان قبلة انفجرت بجانبها عندما سمعت جوابي الأخير، فقد استبدت

بها الدهشة وأخذها العجب وكأنها لا تصدق ما سمعت فقالت :

- هل تعي ما تقول ؟ .. أتفعل ذلك حقاً ؟

- أفعله بون تردد !..

ورأى عليها الصمت لحظة واستغرقت في تفكير عميق، ثم تفرست في

وجهي كأنها تستشف ما استغلّق عليها في دخيلتي، وفجأة قالت في جراءة :

- ترى ماذا كنت أفعل أنا ؟ .. لعلّي كنت أفعل ما فعلته !

قالت ذلك، ثم نهضت واقفة وصافحتني وهي أشد ما تكون هدوءاً

واطمئناناً.. شأن بنى جنسها من الانجليز حينما يختمون أى نقاش في

وداعة وبدون جفاء ، وعادت السكينة إلينا بفضل أسلوبها في مناقشة

الموضوع، وشعرنا في قرارة أنفسنا بمبلغ ما لهذه السيدة الوقور من تأثير

أشاع بيننا الوباء بعد أن كدنا نتشاجر.. وأخذ التوتر يتصاعل شيئاً فشيئاً

حتى تلاشى تماماً بون أن يترك في نفوسنا أثراً لجفوة أو حفيظة، ولا يعلم

سوى الله ما كانت ستصل إليه الحال لولا تدخل هذه السيدة الوقور في

النقاش وتمحيص الرأي في ذلك الموضوع في عمق ورزاة .

الفصل الثالث

لحظات الطيش !

اصطبغت علاقتى بمن عارضونى فى آرائى بلون من الفتور ، بالرغم مما ساد نفوسنا فى ختام جدلنا من وئام وسلام .. فعمد الالماني وزوجته إلى التحفظ تجاهى، وكانا يتحاشيان التحدث إلى ، وإن حدث ففى برود ملموس.. بينما دأب الإيطالى وزوجته على ملاطفتى، فكانا يسألانى كلما سنحت لهما الفرصة - بلهجة لا تخلو من التهكم - عما إذا كان قد وصل إلى علمى شىء من الأنباء عن «سنيورا هنرييتا» .. وبالرغم من أننا تمسكنا بأهداب المجاملة والأدب فى الحديث، إلا أن ثغرة أصابت علاقاتنا فأضعفت روح الإخلاص والتبسط وحجبت قدرا كبيرا من الصراحة التى كانت تتسم بها أحاديثنا، وحل محلها التحفظ والتوجس ..

وألمنى ذلك كثيراً.. ولكن روح المودة التى حبتنى بها مسز «س» بعد المناقشة التى دارت بيننا خففت من ذلك الفتور الذى اختطه إزائى أولئك الذين خالفونى فى الرأى وحفظوا على فى دخيلتهم.. فقد أخذت مسز «س» «تنتهز» أى فرصة لتبادلنى الحديث فى الحديقة، على غير عاداتها التى عرفناها فيها من ميل إلى العزلة والهدوء والصمت والتحفظ ، إذ أنها - كما سبق أن ذكرت - نادرا ما كانت تتبسط فى الحديث، بل كانت لا تتحدث إلا لما .. أما وقد خرجت عن هذه القاعدة معى، فقد اعتبرت تحينها الفرص للتحدث إلى، ثم التبسط معى فى الحديث، رفعا من شأنى فى نظرها وجميلا تؤثرنى به على سواى، ولا أغالى إذا قلت إنها كانت تسعى إلى وتبحث عنى، وقد لحظت ذلك جليا.. حتى لقد ذهبت بى الظنون من ناحيتها لولا ذلك التاج من خيوط الشعر الفضى الذى يعلو رأسها ..

ومن عجب أن ألاحظ أن جميع أحاديثنا كانت تتصل - بون وعى منا - بمدام «هنرييت» .. وبدا لى أن مسز «س» كانت تستطيب فى قراراتها اتهام تلك المرأة المنكودة - التى استهانت بالمثل العليا والواجبات - بالرعونة والطيش والافتقار إلى الخلق .. وفى الوقت نفسه تصارحنى باغتيابها لما

أستشعره من عطف صادق بالغ لهذه المرأة ، وبسرورها من أن مؤثرا ما لم يمكنه أن يحملنى على أن أحيى عن ذلك العطف، وكانت أحاديثها تدور حول هذه النقطة بالذات، حتى جعلتني فى حيرة من إصرارها هذا الذى كاد يبلغ حد الإلحاح ..

وظل لغز أهتمامها بهذا الموضوع مستغلقا على بضعة أيام، نون أن أوفق إلى تفسيره، وحدث أن ذكرت لها فى إحدى نزهاتنا أن رحيلى أضحى وشيكا، وأننى أفكر فى السفر بعد يومين .. وعندئذ تجلى لى أهتمامها واضحا، فقد اكفهر وجهها الهادئ، وغامت سحابة أسى على عينيها الصافيتين وقالت :

- وا أسفاه .. لدى الكثير أود أن أفضى به إليك ..

ولفتها حيرة شديدة، كأنما انصرف فكرها إلى موضوع آخر .. ثم أضجرتها شرود ذهنها ، وصمتت فجأة، ومدت إلى يدها فى حركة سريعة وقالت :

- ليس باستطاعتى التعبير عما أود الإفضاء به إليك..لذلك أرى من الأفضل أن أبعثه إليك كتابة .

وتركتني وحشت الخطى نحو الفندق فى سرعة لم أعدها فيها من قبل ..! ولم أدهش حين ذهبت إلى حجرتي قبيل العشاء، فوجدت خطابا كتب فى سرعة ولكن بوضوح، لا أذكر نصه بالضبط، تضمن سؤالى عما إذا كان لا يضايقنى أن تروى لى حدثا وقع لها فى حياتها.. وذكرت أن هذا الحدث قديم حتى أنها تشعر بأنها اقتطعت من واقع حياتها، وبما أننى مزعم على الرحيل، فإن ذلك يجعل الحديث ميسورا فى أمر ظل يقلق بالها، ويجعلها تستشعر العذاب فى قرارة نفسها لأعوام نيفت على العشرين .. فإذا كان لا يضيرنى أن أصغى إليها، فعلى أن ألقاها فى ساعة حددتها ..

وأخذتني الدهشة لما حواه الخطاب، فقد كان أسلوبه معبرا ودقيقا لا يصدر إلا عن سيدة محنكة مثلها .. واستعصى على الرد في سهولة حتى أنني مزقت بضعة ربود سطررتها لأنها لم ترق لى، وأخيراً كتبت بأسلوب ارتضيته فقلت : «إننى أعتز بتلك الثقة التى تؤثرينى بها، وسأكون عند حسن ظنك فيما طلبت .. ولك مطلق الحرية فى أن تفضى إلى بما تريد وأن تخفى عني ما تشائين، بشرط التزام الحقيقة نحوك ونحوى فى الرواية، وأكرر لك أنني أعتبر ثقتك تقديرا يشرفنى»

وبعثت رسالتى إليها فى نفس الليلة، فجاعنى فى الصباح التالى رد يقول: «إن أراءك صائبة، فالحقيقة المشوهة تافهة.. ولا بد من إيراد الحقيقة كاملة .. لذلك سأبذل قصارى جهدى لكى لا أبتريها، ولكى لا أخفى شيئا عن نفسى وعنك، احضر بعد العشاء إلى حجرتى، فلن أخشى ألسنة الناس وأنا فى هذه السن المتقدمة، والحديقة ليست مكانا مأمونا للحديث كما اننى أخشى أذان الناس .. إن قرارى هذا ليس بالأمر الهين على نفسى !»

وتم لقائنا على المائدة قبل أن ينصرم النهار.. وكان الحديث متقطعا فى أمور مختلفة، وكأنه ليس بيننا اتفاق ما ، ولكن الاضطراب بدا واضحا على السيدة حتى تقابلنا بعد ذلك فى الحديقة .. ولحقت أنها تتحاشانى، فحز ذلك فى نفسى، وانتابنى شعور بالعجب والإشفاق، وأنا أرقب تلك العجوز تهرب منى كالغزال النافر فى أحد ممرات الحديقة تحف به أشجار متقابلة.. وكأنها شابة فى ميعه الصبا ..

وحان الموعد الذى حددته من ذلك المساء، فيممت شطر حجرتها ونقرت على الباب فى خفة .. ففتحت لى الباب وبمجرد أن طرقتة وكأنها كانت واقفة خلفه فى انتظار مقدمى ، وقد خيم الظلام على الغرفة إلا من ضوء باهت ينبعث من مصباح صغير فوق منضدة.. واستقبلتنى السيدة وهى رابطة الجاش، وكأن زياتى لها زيارة طبيعية عادية ، وليست بتدبير سابق واتفاق

للإفضاء إلى بمكنون نفسها، وقدمت لى مقعدا، وجلست هى على آخر فى مواجهتى، وبدأ أنها تلتزم الحيطه فى حركاتها وسكناتها .. وران علينا صمت فرض نفسه، فلم يقو أحدنا على خرقه، كذلك الذى يسبق أمرا جلا أو حدثا خطيرا يوشك أن ينطلق ويعلن .. وطال الصمت ثم طال .. ولم أجد فى نفسى الجرأة على أن أبدا الكلام، فقد رأيت نفسى أمام شخصية جبارة ذات إرادة فولاذية تصطرع مع صاحبها ومع مقاومة شديدة .. وخفف من توتر أعصابى لذلك الصمت القاتل، ما تناهى إلى سمعى من أنغام موسيقية تنبعث من حجرة الاستقبال .. فسبحت فيها بذهنى وأذنى ..

وضاقت السيدة بذلك الصمت المطبق، فشحذت عزيمتها كمن يقبل على هجوم، وانطلق عقل لسانها وأخذت تقول :

«إن أقسى ما فى الأمر أننى لا أدرى كيف أبدا الكلام .. ومنذ يومين وأنا أروض نفسى على التزام الصدق والصراحة فيما سأرويه، وأتمنى لنفسى التوفيق، ولعلك لا تدرك الدافع الذى يحونى فيما اعتزمت، وأنت لا تمت إلى بصله.. بيد أن ذلك الامر استغرق كل تفكيرى ، ويمكنك أن تثق فى صدقى حين أقول إن مما هو فوق طاقة الانسان أن يظل فكره طيلة حياته نهبا لحادث شغل من تلك الحياة يوماً واحداً.. نعم استغرق ما سأفضى لك به يوماً واحدا من عمرى الذى قارب السبعين عاما.. !

« وكم كنت أحدث نفسى فى شبه هذيان : ماذا فى أن تمر بالمرء لحظة من لحظات الطيش .. مرة واحدة فى هذا العمر المديد ؟! .. ولكن أين المفر من ذلك الرقيب الغامض .. الضمير ؟! وحين شاعت المقادير وسمعتك تناقش حادث مدام «هنرييت» من الناحية الواقعية، قفز إلى ذهنى أن باستطاعتى أن أضع حدا لأمرى الذى يقضىنى ، والذى يدفعنى دائماً إلى أن أقف من نفسى لنفسى موقف الاتهام، وجال بخاطرى أننى سوف أحظى براحة البال

إن أنا أفضيت فى صدق وصراحة لشخص ما بحديث ذلك اليوم المفرد من أيام عمرى ..

« وقد كان فى الإمكان أن أخفف من وطأة ذنبى ووخز ضميرى بالاعتراف من أمد بعيد لو أننى كنت أعتنق الكاثوليكية، ولكننا بتبعتنا للكنيسة الانجليزية محرومون من هذا السبيل .. لهذا فقد استقر رأى على ما أنا مقدمة عليه ، فأقضى إليك بسرى لأتطهر منه أو على الأقل لأخفف من عبء وزرى، ولا يسعنى إلا إزجاء الشكر لك لقبولك ما عرضت ولم ترفض أو تتردد، ولذلك سأروى لك قصة ذلك اليوم من أيام عمرى، فإن بقية الأيام ليست بذات قيمة بل لعلها تبعث الضجر لمن يلم بها..

« سارت حياتى رتيبة عادية لا يتخللها طارئ من الطوارئ حتى وصلت الى بداية الحلقة الخامسة من عمرى .. فقد نشأت فى أسرة ذات ثراء كبير فى «اسكتلندا» وكانت لنا ضياع مترامية ومصانع عظيمة، فكنا نعيش فى بذخ كما يعيش النبلاء .. نقضى جل السنة فى ضياعنا، ونمنح أنفسنا عطلة فى كل عام نقضيها فى «لندن» بوضعت المقادير فى طريقى الرجل الذى قدر له أن يكون زوجى، فعرفته فى أحد المجتمعات وكنت فى الثامنة عشرة حينذاك، وكان الابن الثانى فى أسرة «س» وهى من الاسر المرموقة الذائعة الصيت.. قضى فى خدمة جيش الامبراطورية عشر سنوات بالهند، ولم نلبث أن تزوجنا وعشنا فى بذخ شأن الثروة من أمثالنا.. ورتبنا حياتنا فى نظام شائق بديع، ثلاثة أشهر نقضيها فى «لندن» نغشى فيها المجتمعات الراقية من أبناء طبقتنا، وثلاثة أخرى نقضيها فى مزارعنا نستمتع بسحر الريف وجماله ونضرتة، وكنا نقضى بقية السنة فى ربوع فرنسا وإيطاليا، وإسبانيا، ترفرف السعادة على حياتنا الزوجية ..

وقد من الله علينا بولدين اكتملت الآن رجولتهما ..

« ثم ضمن علىَّ القدر وشاء أن ينتزع هنائي.. فمات زوجي فجأة - وكنت وقتذاك في الأربعين من عمري - وكان قد مرض بالكبد بسبب السنين التي قضاها في المناطق الحارة.. وعانى في أيامه الاخيرة من الآلام ما لا أستطيع وصفه، وكان ابننا الأكبر في ذلك الوقت قد جند في الجيش، كما كان الابن الثاني في الكلية الحربية.. وهكذا وجدت نفسي لا أنيس ولا جليس يخفف من كربى ووجشتى ، فكانت الوحدة عذابا لا يطاق لمن ألقت حياة المجتمعات، فتملكني القنوط.. وبدا لى أن بقائى أضحي مستحيلا في ذلك البيت الخاوى، تقض مضجعى وتستنزف نفسى ذكريات الكارثة التي حلت بى وفجيعتى في زوجى .. فخطر لى فكرة بدا لى أن فيها عزاء وسلوى هى أن ألجأ إلى التنقل والأسفار ، فاستقر رأى على ذلك، وشجعنى أن ابنيَّ لم يكونا قد تزوجا ..

«وبدت لى حياتى بلا هدف أو جدوى، فقد قضى الرجل الذى تقاسمت معه الحياة والهناء والسعادة والافكار والميول مدى ربع قرن تقريبا.. وكان ولداى قد بلغا من العمر حدا يستطيعان معه أن يستقلا عنى، بل لقد أحبت لهما ذلك حتى لا يعكر وجودى معهما مرح شبابهما بحزنى وأسأى .. فضلا عن اننى زهدت متع الحياة، ولم تعد نفسى تهفو الى شىء منها.. !

« ويعجز لسانى الآن أن أصف لك تلك الشهور الاولى التى خيم عليها الحزن والكآبة والأسى .. وأذكر أننى تمنيت أن أموت فأسترىح، واستيدت بى تلك الرغبة، بيد أننى لم أجد فى نفسى جرأة على مجابهة الموت عمداً ، الموت الذى أتمناه لينقذنى من لوعتى وأسأى !

« وذات يوم ، وكان قد انقضى على وفاة زوجى عام وبضعة أشهر، وكنت قد بلغت الثانية والأربعين من عمري فى ذلك الوقت، وجدت نفسي في «مونت كارلو» وقد سعيت إليها مدفوعة بالرغبة الملحة فى الابتعاد بنفسى عن حياتى التى أضحت مملة ، ولكى أهرب من همومى وأفكارى .. لأن

حياتى كما ذكرت صارت بلا هدف أو جدوى ، فليست هنالك غاية أسعى إليها أو أشغل فيها وقتى ، لقد كان الدافع الحقيقى الذى ساقنى إلى «مونت كارلو» هو الملل والضجر والفراغ والحياة الخاوية المعتمدة تتضافر مع بعضها فتثقل على النفس، فتحاول الهروب ولو عن طريق ما يصادف الانسان من أحداث تافهة عارضة، وكنت كلما شعرت بجمود مشاعرى وأحاسيسى، وبوطأة السأم على روحى ونفسى، وبالخواء الذى يكاد يفتك بى ، استبدت بى الرغبة فى الاندفاع بكليتى فى خضم الحياة المنطلق فى سرعة مذهلة .. إن الإنسان الذى حرم متع الدنيا ولذائدها وأهدافها، تستيقظ أعصابه من جديد وتنبض أحاسيسه بالأحداث العنيفة التى تصيب الغير، تماما كتأثير الموسيقى العميقة فى السامعين أو الروايات التى تظهر على المسارح فى الناظرين ..

الفصل الرابع

موائد اللعب

استرسلت السيدة فى ذكر أحداث يومها المشهود فقالت :

« عمدت الى الإكثار من التردد على «الكازينو» .. فقد كنت أستشعر لذة غريبة طاغية، وأنا أرى أمارات البهجة والفرح ترتسم على وجوه فريق من اللاعبين، فى حين تزخر وجوه فريق آخر بآيات الأسى والتعاسة، بينما لا تهتز فى أنا جارحة بشعور ما .. وقفزت الى ذهنى ذكرى زوجى، فقد كان رغم اتزانة واعتداله يهوى اللعب ويمارسه عندما كنا نحضر إلى «الكازينو» فى سالف الايام .. فرأيت أن أتعبد فى محراب أحزاني بالوفاء لهوايته تلك...!

« وانبثق أول شعاع من حدث ذلك اليوم فى تلك القاعة.. وكان ذلك أشد صرامة وإثارة من كل مر بى فى حياتى وديناى .. فما أن بدأت ساعات ذلك اليوم، حتى انقلب ميزان حياتى لبضع سنوات .. إذ حدث أن تناولت طعام الغداء ذات يوم مع بوقة «م» ، التى تربطها بأسرتى صلة قربنى النسب، وانصرم النهار، وأقبل الليل، فشعرت بنشاط جعلنى لا أرغب فى أن أوى إلى فراشى بعد العشاء.. فدلقت الى صالة اللعب، ورحت أتنقل من مائدة إلى مائدة كالفراشة متفرجة متسلية بون أن أشارك فى اللعب .. فقد كانت هوايتى أن أرقب - بطريقة معينة كان قد علمنى إياها زوجى الراحل - من خائنهم الحظ من اللاعبين المنتثرين على الموائد، حين رأنى وقد استبد بى الضجر لتحديقى فى الوجوه التى تتبدل .. من سحن عجائز متفضنات، وهن يقضين الساعات تلو الساعات بغير ملل .. جالسات إلى موائد اللعب ، بون أن تجرؤ إحداهن على الاشتراك فى شوط واحد من اللعب، أو وجوه المحترفين الماكرين أو الغانيات هاويات المقامرة.. وإنه حقا لخليط عجيب لا يجمعه توافق أو انسجام سعى إلى هذا المكان من جميع أنحاء العالم، وهو فى الحقيقة أقل بهاء وإثارة للرأى، بعكس ما درجنا على تخيله فيما نقرؤه

فى الاقاصيص التى تضىف علىهم ثوباً وبراقاً ونموذجاً للاناقة
والارستقراطية .. !

« إنتى أنقل إلك الآن ما كان يحدث منذ عشرين عاماً، عندما كان
الرخاء يعم العالم والنقود تتناثر على موائد اللعب من كل الانواع والفئات
من أوراق مالية وعملات ذهبية، وكان «الكازينو» - معقل القمار العالمى -
أعظم روعة وأشد بهاء وفتنة مما هو عليه الآن .. وكانت أموال الوافدين إليه
تنساب كالماء السائل دون وعى أو تعقل ..

« وكانت هذه المظاهر حرية بأن تلفت النظر وتبعث على التسرية والتسلية
.. ولكننى رغم ذلك ضقت برتابتها المتشابهة ، إلى أن دلتنى زوجى - وكان
نايغى فى الفراسة وفى قراءة الكف - على طريقة فذة ابتكرها لتتبع
الانعكاسات التى تظهر على وجوه اللاعبين ، وهى طريقة عجيبة تطرد عن
الإنسان ما قد يعتريه من خمول أو جمود .. ومؤدى هذه الطريقة عدم تأمل
الوجوه، بل التفرس فى مسطح المائدة حيث تتحرك أيدى اللاعبين وأناملهم
فى حركات جد عجيبة ..

« ولا أعلم هل سمحت لك فرصة شاهدت فيها إحدى موائد اللعب، تلك
التي يسمونها الموائد الخضراء .. حيث تجرى فوقها الكرات فى ترنح
المخمور وهى تنتقل بين الأرقام ، والنقود من جميع الانواع والفئات تتساقط
على مربعات الموائد كالمطر، فيجمعها المراقب أو يدفع بها إلى سعيد الحظ ..
« وأطرف ما يراه الإنسان هو أيدى اللاعبين، إنه حشد من أيد متباينة ..
فمنها الضامرة، ومنها النحيلة المعروقة، ومنها المرتعشة فى ترقب وتوفز
انتظاراً لبدء اللعب ونتيجته .. ثم منها العارية ، ومنها ما برزت من أكمامها،
ومنها ما تكدست فيها الخواتم ذات الجواهر المتلاثلة ، ومنها البضة الناعمة
ومنها ما كساها شعر كثيف .. على أنها على اختلاف أنواعها وصفاتها

وأشكالها تتفق فى أمر واحد هو توتر الأعصاب وانفعال الحركات والرعشة التى تنبئ عن نفاد الصبر ..

« ومنظر الأيدى فى حركاتها اشبه بما يجرى فى ساحة من ساحات سباق الخيل التى شدت أعنة جياها حتى لا تكبح فى جماحها لحظة الانطلاق، فإنها - أى الأيدى - تنقبض ، وترتعض ، وتراجع ، ثم تندفع فى حركات هستيرية وهى ممسكة بالنقود فى تكالب ، ثم فى توقفها عن الحركة وكأنها شلت .. تشى بنفسية اللاعب وشخصيته ، فالأيدى ذات الأظافر التى أهمل تهذيبها تدل على أن صاحبها شحيح ، والأيدى التى تتحرك فى بطاء واسترخاء تتم عن إسراف ، والأيدى الثابتة الساكنة تحمل معنى الدقة فى تقدير نتائج اللعب .. أما الأيدى المرتعشة فصاحبها مشحون بالقنوط وفقدان الأمل .. فحركات الأيدى أشبه بشاشة «السينما» تنعكس عليها شتى المرئيات ، وهى تمسك بالنقود فى أشكال متباينة .. فبعض الأيدى يفرك النقود ، والبعض يثرها ، والبعض يقبض عليها فى تشبث ثم يلقى بها فى قنوط مما يدل على أن صاحبها قد منى بخسارة فادحة يحتقر معها الضئيل الذى تبقى له .. !

«يقولون إن اللعب مرآة اللاعب» .. ولكننى لست على هذا الرأى ، ففى اعتقادى أن يد اللاعب تعطى صورة حقيقية له أثناء اللعب ، ومن ثم فإن جميع المقامرين ، أو معظمهم على الأقل ، يروضون أعصابهم على الصلابة ، ويتحكمون فى انفعالاتهم بحيث لا تنعكس أو تظهر دلالتها على وجوههم .. ففى يتشبثون بالجمود ، ويخفون حركات أفواههم ، ويبتلعون أحاسيسهم النفسية والعصبية ، ويقيمون سدا بين عيونهن الواشية وسرائرهم الدفنية حتى لا تشى عيونهم بانفعالاتهم ، ويتظاهرون بعدم الاكتراث .. إنهم بكل ذلك يحصرون كل اهتمامهم فى وجوههم ناسين أيديهم ، نون أن يلحظوا عيون الرقباء المسلطة على تلك الأيدى فيستشفون منها ما جهد أولئك فى

إخفائه على وجوههم ، فلا تفرهم الابتسامة الصفراء المغتصبة أو التظاهر بعدم الاكتراث ..

«ولاشك أن اليد عنصر فعال يميظ اللثام عن أعمق الأحاسيس، ولا بد من لحظة يخونها فيه ثباتها الاضطرارى ، وذلك فى اللحظة التى تستقر فيها الكرة عند نهاية مطافها فى لف ووردان ، فتعلن بذلك عن الرقم السعيد.. فتصدر عن مئات الأيدى حركات تشنجية لا إرادية هى أقوى تعبير يفصح عن غريزة الإنسان، وقد وجدت بالخبرة أن مراقبة حركات الأيدى العصبية والتى تكشف عن مدى انفعال صاحبها ، أشبه بمشاهدة مسرحية مؤثرة أو سماع موسيقى تثير الشجن ! ..

«ولا أطيل عليك فى وصف المئات من حركات تلك الأيدى المتباينة .. فبعض هذه الأيدى خشن ذات أصابع صماء تقبض على النقود فى استماتة، وبعضها لا تزياله الرجفة فيتهيب من لمس النقود، ويمكن القول إن لكل يد ما يميزها عن غيرها، حتى لقد تختلف اليد اليمنى فى حركاتها عن اليسرى فى الشخص الواحد، أما أيدى المراقبين فعلى العكس من ذلك، فهى مجرد أعضاء جامدة ذات حركات منتظمة رتيبة، وهى تحدث أصواتا غريبة وهى تلوح هنا أو هناك .. ولها تأثير سحرى عجيب فى اللاعبين ، فهى بمثابة القائد الذى يحسم الأمر فى ثورة جامحة!.

«ولا يفوتنى أن أنوه بالمتعة التى كنت أستشعرها فى مراقبتى لهذا الخضم من الانفعالات وحركات الأيدى ، وكان ظهور أيد جديدة مبعث سرور كبير عندى ، فكنت أبادر الى تأملها، ولا أكون مبالغة حين أقول إننى كنت أعتبرها وكأنها أشخاص .. منها ما يروق لى ومنها ما لا يروق ، وكنت أتقزز من بعضها فلا أطلع إليها ولا يعينى أمرها .. وكأنى أرى فيها منظرا يبعث النفور فى النفس ! بيد أننى كنت أجد متعة كبيرة فى كل يد جديدة

لأنها تثير عندى شعور الفضول وحب الاستطلاع، وكثيرا ما كنت لا ألقى
بالأ إلى الوجوه سواء أكانت للرجال أو السيدات ..

«وكن قد مررت بمائتين تكاثر الناس حولهما عندما وطئت قدمي
«الكازينو» فى تلك الأمسية التى بدأت فيها حكايتي وما إن اقتربت من
المائدة الثالثة حتى أخذت أحصى بعض القطع الذهبية وإذا بى أرى ما
أدهشنى .. فقد ران على المائدة وجوم وصمت مفعمان بالتوفز، وخيل إلى
أننى أسمع صوت الصمت. إن كان للصمت صوت .. فقد اقتربت الكرة من
نهاية مطافها، ولم يبق إلا لحظة تستقر بعدها عند الرقم المحظوظ ، وإذا بى
وسط هذا الصمت الزهيب أسمع صوتا غريبا فى مواجهتى يشبه صوت
العظام حين تنهشم ! .. وملأنى الذعر حين تطلعت ناحية الصوت لأرى يدين
ليس لهما نظير ، وقد أطبقت إحدهما على الأخرى فى التحام عنيف وفى
شدة وحشية، فانطلق منهما ذلك الصوت الغريب الذى يشبه شيئا صلدا
يتكسر ..

«وراعنى أن أرى الجمال فى هاتين اليدين.. ذلك النوع النادر من
الجمال، فقد كانتا طويلتين فى إسراف، شديدتى النحول ، ولكن عضلاتهما
خارقة فى القوة.. كما كانتا فى بياض الثلج، وفى أطرافهما أظافر كالحة
لامعة شذبت فى عناية، ووجدت نفسى لا أكف عن التحديق فيهما، فقد
أخذتني الدهشة لهاتين اليدين العجيبتين، وراعتنى حركاتهما وهما
تتصارعان فى عصبية وعنف، وأيقنت أنهما لرجل تضاهى قوته قوة هرقل ،
وأن قوته تلك تجمعت فى أصابعه، ففاضت بها حتى لا يكتبها فتقضى عليه..
وانفصلت كل من اليدين عن الأخرى ، وتراختا على المائدة بلا حراك فى
اللحظة التى استقرت فيهما الكرة وأعلن المراقب الرقم المحظوظ، وقد نمت
اليدان فى ارتخائهما عن هلع وأسى يعجز أبلغ بيان عن وصفهما .. فكأنما

أردتهما رصاصاً أو انقضت عليهما صاعقة .. لقد كانتا يدين لشخص
سرت روح المقامرة فى عروقه ودمه ، فعبرتا عن انفعالاته أصدق تعبير ..!
«استلقت اليدان على المائدة، وظلتا كذلك برهة وكأنهما سمكتان مبيتان
لفظهما البحر وألقى بهما على شاطئه .. يبعث منظرهما فى النفس غثيانا ..
وبعد فترة أخذت أصابع اليد اليمنى تتحرك فى ارتجاف، ثم تتقلص فى
انكماش وتردد ، وتمسك «فيشة» فى حركة عصبية وتقلبها فى حيرة .. ثم
إذا باليد تتراجع فجأة وكأنها أسد يتحفز للهجوم، فتقذف «بالفيشة» إلى
حيث المربع وكأنها لقمة غير سائغة تلفظها .. وفى هذه اللحظة اضطربت
اليد اليسرى بعد استرخاء، ونهضت إلى زميلتها اليد اليمنى التى كانت
ترتعث فى تشنج، وكأن إلقاء «الفيشة» قد هدها واستنفد قواها ، وراحت
اليدان ترتجفان معاً، فصدر عنهما صوت كصرير الاسنان حين تصطك
تحت وطأة المرض، وأخذتا ترتطمان بالمائدة بشكل لا شعورى ..

«أجل .. لم يحدث أن رأيت - على طول عهدي بالسنين - يدين بليغتين
فى التعبير كهاتين اليدين التى ترجمت اختلاجاتهما جميع المشاعر
والاحاسيس .. حتى لقد تضاعل بجانبهما كل نشاط كان يجرى فى حجرة
اللعب من همهمة وصياح وغدو ورواح ، بل فى حركة الكرة ذاتها وكأنها فى
قفزاتها جواد هائج جامح .. لقد تضاعل كل ذلك على تعاقبه - فى نظرى -
بجانب هاتين اليدين المنتفضتين العجيبتين اللتين استغرقتا كل انتباهى
وتفكير .. !

«واستبد بى الفضول الجارف لأن أطلع الى وجه صاحب هاتين اليدين
النادرتين .. فاختلست النظر فى حذر كما اختلسته فى توجس، فقد كانت
اليدان تبعثان الرهبة فى نفسى ، وزاد ارتياعى حين انتقلت بنظرى من
اليدين الى الذراعين، ثم الى الكتفين اللذين يعلوهما وجه لا يقل فى ثورته
وانفعاله عن اليدين .. تتم أساريه عن صراع عنيف، بيد أن الوجه كان دقيق

التقاطيع نموذجاً لجمال فريد رائع وكأنه وجه حسناء فاتنة ! .. لم يسبق لى
أن رأيت وجهها يضارعه فى بهائه، حتى ليخيل إلى الانسان أنه ليس وجه
ذلك الجسد الذى يحمله .. وكأنه وجه ناعم رقيق مستعار لجسم مارد مكتمل
الرجولة !

«وأشبهت غريزة الفضول .. فرحت أتأمله ملياً، فخيل إلى أن قناعاً
يكسوه فيخفى حقيقة أمره ، أو أنه رجل صناعى لا حياة فيه، فقد كانت عينه
ثابتة لا تطرف إلا نادراً وفى ومضات خاطفة، كما كانت حدقة العين السوداء
ساكنة هى الأخرى وكأن لا حياة فيها ، ينعكس عليها طيف كرة اللعب وهى
تجرى فى جنون داخل الصنوق المستدير .. !

الفصل الخامس

يبدان ساحرتان

وسكنت قليلا لتسترد أنفاسها ، ثم استطردت تقول :
«كان ذلك الوجه الجميل الفاتن الزاخر بشتى الأحاسيس والانفعالات ،
والذى لم يصادفنى فى حياتى نظيره ، وجه شاب فى عنفوان الفتوة فى
حوالى الخامسة والعشرين من العمر .. كان وجها دقيقا يميل إلى الاستطالة
فى خفة ، يترجم فى وضوح ما ينتابه من أحاسيس ، ولا يمت لمظاهر
الرجولة بسبب ، فكأنه وجه طفل يلهو فى براءة.. وقد أدركت ذلك فيما بعد ،
فقد بدا لى لأول وهلة محتجبا خلف قناع من الأحاسيس الانفعالية التى تدل
على جشع مستعر مضطرم .. وكان فمه دقيقاً وكأنه فم فتى يافع ، أطلت
من بين شفثيه الزاخرتين بالحيوية أسنان كانت تصطك فى تشنج وانفعال،
بينما الشفتان ثابتتان منفرجتان ، وزادت من بهاء طلغته تلك الخصلة من
الشعر الذهبى اللامع المسترسل - فى غير تموج - التى انسدت على
جبينه.. وراحت فتحنا أنفه تهتزان فى اختلاج متواصل، وكأن تيارا كهربائيا
يدفع موجاته فتسرى تحت صفحة وجهه .. وأخذت رأسه تزداد انحناء إلى
الإمام ، دون وعى منه، فقد كان يتابع بكل جوارحه حركة الكرة فى
بورانها..

«وتكشف لى إذ ذاك سر الصراع كانت يداه واقعتين تحت تأثيره، فقد
كان اشتباكهما لى يحفظ توازن ذلك الجسد الذى فقد القدرة على
الصمود.. ولا يضيرنى أن أعيد القول إننى لم يصادفنى فى حياتى وجه
يزخر بالمشاعر الدافقة فى سفور واضح كهذا الوجه، فوجدت نفسى -
تلقائيا - أتفرسه فى نهم ، وقد أخذتنى تلك النظرات الحائرة التى كان يتتبع
بها الكرة فى حركاتها .. وقد شغلنى ذلك عن أى أمر عداه ، فلم أعد ألقى
بالا إلى شىء آخر .. لأنه استحوذ على كل اهتمامى حتى بدا لى أن كل أمر
آخر تافه عديم القيمة، معتم، بجانب ذلك البريق الذى يتدفق من ذلك
الوجه..

«وظللت ساعة بأكملها وأنا شاخصة اليه وحده نون سواه، قضيتها فى التفرس فيه وتأمل ومتابعة كل حركة من حركاته وخلجة من خلجاته ، وعلى حين غرة ، ومضت عيناه ببريق مؤتلق وهاج، وافترقت يداه عن بعضهما ، وانفصلت الأصابع عن بعضها فى حركة عصبية.. حين وضع المراقب فى اليدين عشرين قطعة ذهبية، أطبقتا عليها فى استماتة.. فأشرق الوجه ، وزايله الانفعال، واكتسى بالبشاشة ونشوة الصبا.. فنمت أساريه عن غبطة وتألفت عيناه ، واعتدل رأسه بعد انحناء فى رشاقة واطمئنان، فانتصب فى وقفته وقد انتشى بالفوز ، وراح يقلب القطع الذهبية بين يديه فتحدث رنينا محبيا ..

«وراح الشاب ينظر الى رقعة المائدة ثانيا كأنه ينشد صيدا جديدا .. وبحركة عصبية وضع القطع الذهبية جميعها فى لهفة على أحد المربعات ، ثم أخذ يترقب النتيجة ، وعاد الانفعال يعتريه من جديد .. فأخذت شفتاه تهتران وتوترت يداه، وارسم على الوجه الذى كان قد هدأ قلق جارف، واستمر الأمر هكذا الى أن فعل القنوط فعله، فاسترخت اليدان وشحب الوجه الذى كان منذ لحظة يفيض بالشباب والحيوية، فأضحى وكأنه وجه كهل ذهب تألق عينيه..

«وقد حدث ذلك بين غمضة عين وانتباهتها .. فقد استقرت الكرة على غير الرقم الذى وضع فوقه قطعه الذهبية، وبذلك جانبه الحظ.. وأخذ يرسل نظرات بلهاء بلا وعى أو شعور، ومرت على ذلك بضع ثوان اعقبتها صيحة من المراقب نبهته وكأن مسا كهربائيا سرى فى جسده ، فتناول قطعاً ذهبية أخرى ووضعها فى أحد المربعات ثم نقلها الى مربع آخر .. وإذ بدأت الكرة تتحرك ، عاد فتناول ورقتين ماليتين ألقى بهما فى نفس المربع الذى اختاره كأنما أوحى إليه أن يفعل ذلك ..

«وتأرجح به الحظ بين ربح وخسارة ساعة أو بعض ساعة، لم أكف خلالها عن التطلع الى ذلك الوجه الذى تتناوبه شتى المشاعر والأحاسيس تبعاً لنتائج اللعب من إقبال الحظ أو إيداره .. كما لم أكف عن متابعة يديه الساحرتين وهما ترتفعان وتنخفضان وكأنهما كرة تتقاذفها الأمواج .. وهما تنمان بحركاتهما عن انفعالات صاحبهما التى لم أر لها مثيلاً على وجه أكفأ المثليين براعة .. انفعالات وأحاسيس كأنها أضواء تعكس مرئيات طبيعية، وما انصرفت يوماً من الأيام بكليتى ، وحصرت اهتمامى فى أمر من الأمور أو شىء من الأشياء ، مثلاً انصرفت الى تأمل هذه الفورة المضطربة.. وأنا واثقة لو أن أحداً راقبني حينذاك لذهب به الظن أننى كنت واقعة تحت تأثير تنويم مغناطيسى ، فقد كنت مسلوقة الحس كلية ..

«وما كان باستطاعتى أن أحول نظرى عن التطلع إلى هذه الانفعالات التى كانت تتعاقب فى إثر بعضها .. فقد كان كل ما أسمعه من ضحكات أو زفرات ، وكل ما أراه من نظرات وانطباعات ومخلوقات وكأنه اشباح تخطر أمامى فى صورة باهتة، عدا ذلك الوجه الذى خيل الى أن هالة من النور تحيط به فتجعله واضحاً بون سواه .. فلم أعد أعى شيئاً مما حولى أو أسمع صوتاً أو أرى القوم فى تدافعهم، فلم تستقر أمام عيني سوى هاتين اليدين، وهما تقذفان بين الفينة والفينة بالنقود فوق المائدة أو لتجمعها .. بل إننى لم أعد أفكر فى أن أنظر إلى الكرة لأتابع حركاتها وموضع استقرارها، أو أنصت إلى المراقب وهو يعلن النتائج .. ومع ذلك تراءى لى كل شىء واضحاً ، وأنا أراقب يدى الشاب واختلاجاتهما ، وخيل إلى أننى فى حلم لا فى يقظة واقعية .. !

«لم أكلف نفسى عناء التطلع إلى المائدة لأتبين اللون الذى استقرت عنده الكرة ، أو أنها قد استقرت فعلاً ، أم لا تزال تجرى كما فى فلك دورانها ..

فقد كنت أقرأ نتيجة كل شوط، ربما كان مكسبا أو خسارة، فى انفعالات ذلك الوجه الذى استغرقته شهوة المقامرة واستبدت بأعصابه واختلاجاته .. «وخلت لحظة قاسية رهيبة، كنت أتوجس منها فى قرارة نفسى .. ناعت بها أعصابى المتوترة، كما ينوء المرء تحت وطأة العاصفة قبل أن تدهمه .. فقد رأيت الكرة تتباطأ فى تناقل وأخذ الصوت الذى تحدثه يخفت رويدا .. وأصبحت اللحظة الحاسمة وشيكة الحلول ، والتى تتقلص فيها الشفاه لتحبس الأنفاس القلقة المترقبة اللاهثة .. حين أعلن المراقب أن رقم «صفر» هو الفائز ، وأخذ يجمع النقود الذهبية والورقية من مربعات المائدة .. فندت عن اليدين حركة تفيض بالهلع، قد انتفضتا فى عصبية.. ثم استرختا فى إعياء وتهاك ، وكأنا تحت وطأة ثقلهما قد جذبتهما قوة طاغية نحو المائدة، فراحتا ترتعشان فى ألم .. وفجأة دبب الحيوية فيهما، فانحسرتا عن المائدة واتجهتا الى جسم صاحبهما تتلمسان جميع جيوبه بلهفة شديدة لعل بأحد هذه الجيوب قطعة من نقود لم ينتبه اليها.. ولكنهما وجدتا الجيوب خاوية فعاودتا البحث مدفوعة بالأمل .. نون جدوى ، وعاد اللاعبون فاستأنفوا اللعب، وعاد رنين النقود الذهبية يطن فى الأذان، وأخذت المقاعد تتحرك وتتنقل ، وامتلأ الجو بالهمسات والتكهنات .. أما أنا فقد اعترتنى رجفة شديدة وشملنى قنوط قاتل ، فقد وجدت نفسى نون أن أشعر قد اندمجت فى تل الأحاسيس والمشاعر ، وكأئننى أنا التى رحت أنقب بين جيوبى عن قطعة نقود منسية..!

«وفجأة انتصب الشاب واقفا، وكأنه أصيب بما هد قواه ، وأخذ يتمطى حتى لا تختنق أنفاسه .. وترنح المقعد من خلفه تحت تأثير وقفته المباغته ، وهوى على الأرض محدثا صوتا شديدا.. بيد أن الشاب لم يلق بالا إلى ماحدث، ولم يكلف نفسه عناء التطلع إلى من بالقاعة من المقامرير الذين أخذتهم الدهشة وهالهم منظر الشاب الذى كاد يهوى إلى الأرض من فرط

القنوط .. ولكنه تحامل على نفسه وأخذ يبتعد عن المائدة فى خطى متئدة متناقلة ..!

«وهالنى ذلك المنظر .. فشعرت أننى مشبودة إلى مكانى لفرط هلعى، وأيقنت بالبديهة أن الشاب فى طريقه إلى لقاء حتفه .. فلم تكن الطريقة التى نهض بها توحى بأنه ذاهب الى نزهة، أو حفل سمر ، أو ملهى ، أو أن موعدا له مع امرأة قد حان فهو ساع الى مخدعها .. وإنما ارتسم على صفحة وجهه فى جلاء أنه اعتزم أمرا جلا .. اعتزم ان يضع حدا لحياته فيموت ولم يكن ذلك ليخفى على أبسط العقول ، أو حتى أصحاب النظرة السطحية ، فقد بدا واضحا أن الشاب قد أفلس ولم يعد يملك بنسا واحدا فى جيبه أو بيته ، وأنه قامر بكل ما يملك ، فاستقر رأيه على أن يقامر بما تبقى له فى الدنيا .. بحياته ، فسار بتلك الخطى الوئيدة المتعثرة نحو المجهول .. الذى لا بد وأنه خارج نطاق الحياة ..

«وكان قد خالجنى الشعور بالتوجس منذ طرقت هذا المكان ، أن ممارسة المقامرة لا تقتصر على الريح والخسارة، بل إن لها أثارا أعمق غورا وأبعد مدى من ذلك بكثير .. أثارا لا تنحصر فى المال فقط بل فى حياة الإنسان وصيرورته ، لذلك هالنى أن أرى شبح الموت يحوم حول الفتى ، وقد تجلى ذلك لما رأيته من شحوب على وجهه الذى لا يزال فى نضارة الشباب .. فلما رأيته ينهض متحاملا فى إعياء بالغ، تقلصت قبضتائى لا شعوريا، لأننى كنت قد انصرفت بجميع حواسى إليه .. فاثرت فى نفسى خطواته المتعثرة ، كما أثرت انفعالاته من قبل فى أعصابى ، ووجدت نفسى أتبعه تلقائيا بدافع قوة لا إرادية .. وبعون وعى منى أو انتباه رحت أهرول فى الممر المفضى الى الخارج، وكأننى منومة تنويمًا مغناطيسيا أو إحدى صريعات مرض السير أثناء النوم ..!

«فى تلك اللحظة كان الشاب قد دلف إلى حجرة الثياب، وقد حمل الخادم معطفه .. ولكن زراعى الشاب وهنتا كما لو كان قد أصابهما شلل ، فراح الخادم يعاونه وكأنه يعاون طفلا صغيرا لا يدرى كيف يرتدى معطفه أو عاجزا يقعده المرض عن ارتدائه فى سهولة.. ولمحت الشاب يبحث بطريقة آلية عن قطعة من النقود فى أحد جيوبه ينفخ بها الخادم دون جدوى .. وبدا لى فى هذه اللحظة أنه استعرض كل ما مر به فى غرفة اللعب وتذكره ، فلم يسعه إلا أن يتمتم ببضع كلمات مبهمه كأنه يعتذر بها للخادم .. وكما حدث حين انتصب واقفا فى حجرة اللعب، سار فجأة الى الخارج وأخذ يهبط السلم متعثرا كالمخمور ..

«ومنظر كهذا حرى بأن يكون محرجا ومثيرا، حتى لقد شعرت بالخلج لوقوفى ومشاهدته .. فأشحت بوجهى لأننى استشعرت بالضيق والكآبة فقد تراءى لى أننى أمام مأساة من مأسى اليأس وتجربة من تجارب الحياة القاسية، يعانىها شخص لا يمت لى بصلة .. فشملى ألم قاتل استغرق كل مشاعرى وكيانى ، وجعلنى أتبع الشاب ، فتناولت معطفى وارتديته على عجل، وبلا شعور ، وبدون وعى أو تفكير ، اندفعت فى غمرة الظلام مقتفية أثر الشاب وخطواته ..

الفصل السادس

مأزق

ران الصمت على السيدة، وتوقفت عن الكلام .. وكانت طوال حديثها قابضة فى مقعدها فى سكون نون حراك، ولم تتوقف عن الحديث إلا نادرا ريثما تسترد أنفاسها، يشملها ذلك الهدوء المعروف عنها .. كما كان حديثها واضحا جليا كأنما كانت قد أعدت نفسها له إعدادا كاملا ، فقد سردت الحوادث فى ترتيب وتنسيق بديعين .. وأطالت الصمت فى هذه المرة ، وبعد شئ من التردد تركت سياق القصة جانبا وأخذت تحدثنى موجهة الى الكلام قائلة :

«غنى عن القول أننى أخذت على نفسى عهدا بأن أقص لك الموضوع، وأن أسرد دقائقه فى صدق وصراحة نون مواربة أو دوران .. ولذلك أرى لزاما على أن أرجوك أن تثق كل الثقة فيما أرويهِ، وألا ينصرف ذهنك الى تعليل تصرفى إلى بواعث عاطفية أو جنسية يخجلنى أن أفكر فيها الآن.. فإن خطر ذلك ببالك ، فسيكون قد جانبك الصواب وستتراءى لك احتمالات أبعد ما تكون عن الحقيقة والواقع ، ولذلك فمن الضرورى أن أجعلك توقن أننى حينما اقتفيت أثر ذلك الشاب المحطم الموشك على الهلاك، لم أكن قد استشعرت عاطفة حب نحوه على أية صورة من الصور .. وأننى أنفى عن نفسى أننى نظرت اليه نظرة أنثى إلى رجل أو نظرة جنس ، لأننى - وأصدقك القول - كنت قد نيفت على الأربعين فى ذلك الحين ولم يشغل فكرى بأى رجل بعد وفاة زوجى .. بل اعتبرت ذلك أمرا ولى وانقضى وصار فى سجل الماضى ، ولابد لى من أن أذكر لك ذلك على وجه التدقيق .. وإلا فلن تدرك ما تلا ذلك من أحداث لبشاعتها وشناعتها ..

«وإنه لمن العسير على حقا أن أصور الشعور الذى انتابنى والذى لم أجد فى نفسى القدرة على مقاومته تصويرا دقيقا .. ذلك الشعور الذى دفعنى الى تتبع ذلك البائس ، ولأشك أن الفضول كان أحد النوافع ، ولكنى أعتقد أنه يرجع بالأكثر الى الهلع والتوجس من حدوث أمر رهيب ، ولا أكون مبالغة

إذا ذكرت اننى استشعرت ذلك منذ اللحظة الأولى التى رأيت فيها ذلك الشاب.. وليس باستطاعتى تحليل أو تعليل تلك المشاعر فهى غامضة كل الغموض، وبخاصة لأنها كانت متلاحقة متشابكة فى عنف وسرعة ودون تفكير أو سابق تدبير .. وأقرب تشبيهه يعن لى الآن أننى تصرفت كشخص هم بإنقاذ طفل يوشك على الهلاك بإلقاء نفسه تحت عجلات سيارة أو قطار، وكيف تعلق الدافع الذى يحذو بشخص ما لا يعرف من شؤون السباحة شيئاً، ورغم ذلك يلقي بنفسه فى اليم محاولاً إنقاذ إنسان يشرف على الغرق .. لا بد وأن هناك قوة غير مفهومة أو إرادة غامضة تطغى على تفكير الشخص فيقدم نون وعى على امر ترجح فيه كفة هلاكه ..

«هكذا تماماً كنت أنا .. فقد اندفعت بلا وعى أو تبصر أو روية ، فرحت أتعقب ذلك اليأس البائس من حجرة اللعب الى حجرة الثياب الى الباب الخارجى ثم الى فناء «الكازينو» .. وأنا على يقين أنه ما كان فى وسع أحد غيرى - رأى ما رأيته - أن يقف مكتوف اليدين ، أو يستطيع مقاومة الفضول ازاء أمر مثير يبعث القلق فى النفس .. وهل هناك منظر يدعو الى الاشفاق والأسى أشد تأثيراً من منظر فتى لا يزال فى ميعة الشباب ، وقد أخذ يجر قدميه فى تهالك ويأس - وقد تحطمت قواه - الى مصير مجهول..؟!»

«ورأيته وقد تهالك فى إعياء بالغ على أحد المقاعد فى فناء «الكازينو» وكأنه جثة آدمية لا حراك فيها .. فانتابتنى موجة من الارتجاف ورعشة شملت كل أوصالى ، وأيقنت أن الشاب قد استنفد كل طاقة على المقاومة وأن اليأس قد استبد به الى أقصى مداه .. فهذه حال من فقد كل حساسية، ولم تعد تنبض فيه عضلة حية ، فقد مال رأسه الى الخلف متكئاً به على ظهر المقعد ، وتدلّت ذراعااه مسترخيتان شأن من فارقتة الحياة، ولو أن أحداً رآه فى وضعه هذا لما شك فى أنه قد قضى ..

«وخيل إلى ذلك أنا أيضا، وليس باستطاعتي تفسير قيام هذه الصورة بذهنى .. بيد أنه هكذا تراءى لى ، وكأن ما أراه حقيقة واقعة ملموسة مروعة.. فخيل إلى أننى أمام جثة لشاب فارقتة الروح فى ميعة الصبا قبل الأوان ، ولم أشك فى أنه يحمل مسدسا، وأن أمره لن يلبث أن يكتشف هكذا هامدا غارقا فى بركة من الدماء، وكأنه حجر قذف به فى هاوية فاستقر فى قاعها .. لقد كان كتمثال ينطق باليأس القاتل والإعياء المهلك ، لم أر له نظيرا من قبل..

«تصور موقفى إزاء ذلك .. لقد وجدت نفسى فى مأزق لا أحسد عليه، فى ورطة عز على التصرف فيها .. فقد كنت على قيد خطوات من رجل تهالك وتداعى وفقد كل طاقة وحركة، وحزب بى الأمر ، واشتدت حيرتى فلم أستطع التفكير فيما يجب أن أفعل ، وتنازعتنى الرغبات والهواجس ، فأنا أشعر بالرغبة فى انقاذه ومد يد الغوث له .. وفى الوقت نفسه ، أستشعر الجزع من الإقدام على مخاطبة رجل غريب عنى - تحت تأثير ما درجت عليه فى حياتى ومن تربيتى - وكان السائرون القليلون يحثون السير على ضوء المصابيح الشاحبة، وتحت السماء التى تلبدت بالغيوم فى ذلك الليل البهيم الذى كاد أن ينتصف ، وبذا وجدت نفسى منفردة فى ذلك المكان، مع ذلك الشاب الموشك على الانتحار والهلاك .

«وشددت من عزيمتى أكثر من مرة ، وهممت بأن أدنون الشاب .. بيد أننى كدت أعدل وأراجع بدافع لعله الخجل أو الحياء ، أو لعله بدافع الاحساس الغامض الذى يوحى الى النفس بأن المشرفين على الهلاك يجتذبون معهم من يخف لإغاثتهم ، أو لعله بدافع الغريزة التى تهيب بالنفس أن تتأى عن مواطن الهلاك ناجية بنفسها .. وبينما أنا فى غمرة هذه اللوامة، أدركت مدى الحرج الذى وضعت نفسى فيه ورميت نفسى بالحماسة.. وتبلد تفكيرى ، فلم أستطع أن أنطق بكلمة ، ولم يسعفنى ذهنى

فيرشدنى إلى أن أفعل شيئاً ، حتى إلى أن أترك الشاب لشأنه .. ولا أكون مبالغة إذا قلت إننى ظللت على تلك الحال ساعة خلقتها شهراً ، بينما كانت أمواج البحر التى يحجبها الظلام الدامس عن عيني تتدافع متعاقبة مع الزمن السائر الذى لا يتوقف .. وأنا فى حيرة وأسى واضطراب أمام مشهد لمأساة تمثل نهاية مفاجئة لواحد من بنى الإنسان .. !

«شل تفكيرى وشلت حركتى ، فلم تسعفنى القريحة بكلمة ، ولم يسعفنى العقل بعمل أو إجراء أقدم عليه أو أقوم به ، وكان من الممكن جداً أن أظل على تلك الحال حتى ينبلج الصبح ، أو أن أعود القهقرى من حيث أتيت بدافع من حب الذات أو الأنانية - أو كما سبق أن ذكرت - بدافع الغريزة التى تهيب بالنفس أن تنأى عن مواطن الهلاك وتلوذ بالنجاة ، واعتقد أن رأى كان قد استقر على أن أدع هذه الكومة التعسة لشأنها ومصيرها ، لولا أن قوى جارفة قضت على ترددى وبلبله أفكارى .. فقد أخذ المطر ينهمر حين جمعت الريح السحب المشبعة ببخار الماء الذى أثقلها ، فأخذت تتساقط غيثاً ، ثم صارت سيلاً مدراراً ، وكأنما يطاردها مطارد .. فلجأت تلقائياً إلى إحدى المظلات أحتمى بها من المطر ، ورغم ذلك فقد انتشرت حباته على ثيابى قبللتها ، بل إننى شعرت بالرداذ على وجهى ويدي .. وقد كان المنظر مروعا بالغ الرهبة يلفنى الهلع كلما تذكرته ، وظل المسكين رغم كل هذا جامدا لا يتحرك ، ولا تبدر منه بادرة حياة ، وظل المطر ينهمر فى غزارة فيجربى ماؤه جارفاً ، بينما كانت طرقعة عجلات العربات تتراعى إلى سمعى من المدينة .. كما كان الناس يحثون السير ويسرعون الخطى ، وقد التفوا فى معافطهم ، وعمد كل مخلوق الى الانكماش ، وأخذ ينشد ملاذا يقيه وقد انتابه فزع شديد .. فنشرت الطبيعة الثائرة سلطانها على مخلوقات الله فنبث فيهم الخوف ودفعتهم الى التماس الاحتماء ، عدا ذلك التعس المسكين الذى ظل جامدا فى مكانه نون حراك ولا يشعر بشيء .. !

«لعلك تذكر ما سبق أن قلت لك عن القدرة البالغة التى تميز بها الشباب فى التعبير عن اختلاجاته وأحاسيسه بما يعترى وجهه ويديه من حركات وتقلصات .. بيد أنه لم تكن هناك صورة حقيقية لليأس وفقدان الشعور بالحياة من ذلك الجمود المطبق، بالرغم من انهمار المطر .. وذلك الإعياء الشديد الذى جعله لا يقوى على التحرك التماسا لمأوى يحتوى به .. لقد نسي نفسه وفقد كل مشاعره .. لقد كان مثالا ناطقا لليأس والقنوط والشقاء، إذ ترك نفسه فريسة لهلاك محقق ..

«ووجدت نفسى أمام أمر واقع ، وأنه يتحتم علىّ ألا أقف مكتوفة اليدين.. بل لابد لى من إجراء فعال أستجمع شجاعته فأقدم عليه، وسرعان ما اقتربت منه غير مبالية بذلك السيل المنهمر من المطر ، وأخذت أجدب ذلك الجسد الجامد الذى بلله الماء وصرخت فيه وأنا أحرك ذراعيه المتراخيتين : «انهض !» فطالعتى وجه مكفهر ، وتطلع إلىّ بنظرات زائغة ، وأحسست أن ذلك الجسد المتهاك لاتزال فيه بقية من حياة ، بيد أن نظراته لم توح بأنه أدرك بدائى .. فأعدت الكرة وأنا أجدبه من كتفه ، وصرخت فيه بصورة تنم عن غضب وأمر : «قم ..» .. فتحامل على نفسه ، ونهض فى ترنح بصورة آلية ، ثم قال : «ماذا تريدين منى ؟...» .

«وبعث سؤال الحيرة فى نفسى ، فلم أحر جوابا .. لأننى لم أفكر - وقد أقدمت على مد يد العون له - فى المكان الذى أذهب به إليه ، فقد كان كل اهتمامى أن أحميه من المطر والصقيع، وأن أثبت فيه روحا من الحيوية والهمة لأنزع منه روح التخاذل الذى أسلمه الى يأس مهلك ، وظللت متشبثة بذراعه ، ثم أخذت أسحب ذلك الجسد المضنى حتى بلغت دكانا صغيرا لبيع الأزهار، تعلوه حافة تدرأ المطر المنساب الذى حوله الريح إلى سيل جارف، وكانت أمنيتى أن ألقى المسكين من ذلك السيل الجارف، وانصرف تفكيرى إلى العثور على مأوى له ..

«هكذا عفوا وجدت نفسى بجانبه فى ذلك المكان الضيق الذى لجأنا اليه التماسا للحماية من المطر أمام الدكان الذى كان بابه مغلقا ، وحافته ليست من الاتساع بالقدر الذى يقينا تماما .. فكان الماء يصيب وجهينا وملابسنا ، وضقت ذرعا بذلك المأزق الذى وضعت نفسى فيه ، فما كان باستطاعتى أن أطيل البقاء على هذا الوضع إلى جوار رجل غريب عنى .. وفى الوقت نفسه كان من المتعذر أن أتركه للقدر بعد أن آليت على نفسى أن أنقذه ، فقد رأيت أن الواجب يقتضىنى ذلك .. وفكرت فى الأمر من جميع الوجوه ، فهدأنى تفكيرى الى ما رأيت أنه أفضل ما يمكن عمله وهو أن أستقل عربة توصلنا الى محل اقامته ، ثم أعود أدراجى .. وقدرت أنه لابد سيفكر فى أمر نفسه ومصيره فى الغد..

«ونظرت إلى الكائن البشرى المائل إلى جانبى والذى كان يرسل نظرات زائغة فى ذلك الليل المدهم .. ثم سألته عن محل اقامته ، وأدهشنى جوابه الذى نطق به ، فقد كان آخر ما كنت أتوقع أن أسمع .. إذ أنبأنى ألا مأوى له ، وأنه حضر فى تلك الليلة من سنيس» وأنه لم يكن يتوقع أن يحظى برفقة أحد، ولم أفهم مقصده فى مبدأ الأمر ، ولكننى أدركت فيما بعد أنه ظن أنى احدى الفراشات الرخيصة من أولئك الغوانى اللائى يجئن إلى «الكازينو» طمعا فى أن يصبن بعض المال السائل على الموائد من بعض الرواد الذين يسعدهم الحظ ويتسم لهم، والذين أدار المال والخمر عقولهم فيسهل إغراؤهم.. ويكونون بمثابة الصيد لأولئك الغوانى اللائى يعج بهن ذلك المكان الذى يتحول فيه المال إلى شىء رخيص سهل البذل . وعجبت كيف ذهبت الظنون بذلك التعس الذى كان منذ لحظة مشرفا على الهلاك الى هذا الحد الذى لم يخطر لى ببال ، وقد التمسست له العذر ، فأية فكرة كان يمكن أن تراوده غير تلك الفكرة، بعدما رأى من تطفلى وبعد أن حملته على النهوض

من مقعده نون معرفة أو حرج ؟ ..! إننى لا أنكر أن مسلكى هذا لا تقدم عليه سيدة تحترم نفسها .. بيد أننى لم أضع ذلك موضع الاعتبار وقتذاك، وقد أدركت بعد فوات الأوان مدى احتقاره البالغ لى ، ولو أننى فهمت مغزى كلامه حين نطق به ، ما تصرفت ذلك التصرف الذى أوحى إليه بأنه صادق فى ظنونه ..!

الفصل السابع

خلوة اضطرارية!

«ظن التعس بى السوء حين أشرت عليه أن يأوى لتوه إلى حجرة فى أحد الفنادق ، فأفحمنى برد قاس جعلنى أفطن إلى ظنه الخبيث.. إذ أنبأنى فى سخرية لازعة دون أن ينظر إلى أنه ليست به حاجة إلى غرفة، وليست به رغبة فى شىء ، وأنه أحرى بى ألا أسعى وراء ذلك، وأننى أخطأت فى اختياره بالذات لأنه لا يملك نقودا .. قال ذلك بأسلوب ناب وفى سخرية مثيرة !

«وبدا فى وقفته المتراخية واستناده على الجدار منفرا يبعث الاشمئزاز فى النفس ، فقد كان واهنا ومبتلا .. وألمنى جدا ذلك التصرف من جانبه نحوى حتى جعلنى أحس بمرارة الاهانة التى رمانى بها فى قحة بالغة وعدم تبصر ، بيد أن ذلك لم يغير من شعورى نحوه ، الذى يتلخص فى أن أمامى شابا فى مقتبل العمر دفعه اليأس إلى الإقدام على الانتحار .. وأن الواجب الانسانى يقتضىنى أن أنقذه، فاقتربت منه وهمست فى أذنه ألا يفكر فى أمر المال، وطلبت اليه أن يصحبنى ، لأن البقاء هكذا لا يجدى ، وأننى سأتولى البحث عن مأوى .. وما أردت بذلك سوى أن أتم المهمة التى أخذتها على عاتقى لكى أجنب المسكين سوء المصير ..!

«وتلملم الشاب وهز رأسه بحركة تنم عن اقتناع ، إذ إن المطر ينهمر فى سيل جارف وينساب ماؤه بين أقدامنا بحيث يتعذر علينا أن نتقدم خطوة واحدة .. ولحته يختلس النظرات إلى وجهى ، وكانت هذه أول مرة يفعل فيها ذلك .. وبدا كأنه أخذ يسترجع قواه ويفيق مما أُلِمَ به ويعى ما يجرى ، إذ مالبثت أن رأيته يوافق على ما ارتأيته ولكن فى عدم مبالاة.. إذ أردف موافقته بقوله إن كل شىء عنده سواء فلماذا يعترض !!؟

«واقترب منى عندما بسطت مظلتي.. وادهشنى وبعث فى نفسى التقزز أن أراه يضع ذراعه تحت ذراعى كأن الكلفة قد زالت بيننا.. وتوجست من ذلك، وشعرت بببيب الخوف ينفذ إلى قلبى، بيد أننى أثرت ألا أصدده، أو

أرده، أو أشعره بعدم لياقة ذلك الفعل من جانبه، لأننى خفت أن يورده
اعتراضى موارد الهلاك.. فأكون قد قضيت على ما آليت نفسى عليه قضاء
مبرما.

«ولتمسنا طريقنا فى حذر بخطوات متئدة نحو «الكازينو» وفى تلك
اللحظة اتضح لى جليا أننى أصبحت فى مأزق عواقبه وخيمة، فأعملت
التفكير الذى هدانى إلى أن من الأفضل أن أذهب به إلى أحد الفنادق.. ثم
أمنحه بعض المال ليوافقه به أجر الفندق عن تلك الليلة، وليستطيع أن يسافر
إلى «نيس» فى الصباح.. لقد كان هذا كل ما جال بخاطرى، ولا شئ غير
هذا.. وكانت العربات تتتابع فى سرعة أمام «الكازينو»، فاستوقفت عربة
ركبناها.. وكان من الطبيعى أن يسأل الحوذى عن وجهتنا، وأخذتنى الحيرة
أى فندق أذكره للحوذى.. فقد كانت الأمور تسير ارتجالا وفى سرعة دون
تفكير، وتدبر، وجالت بخاطرى فكرة، هى أن ذلك التعس الجالس إلى جانبى
فى إعياء وتهالك والذى لا يكاد يميز شيئا، لا يهمله أن ينزل فى فندق من
فنادق الدرجة الأولى أو الفنادق الممتازة.. كما لم أنتبه - لسذاجتى - أن
من الجائز جدا أن يسىء بى الظن أحد حين يرانى فى هذا الوضع مع
شباب، فأومأت إلى الحوذى أن يذهب بنا إلى فندق متواضع..!

«وما إن سمع الحوذى ذلك، حتى ألهب ظهر جواده فى عنف وقسوة كى
يستحثه السير فى أقصى سرعة.. وقد سررنى ذلك كى لا أكون محط أنظار
الفضوليين، كان كل ذلك يجرى، والشباب الغريب قابع إلى جوارى وقد لفه
صمت مطبق، بينما عجلات العربة تحدث صوتا يصم الأسماع، وماء المطر
يرتطم بنوافذ العربة بشدة.. وتراعت لى العربة وكأنها تابوت يضم جثة فى
طريقها إلى القبر، وبذلت جهدا كبيرا فى أن أطرق حديثا فى أى موضوع
أخفف به من وطأة هذا الموقف فى ذلك الليل البهيم دون جدوى.

«ومرت دقائق توقفت بعدها العربية، فترجلت وأعطيت الحوذى أجره فى سخاء، وهبط الشاب فى أثرى وأغلق باب العربية وهو بين اليقظة والنعاس، ورأيت أننا أمام فندق لم تسبق لى معرفته، تعلو بابه مظلة من الزجاج وقتنا شر المطر المسترسل فى فضاغة.

«ولم يقو الشاب على التماسك فاستند إلى الحائط، والماء يقطر من ثيابه المبللة ومن قبعته، وكأنما ينساب من صنبور مفتوح، وكأن الفتى قد أشرف على الغرق ثم أنقذ فلم يعد إلى رشده.. وتجمع الماء فى المكان الذى وقف فيه، بيد أن الفتى لم يحاول أن يسترد وعيه أو يطرد عنه ذلك التهالك أو ينفض الماء عن وجهه، بل ظل جامدا كالتمثال.. فأتار فى نفسى الشعور بالإشفاق عليه، فقد كان محطما إلى درجة تدعو إلى الرثاء له.. فكان من المحتم أن أقدم على عمل ينقذ الموقف، فأخرجت بعض النقود من حافظتى وقلت للشاب:

- معذرة إذا رجوتك أن تأخذ هذه المائة فرنك لتسد منها أجر الفندق، ولكى تستطيع أن تسافر فى الغد إلى «نيس».

«فرشقتى بنظرات زائغة ممزوجة بالدهشة، بيد أننى استطردت أقول له وقد بدا عليه التردد:

- أرجو ألا يكون فى ذلك أى حرج لك ، فقد رأيت أنك خسرت جميع نقودك إذ كنت أراقبك فى قاعة اللعب، وخفت أن يملكك اليأس فتقدم على أمر فيه حماقة.. وأرجو ألا يضيرك أن تتقبل هذه المعونة الضئيلة وأتوسل إليك ألا ترفضها..

«وادهشنى أن أراه قد رد يدي فى عنف لم أتوقعه منه، وقال لى بلهجة يمتزج فيها اليأس بعدم المبالاة:

- يبدو أنك سيدة نبيلة الخلق عريقة المنبت، احفظى نقودك فلم يعد هناك متسع لأمل، ولا يهمنى أن أنام الليلة أو لا أنام.. وسأضع حدا لذلك غدا.

«بيد اننى اعترضت على رده اليائس وعلى رفضه قبول النقود، وألححت عليه أن يقبلها، وأوضحته له أن الغد كفيل بأن يغير رأيه ونظرته إلى الأمور.. ورجوته أن يأوى إلى الفندق لكى ينال قسطا من النوم والراحة، ففى الليل عزاء للحزانى والمتعبين، وأنه عندما ينبج فجر النهار ينبثق معه نور الأمل..»

«وأعدت الكرة محاولة أن أضع النقود فى يده، فدفعتنى بعنف أقل فى حديثه عن المرة الأولى، وهو يقول فى صوت كأنه حشرجة:

- لا فائدة ترجى، ولا مطمع فى أمل.. من الأفضل أن أنفذ ما حرمت عليه الرأى فى مكان آخر حتى لا أتسبب فى إزعاج صاحب الفندق بتلطيح فئدقه بالدم.. ليس باستطاعة مائة فرنك أو حتى ألف فرنك أن تنقذنى.. بل على العكس من ذلك، ستقودنى إلى «الكازينو» حيث أفقدها كما فقدت غيرها، فلماذا أرتد إلى تلك الهاوية بعد أن تجرعت علقهما حتى الثمالة؟!

«من العسير جدا أن تستطيع التعبير عما أحدثته تلك الحشرجة الآسية من أثر فى أعماقى.. أرجو أن تقدر الطرف.. أمامك شاب فيه حيوية وذكاء، عزم فى إصرار على أن يضع حدا لحياته وآلامه، فإذا لم تطرق معه كل الحيل وإذا لم تستعمل معه المنطق المقنع، فإن هذه الزهرة المتفتحة لن تلبث أن تذبل.. وهذا الشباب المقبل سينوى وينتهى إلى عدم، قبل أن ينقضى الليل، واستبد بى الأمر، وشملتنى رغبة ملحة فى أن أتغلب على إصراره الأحق، فجذبتة من ذراعه وهتفت به:

- أما لهذا التهريف من نهاية؟! بالله كف عما ترده.. واتبع العقل والتمس الراحة بالفندق، وسأحضر إليك مع الصباح لكى أودعك عند سفرك، فليس من صالحك أن تبقى فى هذا المكان.. بل الأفضل أن تعود إلى موطنك فى الغد، ولن يرتاح بالى حتى أراك وقد ركبت القطار، فمن الحماسة أن تقدر شبابك بحفنة من المال خسرتها فتقضى على ذلك الشباب من

أجلها.. إن هذا ضعف لا يجمل بالرجال.. إنها نزوة من نزوات الحق والقنوط.. وسوف تقتنع فى الغد بحكمة نصائحي.

«ورأيتـه يجب فى مرارة قاسية وقد أثاره ترتيبى لأمره على هذا النحو وكأنه لا يعترف بالغد فى قاموس حياته:

- تتكلمين عن الغد.. ولا يدري أحد ماذا ساكون فى الغد! حتى أنا نفسى لا أعلم، وكـم أتلهف إلى معرفة ذلك.. أخرى بك أن تعودى من حيث أتيت أيتها الحمامة الوديعـة التى هبطت على حياتى بعد فوات الأوان.. ولا تكبـدى نفسك متاعب لا جدوى تعود عليك منها، ولا تبـعثرى مالك سدى..!

«بيد أننى تشبـثت بما عقدت عليه العزم، فقد استبد بى الحق لعناده، فـجذبت يده ودفعـت بالورقة المالية فيها رغم أنفه قائلة:

- لا ترفض.. ولا تعترض.. وادخل فوراً..

«وتقدمت نحو الباب فى عزم وحزم وضـغطت زر الجرس، ثم التفت إليه بعد أن وضعته أمام الأمر الواقع وقلت له:

- لقد انتهى الأمر فليس هناك مجال للتردد، فلن يلبث الباب أن يفتح ويطل منه الحارس، فعليك أن تتبـعه إلى الحجرة التى يرشدك إليها فتنام.. وأقول لك صـادقة إننى ساكون فى انتظارك أمام الفندق فى الساعة العاشرة صباحاً لأذهب بك إلى المحطة.. ولا تفكر فيما يكون بعد ذلك، لأننى سأنولى تدبير كل شىء لكى تعود إلى موطنك، فأرجو ألا تستسلم للقلق أو التفكير فى شىء، بل عليك أن تركز إلى الراحة والهدوء والنوم.

«وفتح باب الفندق فعلاً، وأطل منه الحارس.. وإذا بالفتى يصرخ فى بلهجة حازمة وكأنه يأمرنى:

- ادخلى معى..!

«وشعرت بأصابعه المتصلبة تطبق على معصمى فى عنف فارتعت إلى درجة فقدت فيها السيطرة على الإدراك، ففقدت القدرة على التملص

والإفلات من يده فقد تلاشت إرادتى. ولعله لا يخفى عليك حرج مركزى فى تلك اللحظة، إذ إننى شعرت بالخجل من الحارس الذى طال انتظاره، وخشيت أن أشتبك فى أخذ ورد ونضال مع الفتى أمامه.. وهكذا نون شعور وجدت نفسى فى بهو الفندق، وعالجت الكلام ولكن صوتى غاص فى حلقى، وكانت يد الفتى لا تزال قابضة على ذراعى فى قوة شديدة، كأنه يخشى أن أفلت منه وأعود أدراجى. ثم أحسست وقد تلاشى وعيى أنه يقودنى - نون إدراك أو قدرة على التفكير فيما يجب أن أتصرف - إلى السلم، وصعدناه.. ثم طرق سمعى صوت مفتاح يتحرك..

«وهكذا تطور الأمر فى لمح البصر، وأدركت أننى فى خلوة مع ذلك الشاب الذى لا تربطنى به صلة ما.. لا أعرفه ولا أعرف اسمه.. وقد تم كل ذلك بشكل لا شعورى.. أى نون رغبة منى أو إرادة، وأنا أقول كل ذلك فى صدق وصراحة حتى يكون حكمك فيما بعد حكيما.. لأننى فى حيرة من أمر نفسى لا يقر لى قرار، وقد أوردت لك كيف سارت الأحداث تباعا وكاننى كنت مسوقة إليها نون وعى أو شعور..!

الفصل الثامن

ليلة ليلاء

وتوقفت السيدة عن الحديث.. وفجأة هبت واقفة، وقد أحست بصوتها يحتبس فلا يطاوعها، وسارت إلى النافذة وسرحت النظر خلال زجاجها، وظلت على تلك الحال بضع دقائق لا تنطق بكلمة، ولعلها لم تكن تنظر إلى شيء معين أو تتطلع إلى شيء إطلاقاً، وإنما أرادت أن تستريح. فقد رأيتها تدنى جبهتها من الزجاج البارد حتى ألصقتها به، وحز في نفسها أن أتبعها في حركاتها وقد راحت نهياً لانفعالات مسمومة.. فظللت في مكانى ثابتاً صامتاً كالحجر، لا أحاول أن أسألها الاسترسال في سرد قصتها، أو حتى أحدث صوتاً ولو طفيفاً قد يزعجها.. وبقيت هكذا حتى استدارت وعادت في خطوات بطيئة متتدة، فجلست أمامى وراحت تقول:

«إلى هنا أعتقد أنني سردت أبشع ما في قصتي من أحداث.. وأرجو أن تنفى عن ذهنك - وقد أقسمت لك وعاهدتك على الصدق والصراحة - إننى لم يدر بخلدى إطلاقاً، حتى تلك اللحظة، أى تفكير فى احتمال حدوث اتصال جنسى بين ذلك الشاب وبينى.. ولكننى كنت مسلوبة الشعور والإرادة، حتى جنحت فجأة عن حياة الشرف والاستقامة، وترديت فى هذا الموقف دون وعى أو إدراك وكأنه شرك وقعت فيه رغماً عني.. وأستطيع أنؤكد لك وقد التزمت الصدق إننى لم أكن مدفوعة برغبة ما، اللهم إلا إسداء العون لذلك التعس، فلم أستشعر رغبة شخصية لنفسى، ولذلك فقد انزلت إلى هذا الوضع المخزى دون أن أتوقع ولون رغبة.

«وأستميحك العذر فى أن تعفينى من سرد ما حدث فى تلك الغرفة.. إننى لن أنسى كل بادرة وكل دقيقة من دقائق تلك الليلة الليلية.. لقد كنت فى نضال وصراع مع شخص أهدف إلى إنقاذ حياته، وكان هذا كل همى، فقد كان الأمر مسألة حياة أو موت لهذا المنكود.. كما كنت أحس فى أعماقى أنه إذا رأى بصيصاً من أمل، فإنه سوف يتشبث به فى استماته، فكنت أنا ذلك الخيط من الأمل لذلك المسكين الذى يسرع إلى الموت ويسرع إليه الموت،

فراح يتشبث بى فى إصرار، ومن ناحيتى أنا فقد بذلت قصارى جهدى لكى أصل به إلى شاطئ السلامة.

«وفى اعتقادى أن حدثا كهذا لا يصادف الإنسان إلا مرة واحدة فى حياته.. وهو لا يصادف الكثير من الناس، فهو أمر نادر الوقوع جدا.. وما دار بخلدى يوما من الأيام أن المشرف على الهلاك تمنحه الطبيعة فى تلك الفترة الانفعالية من حياته قوة خارقة واستماتة جامحة كى يتشبث بالحياة فى اللحظات الأخيرة، وقد قضيت أعواما طوالاً بعيدة عن دنيا الشرور؛ لذا فقد عز على نفسى أن أرى الطبيعة تتجلى بشكل رائع حين تحشد فى وقت واحد كل ما فيها من حرارة أو برودة ومن نعيم أو تعاسة ومن حياة أو عدم..»

«لقد زحرت تلك الليلة بشتى الأحداث والأحاسيس.. بنضال، وحديث، وشهوة، ورتاء، وعطف، وغضب، وحقد، وعبرات، وأسى، ونشوة، وتوسلات.. حتى خيل إلى أنها دهر من عمرى، فقد كان لها أثر عميق لكنينا.. هو وأنا، فإنها حين تلاشى آخر خيط من خيوطها، صار كل منا شخصا مختلفا عما كان، بروح وأحاسيس لا عهد له بها.

«ومن العسير جدا، والكثير على نفسى، أن أتحدث عن دقائق أحداث تلك الليلة، وما بى رغبة كما لا أستطيع أن أميط اللثام عما جرى تفصيلا.. بيد أننى أرى أنه لزاما على أن أنوه عن تلك اللحظة العميقة الأثر فى حياتى التى صحوت فيها فى الصباح التالى، بعد نوم عميق، فى ظلام لا عهد له بى من قبل.. استيقظت وكأننى كنت تحت تأثير مخدر، ومضت فترة طويلة حتى استطعت أن أفتح عيني، فيطالعهما سقف حجرة لا عهد لى به فى مكان مقبض غريب عنى.. لا أدري لماذا حط بى القدر فيه، وماذا جنيت فى دنياى حتى احتوانى بين جدرانه.. وأردت أن أشعر نفسى بأننى فى حلم من أحلام النوم العميق الذى كثيرا ما تتخلله الرؤى المزعجة.. ولكن خيوط نور الصباح

التي كانت تنفذ خلال نوافذ الغرفة، وحركة الحياة فى الطريق، كانت تنتهى إلى سمعى من العربات التى تسير وأجراس الترام وجلبة المارة.. كل ذلك جعلنى أدرك أننى لست فى حلم بل فى يقظة كل اليقظة.. فرحت أستجمع شتات أفكارى لأستعيد فى ذهنى ما حدث.. وحانت منى لفظة إلى جانبى، ولا أستطيع أن أصف لك مبلغ ما اعترانى من زعر.. فقد كان هناك رجل غريب عنى قد تمدد إلى جوارى فى الفراش.. فى وضع يا له من وضع شائن، فقد كان مجردا عن معظم ثيابه..!

«يعجز لسانى عن وصف ما اعترانى من هلع فى شدة وعنف حتى إننى لم أتمالك نفسى، فتهاكت فى الفراش ثانية، ثم فقدت القدرة على الحركة وكأن أوصالى قد أصابها شلل.. بيد أننى لم أكن فى حالة إغماء حقيقى فلم أفقد رشدى، ولكن - وبالألوعة! - تجلى الواقع أمامى فى وضوح وسرعة، وبون أن أدرك مغبة ما حدث - بون وعى منى أو رغبة أو إرادة - فتمنيت الموت لشعورى بجسامة الإثم ولاشمئزاضى وخجلى، حين وجدت نفسى فى هذا الوضع الشائن مع رجل غريب فى فراش لا عهد لى به وفى فندق حقير ومكان يثير الشبهات.. ولم يغب عن فكرى حتى الآن أن أنفاسى فى تلك اللحظة لهتت، ثم احتبست، وأن قلبى قد اشتد خفقانه ثم كفت دقاته.. وكأنما فقدت الإحساس بالحياة، ووصلت إلى نهايتها، وكل ما هنالك أن وعى أدرك كل ما حدث بون أن يفقه له معنى..

«ولا أستطيع أن أقدر كم من الوقت مضى على وأنا فى تلك الحال كائننى جثة مسجاة ولم أستطع تصور الواقع، فأغمضت عينى وابتلعت إلى الله وتوسلت من أعماقى ألا يكون هذا حقيقة واقعة.. ولكن مشاعرى المرهفة أكدت اليقين، فلم يكن هناك منفذ لشك، فقد كانت حواسى متنبهة حتى إننى كنت أسمع أصواتا فى الحجرة المجاورة وخطوات فى الردهة، وكلها تؤكد لى تنبه وعى ويقظة حواسى.

«إن الوقت الذى مضى على هذا الوضع الشائن لا يمكن أن يقاس بنظيره من دقائق الحياة الرتيبة العادية.. وفجأة استولى على فزع طاغ فى البشاعة، فقد خفت أن يفيق ذلك الغريب من نومه، والذى أجهل اسمه حتى تلك اللحظة، ويكلمنى.. فأعملت التفكير فى سرعة، فهدانى إلى أن ليس أمامى سوى منفذ واحد دون غيره، هو أن أسرع بارتداء ثيابى ثم أخرج وأنجو بنفسى قبل أن يستيقظ، حتى لا تقع عيناه علىّ أو يتحدث إلىّ.. فإنه يتحتم علىّ أن أنصرف لكى أعود إلى حياتى الأولى الطبيعية.. أعود إلى الفندق الذى أقيم فيه فأرتب حالى ثم أغادر على الفور هذا المكان المشؤم، إلى غير رجعة، حتى لا ألتقى بهذا المخلوق شريكى فى الخطيئة الذى يتمثل فيه إثمى.

وطغت علىّ هذه الفكرة التى رأيتها الأمل الوحيد فى النجاة، حتى اكتسحت الجمود الشامل الذى اعترانى.. فتسللت من الفراش فى خفة وحذر شديدتين، وارتديت ملابسى فى حرص بالغ دون أن أحدث حركة أو صوتاً، وأنا فى جزع خشية أن يستيقظ بين لحظة وأخرى.. وبعد بضع دقائق كنت على أتم استعداد لمغادرة الغرفة وتحقيق فكرتى وأمنيتى.. ولم يكن أمامى سوى القبة التى كانت فى طرف الفراش، فسرت على أطراف أصابعى لكى أتى بها.. ودفعنى شعور غامض إلى أن انظر إلى وجه ذلك الرجل، وكأنه صاعقة أصابت حياتى.. وكان قصدى أن ألقى عليه نظرة عابرة واحدة.. ولكن لدهشتى تبين أن ذلك الغريب غريب فى شكله عن الشخص الذى رأيته بالأمس، فقد تغيرت معالمه وتلاشت من صفحة وجهه تلك الأسارير المكفهرة المتوترة التى كان يطغى عليها الانفعال.. وإذا أمامى وجه دقيق التقاطيع، وكأنه وجه فتى يافع عامر بأسارير الصبا وبالبراءة والطهارة والسذاجة.. ولانت الشفتان المتقلصتان بالأمس، فافتر ثغره بابتسامة طفلية حاملة، وتناثرت على جبينه خصلات شعره الذهبى، الأملس،

وكانت أنفاسه تتردد فى اطمئنان ورتابة وهدوء، وعادت الراحة إلى بدنه، وكأنه ليس الشاب الذى كان مقدما على الهلاك بالأمس.

«ولعلك لم تنس ما سبق أن ذكرته لك فى سياق حديثى أنه لم يصادفنى فى حياتى أن رأيت أمارات نهم وجشع عارمين وانفعال بالغ مثلما رأيتها تتجلى فى عنف وصرامة على وجه ذلك الرجل أثناء المقامرة.. وقد تلاشى كل ذلك، فطالعتنى فى وجهه وداعة وجوه الأطفال فى رقة وطهر وسذاجة، حتى نومه الهادئ عبر عن صفاء واستسلام.. وكأنه شخص أقبلت عليه السعادة فأخذ ينهل منها، فلم يعد يرزح تحت وطأة هم أو شقاء، بل كأنه لم يذق لهما طعما من قبل..!

«وما إن رأيت معالم النعيم تتجلى على ذلك الوجه النائم حتى زایلنى الخوف، ولم أستشعر القلق الذى كان يساورنى منذ لحظة.. كما لم أحس بالخل، بل غمرنى شعور بالسعادة والنشوة، فبدأ يتضح أمامى ما كان مستغلقا على من أمر ذلك الحدث الجلل، وتملكنى شعور بالفخر والزهو والاعتباط حين قدرت أنه لولا أن المقادير قد أرسلتنى ورسمت لى دورا فى حياة ذلك الشاب الوسيم النائم فى براءة الأطفال.. لكن الآن كومة محطمة من اللحم وجثة غارقة فى دماءها، واستحالت وسامة وجهه إلى بشاعة، وجحظت عيناه وفقدتا بريقهما وتآلقهما.. لقد تدخلت فى الوقت المناسب، فحفظت عليه حياته وشبابه وأنقذته من موت محقق. وأخذت أفكر وأتأمل بشعور الأم، وعينها الحانية التى لا يعتورها زيف أو مراعاة، ذلك المخلوق الممتلئ بنضارة الشباب الذى حفظت عليه حياته، فخالجنى شعور بالمضاضة والألم أعجز عن وصفه.. وتحول هذا الشعور وأنا فى تلك الحجرة الدنسة فى ذلك الفندق الوضع الذى تهدر الفضيلة بين جدرانها وتستباح.. انقلب هذا الشعور فجأة، ولفنى إحساس بالوقار الذى يستشعره الإنسان وهو بين يدي ربه فى الكنيسة.. ولعلك لا تقرنى إذ أقول ذلك، أو لعل ما أقوله يبعث

السخرية فى نفسك.. ولكنى أحسست حقاً وكأن معجزة تمت على يدى،
فغمرنى إحساس بالقداسة والطهارة!

«وكان المقادير قد وقفت لى بالمرصاد، فلم يكفى أبشع أمر حدث لى فى حياتى.. فقد تلت ذلك لحظة بالغة فى بشاعتها ووقعها على نفسى، وهى ما كنت أتوَّجس من أن تحين. ولا أستطيع أن أذكر كيف قدر لهذه اللحظة أن تأتى، وهل بدرت منى حركة عفواً أو كلمة دون وعى تسببت فى ذلك، فقد رأيته يفتح عينيه على غير توقع، فتراجعت مذعورة جزعة.. بيد أنه راح يدور بعينه فى عجب ودهشة، كما حدث لى حين استيقظت، ولاح كأنه كان يعانى كابوساً مزعجاً، ثم أجال النظر فى كافة أرجاء الغرفة فى عناء وجهه كأنه يبحث عن شىء أو يحاول أن يتذكر أمراً.. إلى أن وقعت عيناه علىّ، فأخذ ينظر إلىّ فى استغراب ودهشة.. بيد أننى أعددت نفسى للموقف، فتمالكت نفسى واستعدت رباطة جأشى - قبل أن أترك له الفرصة لمخاطبتى أو استجماع شتات أفكاره - فالظرف يحتم علىّ ألا أدعه يتكلم أو يسأل أو يتبسط فى ملاطفة.. فمن الضرورى ألا يعاد ما حدث فى تلك الليلة، أو يذكر عنه تعليق أو إيضاح، أو أن يكون مادة لمناقشة أو حديث.. فبادرته بقولى:

- حان الوقت لأن أنصرف، ويتحتم علىّ أن أفعل ذلك.. وعليك أن تتخلف أنت لترتدى ثيابك، وعند الظهيرة سأكون فى انتظارك أمام «الكازينو» لكى أدبر ما بقى من أمرك.

«وخرجت فوراً من الغرفة دون أن أترك له فرصة ينطق فيها بلفظ أو عبارة، ولكى أبتعد عن تلك الغرفة فلا تطرفها عينى لحظة أخرى.. واندفعت فى سبرى لا ألوى على شىء ولا ألتفت يمناً أو يسرة، وغادرت ذلك الفندق الذى لا أعرفه كما لا أعرف الشاب الغربى عنى الذى قضيت معه ليلة فى فراش واحد بين جدران هذا الفندق!

الفصل التاسع

اعترافات

إلى هنا كان التأثير قد بلغ بالسيدة أقصى مداها، فتوقفت عن متابعة الكلام ريثما تسترد أنفاسها اللاهثة.. وبعد فترة زایلها كل أثر للألم أو انفعال، فاستأنفت حديثها، وقد شبهتها بسائر فى طريق وعر ينهك السير فيه قواه.. حتى إذا صادف بقعة منبسطة راح يستريح من وعاء السير كى يستأنف السير فى نشاط وهكذا استأنفت الحديث وقد زایلها معظم انفعالها..

«أسرعت الخطى إلى الفندق الذى أقيم فيه سائرة من شارع إلى شارع، وقد انجابت الغيوم عن السماء ولفحنى نسيم الصباح العليل.. فزایلتنى جميع مشاعر الأسى. ولعلك تذكر جيداً أننى قلت لك من قبل إننى زهدت مباهج الحياة وزخرفها منذ وفاة زوجى، وأنه أصبح فى مقدور ولى أن يعتمدا على نفسيهما، وأنهما ليسا بحاجة إلىّ، فلم يكن ثمة ما يعينى. وهكذا تحولت حياتى إلى شىء تافه لانه لم يعد لى هدف معين.. ولذلك وجدت نفسى، دون ترتيب أو تمهيد، مدفوعة إلى عمل ما.. فلما ألفت المقادير فى طريقى إنساناً، أنقذته من هلاك محقق، وبذلت فى ذلك قصارى جهدى، ولم يبق أمامى إلا خطوة واحدة أتمها فيكتمل عملى».

«ووصلت إلى الفندق الذى أقيم فيه، فهالنى أن أرى الحارس يحملق فى دهشة بالغة، إذ يرانى أحضر فى منتصف الساعة التاسعة صباحاً. بيد أن تصرفه هذا لم يثر الحرج فى نفسى، إذ كانت قد زایلتنى أحاسيس الخجل والأسى التى خالجتنى من قبل. وشعرت بغتة بحب الحياة والتعلق بها.. شعرت بالزهو، وبأننى كائن له كيان، وأننى عضو نافع فى المجتمع، فزاد هذا الشعور من حيويتى.. وإذ ضمنتى غرفتى، بادرت إلى خلع ثوب الحداد عنى عن غير قصد، فارتديت ثوباً زاهى الألوان، وغادرت الفندق وحثت السير إلى المحطة لأستعلم عن مواعيد القطارات، يحدونى عزم وحزم.. ثم قضيت بعض الحاجات، ولم يعد يشغل ذهنى سوى الاطمئنان إلى أن ذلك

الشباب الذى أَلقت به المقادير فى طريقى قد عدل عن نواياه وآثر الحياة وعاد سالمًا إلى بلده!..

وأعوزتنى الجرأة والشجاعة والإقدام كى أستطيع ملاقاته ثانية، فقد تمت أحداث الليلة السابقة تحت جنح الظلام.. ذلك الستار الذى يضم الكثير من المخازى والآثام.. وقد كنا وكأنا شخصان دفعا فى اليم فاصطدما على غير معرفة.. بل إننى ما فكرت فى أن هذا الغريب سيعرفنى وسيكون له معنى شأن. وعلى هذا الأساس، فاننى أعتبر أن ما حدث بالأمس كان مصادفة ليس إلا، فلم يكن هناك اتفاق أو قواعد أو حتى سابق معرفة.. إذن فهى نزوة خبيثة طارئة ونشوة عابرة استبدت بشخصين تأهين فى بيداء الحياة، بيد أنه فى اليوم التالى يتحتم على أن أتسم أمامه بالوقار، مادام لا مفر من ملاقاته، حيث سيرى وجهى فى وضح النهار الذى لا يشفق ولا يحجب شيئاً..

ومن عجب أن أجد الأمور تسير فى سلاسة وسهولة ما كنت أتوقعها، فإننى حين بلغت «الكازينو» فى الوقت الذى حددته له، رأيت شاباً ينهض عن مقعده ويسرع نحوى.. وإذ كان قد فوجئ برؤيتى وكأنه لم يكن ينتظر أو يتوقع ذلك، فقد ندت عنه حركات وأرسمت على أساريره مشاعر طفلية ساذجة مفعمة بالسعادة، فكاد يطير فرحاً، تألق عيناه فى غبطة وتقدير واحترام وعرفان بالجميل.. ثم لم يلبث أن أطرق إلى الأرض حين طالع فى عيني ذلك الاضطراب الذى اعترانى.. أطرق فى خضوع ووداعة.. أجل! إنه شعور الاعتراف بالجميل الذى أسديته له.. أقول فى حركات طفلية ساذجة: لاننا نادراً ما نجد ذلك فى الرجال لأنهم لا يستطيعون التعبير عن تقديرهم للجميل، فهم لا يتكلمون ويعتريهم الخجل ويرتبكون فتختفى مشاعرهم.. أما هذا الشاب، وقد أضفى عليه المولى موهبة التعبير عن كافة المشاعر

والانفعالات، فقد عبرت حركاته ومشاعره أدق وأوضح تعبير.. فكان تقديره لصنيعي، وعرفانه بجميلي، قوياً دافقاً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

وفى لمح خاطف، وبرشاقة بالغة الروعة، انحنى فى خشوع برأسه الدقيق الجميل، ثم مال على يدي وأخذ يقبل أنامله ويلمسها بشفتيه فى لطف ورقة، وظل على ذلك دقيقة ثم تراجع قليلاً واستفسر عن صحتي وهو يرمقني فى عطف وحنان. واتسمت كلماته بالأدب الجم، فزailني القلق وزال عني الخوف وشعرت بالطمأنينة تسري فى بدني.. وكأنما سرى شعوري بالبهجة إلى الكون الذي يحيط بي فأضفى عليه بهاء وإشراقاً، فإذا صفحة البحر قد انبسطت فى هدوء بعد ثورة وكأن البحر يشاركنا السلام والأمان.. وطالعتنا تلك البؤرة الشيطانية «الكازينو» شامخاً نحو السماء، ورأينا الكشك الذي لجأنا إليه لنحتمي بمظلمته من المطر المنهمر قد زخر بالزهور المتنوعة الألوان، وقد تناثرت نون تنسيق مع باقات من الورد والفروع الخضراء، تقوم بالبيع فيه فتاة كأنها إحدى الزهرات التي تبيعها..

وخطرت لى فكرة راقى لى، وهى أن أدعو الشاب إلى الغداء فى مطعم قريب صغير.. وهناك راح يروى لى قصته المفجعة الآسية، فأكدت ما خامرنى نحوه حين كان جالساً إلى مائدة اللعب ويداه ترتجفان فى انفعال طاغ..

لقد كان عظيم المنبت سليل إحدى الأسر الراسخة فى العراق والمركز المرموق فى «بولندا»، وكان وشيك العمل فى السلك السياسى لأنه اجتاز دراسته العالية بتفوق عظيم جامعة «فيينا»، فقد كان الأول على أقرانه فى الامتحان الذى عقد منذ شهر.. يقيم عند عم له كان ضابطاً فى قيادة الجيش. ورأى عمه أن يكرمه وأن يحتفل بتفوقه ونجاحه فاصطحبه معه إلى حديقة للملاهى وسباق الخيل حيث واتى الحظ عمه فربح مرة ومرتين وثلاث

مرات، وأصبح فى حوزتهما مبلغ ضخم من النقود، وتناولوا طعام العشاء فى مطعم فاخر..

وتلقى من والده فى اليوم التالى مبلغاً من المال يعادل مرتب شهر للعمل الدبلوماسى الذى ينتظره مكافأة له على نجاحه وتقديراً لتفوقه.. وكان من الطبيعى أن يعتبر أن مبلغاً كهذا يعد ثروة لها قيمتها وشأنها منذ يومين، قبل أن يذهب إلى ساحة المراهنة على سباق الخيل.. أما بعد أن رأى الأرباح تتدفق بسهولة عن طريق المقامرة، فقد تضاعل المبلغ فى نظره واعتبره تافهاً.. وحفرته تلك الخواطر، فلم يكد يتناول غداءه فى اليوم التالى حتى أسرع إلى ميدان السباق وراح يراهن فى اندفاع وتهور.. وحالفه الحظ فى هذه المرة، وإن كان ذلك من بوابر سوء حظه وترديه فى المقامرة بعد ذلك.. فخرج من ميدان السباق وقد ربح أضعاف ما كان معه!..

ومنذ تلك اللحظة سرى داء المقامرة فى دمه، واشتدت لهفته عليها، واستبد به سعارها على أى وجه من وجوها.. فتارة فى ميادين السباق، وطورا فى المقاهى العامة، وأحياناً فى أندية القمار. واستشرى فيه هذا الداء الوبيل حتى استحوذ على وقته وأعصابه وموارده وكيانه، ففقد القدرة على التفكير السليم والعمل الحكيم وحرّم من النوم الناعم الهادئ. وعجز عن كبح جماحه ورد نفسه عن تلك الغواية.. وحدث ذات مرة أن عاد إلى بيته من أحد أندية القمار بعد أن خسر كل ما يملك وأصبح مفلساً تماماً. وفيما هو يخلع ثيابه، عثر على ورقة مالية فى أحد الجيوب الداخلية، فاستبدت به شهوة المقامرة ولم يقو على كبحها.. فارتدى ثيابه من جديد، وانطلق فى الشوارع، وقادته قدماه إلى مقهى التقى فيه بأحد المقامرين فراح يلعبه وظل على ذلك حتى انبجح الفجر..

وكان من الطبيعى - شأن جميع المقامرين - أن يستدين من المراهين، وأن تتضاعف ديونه وتتراكم.. فتطوحت أخته المتزوجة بمساعدته، فسددت

ديونه التي كان المرابون يتهافتون على إقراضه إياها لعلمهم أنه وارث كبير في أسرة عريقة. والمقامرة غريبة الاطوار يبتسم فيها الحظ ربحاً من الزمن، ثم لا يلبث النحس أن يحل ويأبى التخلي. وكان هذا شأن الشاب، فقد حالفه الحظ أولاً حتى ظن أن الثروة ميسورة عن هذا الطريق.. ولكن الحظ لم يلبث أن ولى عنه، فتضاعفت خسائره وتراكت ديونه وعجز عن سدادها. وتورط في تحرير صكوك يعلم جيداً وسلفاً أن لا سبيل إلى الوفاء بها، ويعطى وعوداً لا يستطيع أن يفي بها. وكان يندفع في المقامرة أملاً في الحصول على كسب وفير ينقذ به نفسه ويخرج من الهوة التي تردى فيها.. وإذا أضحى لا يقتنى شيئاً ذا قيمة لأنه كان قد رهن ساعته ليقامر بالمبلغ الذي رهنها به، فقد انزلق إلى حماقة شنيعة بالإقدام على سرقة حليتين ثمينتين مرصعتين بالماس من زوجة عمه، كانت تعتز بهما وتحفظهما في مكان أمين في دولاها ولا تتزين بهما إلا في المناسبات الكبرى وحفلات علية القوم. ورهن إحدى الحليتين على مبلغ كبير، قامر به فربح أربعة أضعاف المبلغ في ليلته. وكان أخرى به أن ينسحب قانعاً بما أصاب.. ولكنه جازف بالمبلغ وبالربح الذي ناله فخسر الجميع وأضحى خاوي الوفاض..!

وحتى ذلك الوقت لم يكن أمر السرقة قد عرف واكتشف، فبادر إلى رهن القطعة الثانية وتوجه لتوه إلى «مونت كارلو» لعله يجد الحظ في «الروليت» فيحصل على الثروة التي يمني نفسه بها.. ولكن الحظ لا يعاند، وانتهى به الأمر في اليوم الذي وصل فيه إلى أن يبيع ثيابه ثم الحقيقية التي كانت تضمها، ثم المظلة.. ولم يبق لديه سوى مسدسه وبه رصاصات أربع، وصليب من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة كانت قد أهدته له «أشبينته» الأميرة عند تعميده. وكان يعتز بهذا الصليب ويحرص عليه حرصاً شديداً.. ولكنه أمام النزوة الطاغية، اضطر أن يبيعه بعد الظهر بخمسين فرنكاً.. لا أملاً في

ربح أو خسارة بل لكى يتنوق لآخر مرة تلك النشوة الجامحة التى يستشعرها المقامر، لانه كان فى هذه المرة يقامر على حياته أو على موته!!
سرد الشاب لى قصته وقد تآلق بجاذبية خلابة وفتنة أضفت الحيوية على كل ما حوله. وكنت أصغى إليه وقد شملنى التأثر والاضطراب، فقد أخذتنى قصته فرثيت له.. بيد أنه لم يدر بخلدى مطلقاً أن جلوسى مع شخص - لا يعدو أن يعتبر لصاً رغم أى اعتبار - من الأمور المخجلة. ولو أن شخصاً ذكر لى قبل ذلك، بيوم واحد، أننى وأنا السيدة ذات الماضى الناصع النقاء والتى يحترمها المجتمع، قد تجمعنى جلسة يوماً من الأيام فى غير تحفظ أو كلفة مع شاب غريب عنى فى مثل عمر أحد أبنائى، وأن هذا الشاب قد أقدم على سرقة فهو لص.. لو ذكر لى أحد أن هذا قد يصادفنى فى حياتى لاتهمته بالخبل والهذيان!!

وأصدقك القول أننى رغم ما سمعته من قصة الشاب، فإننى لم أشعر نحوه باشمئزاز أو استنكار. وقد راح يسرد الحوادث فى سذاجة دون استحياء، كأنه يروى أموراً لا تمت للخلق بصلة، وأنها ليست من الجرائم المخجلة.. بيد أن سيدة مثلى بوغت فى الليلة السابقة بأحداث فظيعة لم تكن تتوقعها تترى تباعاً، من الصعب عليها أن تؤمن بالاستحالة؛ لأن تجارب تلك الساعات التاريخية التى تتصل بغموض الحياة وحقائقها تفوق كثيراً كل ما مر بى فى أعوامى الأربعين التى انقضت فى رتابة واتزان..

ناحية واحدة فى اعترافاته أشاعت الخوف فى نفسى.. ذلك البريق المتآلق الذى كانت تطفح به عيناه فتقلص معه أسارير وجهه، فكان حديثه عن اللعب ومدى تعلقه به يفصح فى جلاء عن مشاعر البهجة والأسى اللذين يستشعرهما فى أعماقه.. وكانت يداه تترجمان بحركتهما عن تلك المشاعر، فتارة تكونان وديعتين هادئتين وتارة أخرى تنقلبان إلى أداتين جامحتين تتحركان فى عصبية وحشية كما كانتا أثناء اللعب.. وقد ركزت اهتمامى

عليهما وهو يروى قصته، فهالنى أن أراهما ترتعشان وتتقلصان وتنسبطان ثم تقبض إحداهما على الأخرى فى عنف وتشنج. وأعجب من ذلك أنهما - حين تكلم عن سرقة الحليتين - ترجمتا بحركاتهما كيف امتدت اليد فقبضت على الحليتين، ثم دستهما فى خفة بين ثيابه ملابسه.. فظهر لى جلياً أن ليس باستطاعته أن يكتم أو يخفى انفعالاته، بل إن تلك الانفعالات كانت جزءاً لا يتجزأ من طبيعته وكيانه.. وهالنى وأفزعنى أكثر من ذلك كله أن تكون لهذا الشاب الوسيم الوديع روح شريرة ونزعة شيطانية.

ورأيت أنه ينبغى إن أسلك طريق الملاحظة والمودة مع ذلك الشاب الذى ألفت به المقادير فى طريقى وفرضت علىّ واجب إنقاذه، لكى أقنعه بأن يرحل عن تلك البقعة الموبوءة بالمقامرة فوراً لما يترتب على البقاء فيها من عواقب وخيمة، وأن من المحتم عليه أن يرحل تَوّاً إلى بلده وعائلته قبل افتضاح أمر السرقة لأن فى ذلك القضاء على مستقبله قضاءً مبرماً.. ووعدته بأننى سأمنحه المال اللازم لسفره ولاسترداد الحليتين، على أن يوافق هو ويتعهد بالرحيل فوراً دون إبطاء أو تأجيل.. وأن يعاهد الله أن يطرح المقامرة جانباً، فلا يمارس أى نوع من أنواعها بعد ذلك..

وسيطّل عالقاً فى ذهنى عرفانه بجميلى الذى بدأ طبيعياً، ثم أخذ يظهر تدريجياً على وجه ذلك الشاب المحطم.. ولا أزال أذكر ذلك الاهتمام الذى بدا منه وأنا أنهى إليه استعدادى لمساعدته، فقد رأيته يمسك بيدي فجأة بين راحتيه، بشكل لن أنساه ما حييت، وبحركة فيها خشوع وتقدير لى، ورأيت الدموع تترقرق حيرى فى مقلتيه الصافيتين صفاء الغدير، وانتابته رعشة عصبية تحت تأثير الشعور بالسعادة..

وكم رغبت أكثر من مرة أن أصور لك ما كانت تفصح عنه أساريره من تعبيرات وأن أصف لك تصرفاته.. بيد أنه ليس فى استطاعتي الآن أن أعبر لك عن مدى السعادة التى غمرته فى شكل بريق متألق.. سعادة ليس لها

نظير كتلك التى يحس بها الإنسان خلال حلم جميل، ولماذا لا أكون صريحة؟.. إننى لم أستطع أن أصمد أمام روعة ذلك المنظر.. حقاً إن الاعتراف بالجميل يشيع البهجة والسعادة فى النفس، فهو تعبير كالطيف فى خفته. والوداعة تغمر النفس بالإشراق ؛ لذلك كان هذا الشعور شيئاً جديداً مستطاباً على سيدة متزنة مثلى، فلفنى هذا الشعور بفيض من الراحة والطمأنينة. وأدركت أن نفس الشاب قد تفتحت لى بعد أن كان قانطاً محطماً..

أجلنا النظر فى البحر المنبسط، ونحن نغادر المطعم، فرأيناه رائعاً فى تآلق وقد انعكست عليه زرقة السماء وحلقت فوقه الطيور.. حقاً ما أروع جمال الطبيعة!.. إنها تشيع فى النفس شعوراً بالبهجة.. ولكن «الريفيرا»، رغم بهائها وروعتها، فإن جمالها من نوع آخر لا تستسيغه العين كالحسناء المبتذلة تجذب الأنظار وتخلب الأفئدة بظاهر جمالها ولكنها فى الواقع فقدت قيمتها الإنسانية وجوهرها الثمين.. بيد أن جمالها قد يبعث الحرارة فى النفس فى بعض الأحيان، فيأخذ بطلانه البراق ويؤثر بهاؤه الزائف فى أحاسيسك ومشاعرك.

الفصل العاشر

اعتراف بالجميل

كان يومنا زاخراً بثشتى الأحاسيس التى ألهمت نفوسنا وأيقظت ما
تضمه جوانحنا وأعماقنا، وكان فى نظرنا بمثابة اليوم المشرق الذى يعقب
عاصفة هوجاء.. وقد أزال المطر غبار الشوارع فبدت لامعة، واصطبغت
السماء بلون وردى يبعث فى النفس شجى محبباً، وظهرت الطبيعة فى أبهى
حظائها وبدت الجبال شامخة كأنما قامت لتقينا عوادي الزمن. وبالجملة كانت
الطبيعة مبعث إغراء لا سبيل إلى مقاومته.. فطغى ذلك على كل مشاعرى
وقلت للشاب:

- بودى أن نستقل عربة تنطلق بنا فى نزهة على الشاطئ!..

- كم يسعدنى ذلك..

وأدركت أن سحر الطبيعة قد أثر فيه فبدل من شأنه ؛ لأن عينيه لم
تطالعا منذ حضوره سوى قاعة اللعب بموائد اللعينة وجوها المقبض
المشبع برائحة الطباق والعرق، والذى تختلط فيه أصوات المقامرين، الراحين
منهم والخاسرين. لقد كان ذلك هو الحيز الذى ضمه والدائرة التى لم
يتعدها، فلم يكن لديه متسع من الوقت أو استعداد للتفكير فى سحر
الطبيعة وجمالها الأخاذ..

أما الآن فقد فتحت له الطبيعة قلبها، فاستقبلها بالغبطة والترحاب
كالطفل الذى يرتضى فى أحضان أمه الحنون!..

وأخذت العربة تتهادى بنا، إذ لم يكن هناك زحام يعكر صفو سيرها فى
ذلك الشارع الجميل. ومررنا بكثير من البيوت الصغيرة الجميلة وبجموع من
الناس فى غدو ورواح.. فأيقظ مرأى تلك البيوت فى نفوسنا مشاعرنا
وإعجابنا بجمال الحياة بين أحضان الطبيعة فى هناء وسلام بعيدين عن
صخب الناس..

هل يمكن أن يكون هناك شعور بالسعادة أمتع مما استشعرته فى تلك
الساعة؟! حيث كان إلى جانبنى شاب وديع وسيم كان مشرفاً على الموت

بالأمس، فأضفت عليه الطبيعة من قوتها السحرية وعادت إليه نضارته.. فبدأ يافعاً أصغر من سنه تفيض عيناه بالبشر والحبور وبالتقدير والاحترام فى الوقت ذاته للجالسة إلى جواره، حتى لقد زهوت حقاً بتبجيله إياى.. كما كان مثلاً رائعاً لليقظة والحرص حتى أنه كان يقفز فى سرعة ورشاقة ليدفع العربة إذا رأى تعثراً فى سيرها.. وكلما مررت بزهرة وذكرت اسمها أو أطريت جمالها، بادر إلى اقتطافها وتقديمها لى فى أدب جم ولطف بالغ. وبلغ من رقة قلبه وشفافيته أن رأى ضفدعة كادت تتوسسها العربة، فهبط وأمسكها ونأى بها عن الهلاك.. وأجمل من ذلك أيضاً أنه راح يروى طوال الطريق كثيراً من الأقاصيص الطريفة فى دمائه ولباقة وأدب ليسليني..

وخيل إلى أنه جعل ضحكاته ستاراً يخفى وراءه إحساسات أخرى كانت تعتمل فى أعماقه، فقد رأيته لا يتمالك نفسه أحياناً فيغنى أو يقدم على تصرفات صبيانية تبعث على الضحك، بيد أنها كلها كانت تنم عن بهجة وانشراح وانطلاق..

وحدث أن رفع قبعته فجأة والعربة تسير بنا على مهل، فأخذتني الدهشة وتساءلت ترى من ذا الذى يحييه وهو غريب فى هذا المكان، واستفسرته عن يقصد بتحيته فاعتراه خجل طفلى، واصطبغت وجنتاه بحمرة وردية، وأجابنى فى وقار بأننا مررنا فى سيرنا بإحدى الكنائس، وأن هذا من تقاليد أهل بولندا، درجوا عليها شأن كل البلاد الكاثوليكية المذهب، فقد درجوا على تحية بيوت الله برفع قبعاتهم عن رؤوسهم. فشعرت بالخشية أمام ذلك التقديس الذى أبداه، وقفزت إلى ذهنى ذكرى الصليب الذى سبق أن حدثنى عنه. وسألته عما إذا كان متمسكاً بأهداب الدين، فعاد الاحمرار يضرج وجهه وقال بلهجة يشوبها الخجل بأنه يتوق إلى تناول القربان المقدس.. وعندئذ أهبت بسائق العربة أن يتوقف، وبادرت فغادرت العربة، وتبعنى وكأنه لا يدرى ماذا سأفعل، ثم سألنى فى دهشة:

- إلى أين ياسيديتي؟

- ستعرف.. وسر معي..

ويممت صوب الكنيسة، وكانت صغيرة شأن جميع كنائس الريف، شيدت من الطوب وطلبت جدرانها الداخلية بالجير.. فبدت قاتمة وكأنها أثرية. وكان بابها مفتوحاً يتسلل منه ضوء أصفر اللون وسط الظلام، ويتوج المذبح بهالة زرقاء باهتة، ورأيت شمعتين يتراقص ضوءهما خلال العتمة المشبعة برائحة البخور التي عمت المكان..

ودلفنا من باب الكنيسة، فأحنى رأسه قليلاً ورفع قبعته، ثم غمس يده في الماء المقدس ورسم إشارة الصليب وركع نصف ركعة. وأمسكت بذراعه حين انتصب قائماً، وقلت له وكأني ألقى إليه أمراً:

- هيا إلى المذبح أو إلى أحد هذه الرسوم المقدسة وردد العهد والقسم اللذين سأتلوهما عليك..

فنظر إلى مذهولاً وقد لفته الرهبة، وإذا أدرك ما أعنى تقدم نحو فجوة قام فيها تمثال لأحد القديسين، فكرر مراسم التقديس بأن رسم إشارة الصليب وركع في خشوع المتعبد، فشملتني رجفة لفرط التأثر وقلت له:

- ردد ما سأقوله وأحلف اليمين..

- أقسم ياسيديتي..

فتلوت التالي:

- أعاهد الله أنني لن أقدم على ممارسة القمار في أية صورة من صوره أيّاً كان نوعه.. ولن أزج بحياتي وسمعتي وشرفي في خضم هذه النزوة وهذا البلاء..

وردد ذلك العهد، ويظهر أنه رده من أعماقه لا بفمه فقط لأنني رأيته ينتفض كريشة في مهب الريح وقد أخذته رهبة حقيقية.. ردد الكلمات بصوت واضح النبرات تردد صداه في السكون المحيط بنا. وبعد ذلك خيم على

المكان صمت شامل، حتى لقد تناهى إلى أسماعنا حفيف أوراق الأشجار التى كان الهواء يداعبها خارج الكنيسة. ثم رأيته ينحنى فجأة فى خشوع بالغ كأنه خاطئ أثقلته الذنوب فناء بها، وراح يتكلم بسرعة بلغته البولندية التى أجهلها فى نوبة من الورع والتقوى وصدق العزيمة لم أكن أعدها فيه.. وأغلب الظن أنه كان يردد صلاة حارة من أعماقه.. ربما صلاة شكر وندم وتوبة، إذ كان بين الحين والحين يحنى رأسه فى خشوع على ستار الهيكل وهو يردد صلاته فى حرارة دافقة، واسترعت انتباهى كلمة معينة كان يرددتها فى حماس وعزم. لقد كانت صلاة حارة بالغة الورع والتقوى، إذ كانت يداه تتشبثان بستار الهيكل فى استرحام وضراعة، وينتفض كمن أصابته حمى راعشة أو كمن يقاوم صراعاً فى أعماقه، وراح ينتصب معتدلاً حيناً ثم يعود إلى الركوع فى خشوع عميق وكأنه قد سبح فى عالم آخر غير هذا العالم.. عالم نقى خال من الخطايا والآثام أو كأنه قد تحول إلى قديس..

وطال مكثه على تلك الحال إلى أن نهض فى النهاية على مهل ورسم إشارة الصليب، وراح يتلفت حوله وقد علا وجهه شحوب شديد وارتجفت ركبته كأنه شخص متهاك أو مقبل على إغماء.. وما إن رآنى حتى تألقت عيناه بوميض لامع، وشاعت فى وجهه ابتسامة عذبة صافية زادت أساريه بهاء، ثم انحنى أمامى انحناء كبيراً، وتناول يدي فى وقار ولثمهما بخفة فى تقدير ثم قال:

- إنك رسول السلام، بعثك الله إلىّ فشكرته على نعمائه..

وارتج على الكلام، ولم أدر بماذا أجيب.. بيد أننى تمنيت لو أن القيثارة قد ردد أنغامه.. ذلك لأننى أدركت وأيقنت بأننى نجحت فى مهمتى.. وحفظت على هذا الشاب حياته إلى الأبد..

وغادرنا الكنيسة فاستقبلنا إشراق الطبيعة فى ذلك اليوم الذى أزدهى بالصفاء والنور وتجلّى فيه الجمال فى أبهى صورة.. ومررت بنا ساعتان

والعربة تتهاذى بنا، وكأنها هودج يسير الهوينى حتى بلغنا قمة المرتفع، فكان يطالعنا بين الحين والحين منظر بهيج يأخذ بمجامع الألباب. بيد أننا ظللنا صامتين لا ينبس أحدا بكلمة، وكأننا أشفقنا من أن يعكر الكلام ذلك الصفاء الذى شملنا فى الكنيسة. وكنت أتعمد أن أشيح بوجهى فى حرج إذا تلاقت عيوننا، وقد طغى نجاحى فى مهمتى التى تكاد تكون معجزة على مشاعرى!

وانتهى بنا المطاف، وعدنا إلى حيث أتينا، إلى «مونت كارلو» وكانت الساعة قد بلغت الخامسة بعد الظهر. وكان لدى موعد هام مع بعض أفراد أسرتى لا أستطيع التخلف عنه.. على أننى كنت فى أمس الحاجة إلى الراحة، والاعتكاف لأهدئ من حدة عواطفى المضطربة المشتعلة فى نفسى فى تلك الفترة.. فقد طغى على شعور دافق بالسعادة، فأحسنت بالحاجة لأن أستمتع بتلك النشوة التى شملت كل ذرة فى كيانى، والتى لم أذوقها من قبل.. فرجوت الشاب - حتى لا أنتقص من رعايتى له - أن يذهب معى إلى الفندق لبضع دقائق، حيث نفحته فى حجرتى النقود اللازمة لسفره ولفك رهن الحليتين المسروقتين، على أن يتوجه بعد ذلك من فوره إلى المحطة ليحصل على تذكرة السفر، وفى هذه الأثناء أكون أنا قد وفيت بموعدى. وإذا يفرغ كل منا من ذلك، نعود فنتقابل فى المحطة فى الساعة السابعة حيث نقضى معاً الدقائق الباقية على موعد قيام القطار ورحيله إلى موطنه. بيد أنه راعنى أن أرى الاصفرار يعلو شفثيه وأنا أقدم له النقود، وهتف بصوت مبجوح وكأنه منبعث من هوة سحيقة:

- لا.. لا.. لا أريد نقوداً!..

نطق بذلك فى ارتباك وتلعثم، بينما أخذت أصابعه ترتجف وتراجع إلى الخلف فى اضطراب وانفعال شديدين وهو يردد:

- لا أريد نقوداً.. لا أستطيع أن أراها..

وراح يكرر هذه العبارة بصورة آلية وقد استولى عليه شعور بالخوف الممزوج بالاشمئزاز.. فبذلت جهداً فى تهدئة روعه، متعللة بأن ما أقدمه له لا يعدو أن يكون قرصاً يسدده فى أى وقت يشاء، ولا بأس من أن يكتب أيضاً به حتى لا يكون فى الأمر حرج. فتمتم قائلاً:

- إيصال.. نعم.. لا بأس من تحرير إيصال..

تفوه بهذه الكلمات وهو يغض النظر ويشيح بوجهه قليلاً.. ثم أمسك الأوراق المالية وضغطها بيده ودهسها فى جيبه دون أن يلقي عليها نظرة.. وأخرج ورقة صغيرة سطر عليها بضع كلمات فى سرعة. وبعد ذلك رفع رأسه فإذا جبينه يقطر بالعرق كما لو كان يعانى صراعاً داخلياً عنيفاً ويحاول الانطلاق جاهداً. ورأيته يرتعش حين تناولت الورقة من يده. وفجأة جثا.. فتراجعت إلى الوراء فى هلع. ووجدته يقبل طرف ثوبى.. فأخذت بذلك المنظر الرائع.. وهالنى انفعاله الشديد فبعث الرجفة فى أوصالى، ثم اعترتنى قشعريرة حادة ولفنى الاضطراب، فتمتمت قائلة:

- لا يسعنى إلا أن أشكر لك هذا التقدير والعرفان بالجميل.. معذرة.. يجب أن نفترق الآن، على أن نتقابل على رصيف المحطة فى الساعة السابعة، حيث نتبادل الوداع..

وتطلع إلى بنظرة زاهرة بشتى المعانى.. الحنان والتقدير وعرفان الجميل، وقد تألقت عيناه ببريق أخاذ، فجال بخاطرى أنه يريد أن يتكلم، وخيل إلى أنه يرغب فى أن يقترب منى، بيد أنه انحنى فجأة انحناء كبيرة، ثم غادرنى دون أن يتفوه بكلمة..

الفصل الحادى عشر

الأُنثى الكامنة

وإذ وصلت إلى هذا الحد من قصتها، لاذت بالصمت وقد توقفت عن الاسترسال في حديثها.. ثم نهضت وسارت صوب النافذة، فسرحت النظر إلى الخارج. وظلت على تلك الحال وقتاً طويلاً دون أن تند عنها حركة ما، وبعد حين لاحظت أن رجفة اعترتها في الوقت الذي كانت توليني فيه ظهرها.. ورأيتها تستدير فجأة وتعود نحوى فى تؤدة ورزانة. وقد بدرت من يديها الساكنتين حركة تشنجية شديدة، ورشقتني فى جرأة بنظرة حادة ثاقبة، وعادت حديثها قائلة:

إننى لازلت على عهدي فى الصراحة وصدق الرواية، وقد ثبت لى أن ذلك أمر جوهري؛ لأنه تبين لى الآن، وأنا فى صراع مع نفسى أبذل جهدى لأصف لك للمرة الأولى تلك الساعة التاريخية فى حياتى فى ترتيب منتظم، أبحث عن الكلمات الصحيحة أصف بها مشاعري التى كانت منطقية ومضطربة حتى ذلك الوقت فى أعماق نفسى، أدرك الآن فى وضوح أشياء كثيرة لم أدركها أو لم أكن أود أن أدركها.. فلهذا وطنت العزم على اتباع الحقيقة، دون تمويه أو مداراة فى جرأة وعزم وحزم..

لقد شعرت وأنا فى شبه غيبوبة، حين غادرنى الشاب وتركنى وحيدة فى غرفتى، بلطمة شديدة سدت إلى قلبى فإصاباته.. كأنما نفذ فيه خنجر مسموم شقه فخلف المأقاتلا، وعجزت أو إننى أبيت أن أقنع نفسى بتعليل مظاهر المودة والاحترام والتقدير التى ابداهها نحوى.. لطمة أصابت منى مقتلاً! وأنا الآن أبذل جهد الجبابة لى أنتزع تلك الأحداث وأبعثها من غياهب الماضى فى ترتيب وعزم، كما لو كان ذلك الماضى لا يتعلق بى أنا. اليوم أرى أنه من المتعذر أن أخفى عنك تلك الحقائق أو أموها، أو أن أتلمس المعاذير لتبذير فعل مخجل أو عاطفة مخزية. لذا أرانى أدرك اليوم مبعث ذلك الألم فى جلاء واضح.. لقد كان مبعثه فى ذلك الوقت ضيعة الأمل وخيبة الرجاء، وأنا أراه ينصرف هكذا بغتة فى هدوء وصمت، من غير أن

تبدر منه ولو على أبسط الصور محاولة للتشبث بى أو البقاء معى.. فقد رأيته يستكين وينصاع لما أشرت به عليه فى خضوع وتوقير لأول مرة طلبت إليه فيها الرحيل. وكنت أتمنى لو أنه تودد إليّ، أو أغرانى على البقاء معه، أو جذبنى إليه فى شغف وعنف.. لقد رأيته وقد اعتبرنى إحدى القديسات فأحاطنى بهالة من الإجلال، ولم ينظر إليّ ويشعر بى على أساس أننى امرأة..

وقد كتمت خيبة أملى هذه وقتذاك حتى عن نفسى، وظللت على كتمانها بعد ذلك.. بيد أننى أحسستها بين جوانحى وشعرت بها؛ لأن شعور المرأة مرهف دون أن يفصح أو يفصح، فهى أقدر على كبت مشاعرها وإخفائها عن الرجل. وقد كان ذلك دون وعى منى لحقيقة أمرى وقتذاك، ولكننى الآن عاجزة عن إدراك نفسى. ولو أنه تشبث بى وطلب إليّ أن لا أتخلى عنه وأن أتبعه، لوافقته على الفور ولذهبت معه إلى أقاصى المعمورة، دون أن أبالى بتلطix اسمى وتعريض لقب ولدى للضياع، ودون أن أعبأ بما تلوكه الألسنة أو أصغى إلى ضميرى.. كنت لا أتورع عن الهرب معه، بل أبادر إلى ذلك كما فعلت «هنرييت» حين هربت مع ذلك الشاب الفرنسى الذى قيل إنها لم تكن تعرفه حتى الليلة السابقة على فرارهما.. وما كنت أجسر أو أسمح لنفسى أن أسأله إلى أين نذهب، بل ماكنت أتردد لحظة لكى أفكر أو ألقى نظرة إلى حياتى الماضية. وإنما كنت أنزل طواعية لهذا الشاب عن ثروتى ولقبى وشرفى.. وكنت أفعل المستحيل من أجله، ولا أتورع عن إتيان أحط عمل يشير به أو يدفعنى إليه.. كنت ألغى ألفاظ العفة والشرف والاحترام من قاموس حياتى!..

لقد كنت رهن إشارة واحدة، فأقدم على كل ذلك لو أنه تفوه بكلمة أو بدرت منه بادرة أو بذل ولو أبسط محاولة لكى يحتفظ بى.. إذ إننى كنت قد أقمت سداً بينى وبين عقلى فى ذلك الوقت، وتعلقت به كل قطرة فى دمى

ونذرة فى كيانى.. ولكن وا أسفاه، لم يجد ذلك الإنسان - حتى بنظرة واحدة - على الأنثى الكامنة فى أعماقى. لقد بلغت بى اللهفة إلى أن أطرح جانباً مقاييس الأخلاق، فأفرط فى نفسى واسمى وشرفى إلى أبعد مدى.. بيد أننى لم أدرك ذلك ولم أشعر به إلا حين وجدت نفسى وحيدة إثر تلك اللحظة التى غادرنى فيها، وكان وجهه الجميل يتألق وقد أفصح عما يعتمل فى نفسه من انفعالات.. واستبد بى هذا الشعور ووقع على نفسى وقع الصاعقة، فراح قلبى المهجور يئن ويتوجع!..

ونهضت فى تتأقل كمن ينهض لأول مرة بعد مرض أنك قواه، وكان لى موعداً بدا لى سقيماً.. وأحسست وكأن جسماً ثقيلاً هبط على رأسى، فناء جبينى بثقله حتى كدت أتهاوى. ولم أستطع جمع شتات أفكارى، وسرت فى تخاذل ميممة صوب الفندق الذى يقيم فيه أقاربى. وحين وصلت تهاويت على أحد المقاعد، تغلبنى كآبة ظاهرة تميزت وسط أناس كانوا يتجاذبون أطراف حديث مرح. وتراعت لى وجوههم جامدة باردة كالثلج إذا قورنت بوجه فارسى الدافق بالحرارة والحيوية، فشعرت بالجزع إذ كان طيفه الحبيب يتناوب الظهور أمامى مع تلك الوجوه الصماء التى خيل إلى أنها وجوه موتى وأن أصحابها لا تنبض بين جوانحهم حياة!..

وفيما كنت أضع قطعة من السكر فى قدح الشاي، وقد تحركت شفتائى ببضع كلمات فى شرود، كان يتراءى لى ذلك المحيا الذى أضحى مجرد التفكير فيه مبعث نشوة روحية وفرح طاغ، وهو يطفو من أعماقى وأغوار نفسى كأن قوة سحرية دفعته من دى الفائز.. هذا المحيا.. وا حسرتاه.. سوف أراه لآخر مرة بعد ساعة أو بعض ساعة. ولعل أنه واهنة أو زفرة خافتة مكتومة ند عنها صدرى لون وعى منى حين فاجأتنى إحدى قريبات زوجى وسألتنى عما إذا كنت مريضة أو أشعر بتعب، وقد رأت الشحوب يعلو وجهى والقلق يلغنى إلى أقصى مدى، فانتهزت هذه الفرصة وزعمت أنى

أعانى صداً أَلَمَ بى، ثم استأذنت بالانصراف دون أن يشعر أحد. وما إن خرجت حتى حثت السير وأسرعت الخطى عائدة إلى الفندق حيث لذت بحجرتى، وخلوت إلى نفسى وهمومى وأفكارى، فشعرت بالخواء المضى والوحدة القاسية. وأحسست برغبة ملحة فى أن أكون بالقرب من ذلك الشاب، الذى سافترق عنه اليوم إلى الأبد، وقد استبدت بى تلك الرغبة فى عنف وقسوة.. فأخذت أذرع الحجرة جيئةً وذهاباً كشخص فقد عقله وصوابه، ورحت أفتح الأدراج دون ما سبب ودون أن يكون هناك ما أبحث عنه، وأخذت أغير ثيابى وأبدلها، كى أبرر وقوفى أمام المرأة. وساءت نفسى، وأنا أرقبها بعين ثاقبة، عما إذا كنت وأنا على هذه الزينة وهذا البهاء عاجزة عن اجتذاب ذلك الشاب إلى؟!..

وأدركت حقيقة مشاعرى نحوه ومبلغ انعطافى إليه، حتى أننى كنت لا أحجم عن أى أمر أو أية حماقة من أجل الاحتفاظ به، وطغت على فورة مضطربة استحالت إلى رغبة ملحة وتشبث وإصرار، فأعلنت كاتب الفندق بعزمى على الرحيل والسفر فى مساء نفس اليوم.. فقد أصبح من الضرورى أن أقوم بعمل سريع وإجراءات جاسمة. واستدعيت الخادم لتعاوننى فى إعداد الحقائب، إذ لم تكن هناك فسحة من الوقت تسمح لى بإعدادها بمفردى، وأسرعنا فى جمع الملابس وأدوات الزينة والحاجيات الأخرى الصغيرة ورحنا نكدسها فى الحقائب، وأنا أتمثل فى ذهنى وخيالى تلك المفاجأة التى أرسم خطوطها وأحبك خيوطها وأتخيل الصورة التى ستتم بها. وخطرت لى فكرة التظاهر بالرغبة فى الصعود إلى القطار، لتبادل تحية الوداع الأخيرة، وأتخيل الدهشة التى ستتولاه بعد ذلك حين يرى حقائبى وحين يرانى وقد أخذت مكانى فى القطار حتى لا افترق عنه بل لأقضى فى رفقته تلك الليلة والليالى التالية التى يسعدنى قضاؤها معه..

واستشعرت غيظاً مشرباً بالنشوة، حتى لقد كدت أنفجر فى قهقهة عالية
وضحكات هستيرية وأنا أضع الثياب فى الحقائب حتى عجبت الخادم من
أمرى وأخذتها الدهشة لتصرفى.. وشعرت ببلبلة فى أفكارى وعدم استقرار
أو اتزان، حتى أننى أخذت أنظر فى استغراب ودهشة إلى الحمال حين جاء
لينقل الحقائب فقد كان من المتعذر على أن أفكر تفكيراً هادئاً سليماً بينما
تطفح نفسى بالبهجة وروحى بالنشوة. وأزف الوقت فقد راح يمر بى سراعاً،
وأشرفت الساعة على السابعة، ولم يبق على موعد قيام القطار سوى نصف
ساعة.. ولفنى شعور هادئ لطيف تخلل تلك الفورة لأننى لم أكن ذاهبة إلى
وداع أخير بل إلى لقاء وجمع شمل مع من أسر قلبى وفؤادى!..

وراح الحمال ينقل الحقائب، كما ذهبت أنا إلى إدارة الفندق لا سدّد
الحساب.. وأعقبت ذلك لحظة لم تكن فى الحسابان، فقد شعرت بيد تربت
على كتفى فارتجفت جزعاً.. كان تظاهرى بالألم والتعب قد شغل قريبة
زوجى حين كنت فى زيارتها، فدفعها ذلك إلى الحضور لى ترانى وتطمئن
على صحتى، فدارت بى الدنيا وارتج على الأمر فلم أدر كيف أتصرف،
والوقت والموقف لا يتسعان للتفكير فى عذر أو حيلة، وكل لحظة تمر معناها
إفلات الفرصة وضياعها. بيد أننى رأيت من باب اللياقة والمجاملة أن أمنحها
فترة قصيرة من الوقت أستمع فيها إلى ما ستقول..

وأخذت تنصحنى فى تشبث وإصرار بأن ألزم فراشى ولا أبرحه، لأننى
على حد قولها محمومة.. وربما كان الأمر كذلك، فقد كنت أشعر حقاً كأن
أتونا يشتعل فى داخلى، وازدادت ضربات نبضى فى عنف وقسوة، وشعرت
بأننى موشكة على إغماء. بيد أننى لم أوافق على مشورتها مع تقديرى
لنصحها وتقديم شكرى لها. وكانت كل كلمة ألقوه بها وكأنها قطعة خبز
تخرج من فمى، فقد جاءت نصيحتها فى غير الوقت الملائم لذلك. وظلت هذه
القريبة السمجة فى مكانها، وقدمت إلى بعض العطور وتبرعت مبالغة منها

فى مجاملتى بأن تدلك وجهى بتلك العطور.. وكل ذلك وأنا أخصى الدقائق
واعد الثوانى وقد شررد ذهنى واتجه فكرى بكليته إلى معبودى.. ورحت أفكر
فى عذر أتلعل به لأجعلها تعدل عن تلك الرعاية التى ضقت بها ذرعاً، فأخذ
اضطرابى يزداد وقلقى يظهر على قسمات وجهى مما جعلها ترتاب فى
أمرى.. فلم تتورع عن مخاطبتى فى شدة لتحملنى على ملازمة الفراش..

وتركزت نظراتى، وهى تتكلم، على ساعتى ودوران عقرب الدقائق فيها
وهو يقترب حثيثاً من موعد قيام القطار.. حتى لقد انصرمت ثمان وعشرون
دقيقة بعد الساعة السابعة، ولم يبق على تحرك القطار سوى سبع دقائق..
وفى حركة مباغتة وفى عدم مبالاة اليأس، مددت يدى وقلت لها فى
اقتضاب:

– لا بد لى من أن أرحل الآن.. وداعاً..

وأسرعت نحو الباب لا ألقى على شىء، ولا أحفل بعلامات الدهشة
والاستغراب والتساؤل التى ارتسمت على وجهها، ولا بالنظرة التى تزخر
بالحيرة التى رشقتنى بها.. ولم ألتفت إليها ولا إلى الخدم الذين راحوا
يحملقون فىّ.. وقد انعقدت ألسنتهم، ورحت أحث السير وأعدو صوب
المحطة..

وكان الحمال يستحثنى وهو يسبقنى بين خطوة وأخرى، فأدركت أن
الوقت قد أزف وأن القطار على وشك التحرك، فهورلت فى جنون واندفعت
نحو باب المحطة.. وإذا بالرقيب يستوقفنى كى أبرز تذكرتى ولم أكن قد
حصلت عليها من شباك التذاكر.. ورحت أقنعه فى سخط أن يدعى لأتمكن
من اللحاق بالقطار، فإذا به يرسل صفيhre الحاد ويتحرك.. فوقففت مشدوهة
ورحت أحملق، وكل ذرة فى كيانى ترتعد وترتجف. وانبعث فىّ الأمل فى
نوافذ عربات القطار التى راحت تتوالى أمام عيني فىّ أن أحظى بطلعة
معبودى وأن أرى منه إيماءة أو إشارة تحية. وسار القطار أولاً رويداً رويداً،

ثم أخذت سرعته تزداد حتى أصبح من المتعذر على أن ألمح الوجه الحبيب.
وتلاحقت العربات فى أثر بعضها، وبعد دقيقة ابتعد عن المحطة ولم يظهر
منه لعينى الزائغتين سوى غمام دخانه الداكن.. بنفثه فى حلقات تمتد
فوقه..

وظللت فى وقفتى جامدة لا أتحرك، ولا أدرى كم بقيت هكذا.. ولم أتنبه
إلى الحمال وهو يخاطبني، فدفعه ذلك إلى أن يلمس ذراعى، فارتجفت
مذعورة، واستفسرني هل يعود بالحقائب من حيث أتينا.. فانتظرت لحظة
أستجمع فيها شتات أفكارى وأستعيد رباطة جأشى. ووجدت أنه ليس من
الصواب أن أعود إلى الفندق بعد أن بارحته على تلك الحال الغريبة.. كما لم
أجد فى نفسى الرغبة فى العودة إليه. وارتبكت واختلط على الأمر، فأشرت
عليه بأن يودع الحقائب مكتب الأمانات..

الفصل الثانى عشر

مفاجأة مذهلة!

مضت فترة من الزمن لا أدري مقدارها، ظلت فيها فى فناء المحطة ومن حولى حشود من الناس تروح وتغدو متدافعة وقد اشتد صخبهم وارتفعت ضوضاؤهم دون انقطاع وكأنهم خلية نحل يصم طنينها الآذان.. بيد أنهم أخذوا يتسللون واحداً واحداً ويقل عددهم بين دقيقة ودقيقة، فبدأت أسترجع رشدى وأستجمع شتات ذهنى، لأهتدى إلى ما يخفف عنى بعض ما أعانيه من ضيق وألم وسخط وأسى ويأس، فقد اجتاحتنى كل هذه المشاعر، التى تألبت علىّ فى وقت واحد بشكل عنيف قاس.. حتى لقد أحسست بأن لفائف قلبى تتمزق فى ألم وبلا رحمة.. وراح ضميرى يؤنبنى فى وخز أليم بأن ما حدث من تخلفى كان نتيجة لسوء تصرفى.. وعلىّ تقع اللائمة.. فكان هذا الشعور بمثابة الخنجر المسموم وقد رشق فى قلبى..

ومن الأمور البديهية أن الصدمات العاطفية التى تحدث على غير توقع أو انتظار، والتى تشبه انهيار جبل شامخ أو هبوب عاصفة هوجاء، لا يحس بها إلا من عاشوا حياة رتيبة بعيدة عن الانفعال، لأنهم يفاجأون بتلك الطاقات العاطفية والأزمات النفسية تتدفق فى فورة من أغوارهم. ولم يسبق لى من قبل أن صادفت صدمات كهذه فى حياتى، فكان شديد الوقع على نفسى ما استولى علىّ من سخط طاغ حين وجدت نفسى عاجزة عن أى تصرف.. فبينما كنت على استعداد للإقدام على أية حماقة، وإنكار المثل العليا للأخلاق، والتخلى عن الرزانة وإطلاق العنان لعواطفى المشبوبة والتى ظلت مكبوتة فى داخلى أعواماً طويلة، إذا بالعقبات تقف فى طريقى وتضيق محاولتى سدى..

وازددت عناداً وإمعاناً فى الطيش والرعونة حتى لأشعر بالخزي أن أنا رويت لك ذلك تفصيلاً.. بيد أننى مقيدة بعهدى الذى قطعته بأن ألتزم الصدق والصراحة وأن لا أخفى عنك شيئاً أو أمراً، فقد سعيت فى البحث عنه، ورحت أجتري لحظات السعادة التى قضيتها معه.. وساقتنى قدماى

فجست خلال كل شبر من الأرض ارتدناه بالأمس، فذهبت إلى الحديقة وألقيت نظرة على المقعد الذى كان يجلس عليه فيها، ثم توجهت إلى حجرة المقامرة التى كانت أول مكان رأيته فيها، بل ساقنتى قدمائى نون وعى إلى ذلك الفندق المتواضع.. لأستعيد الذكريات. وحين أهل اليوم التالى، استشعرت إحساساً طاغياً فركبت عربة وطلبت إلى السائق أن ينطلق بى إلى الشاطئ عبر الطريق الذى سلكناه أنا وهو بالأمس.. وبلغ بى الاضطراب حد الهوس، فكانت تصرفاتى تتسم بالصبيانية..

وشعرت فى ذهولى بضربة قاصمة.. بيد أننى حين أفقت من شرودى شعرت برغبة ملحة فى الحياة كى أستمتع بتلك الذكريات وأعيش فى دنيا خيالها على الطريقة الافلاطونية. حقاً إن هناك أموراً تستغل على العقل البشرى تحتاج لادراكها إلى قلب واع وفكر متوقد..

وكان ذهابى إلى قاعة اللعب لكى ألقى نظرة على المائدة التى كان يجلس إليها لأستعيد ذكرى يديه فى حركاتهما الانفعالية. وكنت أتصور كل حركة بدرت منهما فى وضوح، فلم أجد عناء فى الاهتمام إلى مائدته لأن جميع حركاته كانت منطبعة فى ذهنى وخيالى.. وجلت ببصرى خلال ذلك الحشد من المقامرين، ففاجئنى أمر لم يكن فى الحسبان ولم يدر بخلدى قط أن يكون.. فقد وجدته.. وفى نفس المكان.. جالساً إلى نفس المائدة. ولم أصدق عينى، وخیل إلى أننى أمام وهم من نسج الخيال أو تحت وطأة بلبلة أفكارى أو بسبب أى تأثير.. ولكنه كان هو.. هو بلحمه ودمه، كما رأيته بعين الخيال منذ لحظة، وكما كان فى أمسه، وقد تركزت عيناه على الكرة، وقد اكتسى وجهه بشحوب شديد، فلم أشك فى أننى أمام حقيقة ماثلة..

وأذهلتنى المفاجأة وذهبت بالبقية الباقية من رشدى فكدت أصرخ، ولكنى تماكنت نفسى وسيطرت على زمام أعصابى، ثم أغمضت عينى ورحت أهذى لفرط ما انتابنى:

- لابد أن مسأ من جنون أصابك، أو أنك ترزحين تحت حلم من الأحلام،
أو أن حمى أصابتك فخيلت لك هذه الرؤيا .. إن ذلك مستحيل .. مستحيل ؛
لأنه رحل منذ فترة بالقطار..

«بيد أنني حين فتحت عيني، طالعنى نفس المشهد.. فقد كان ماثلاً أمام
عيني وهو جالس إلى المائدة بكيانه وجسمه، ما فى ذلك شك . وكان من
السهل أن أميز يديه بين جميع الأيدي .. إذن فما كنت حاملة لأنه هو وقد
عاد، ولم يرحل كما قطع على نفسه عهداً بذلك .. لقد تخلف التعس وارتد
إلى اللعب بالنقود التى نفحته بها ليعود إلى وطنه. لقد استعبدته نزوة
المقامرة فجاء يقامر بنقودى، فى الوقت الذى كاد اليأس من عثورى عليه
يقضى على ..

«وتملكنى غضب عات تطور إلى ثورة هوجاء، فاندفعت إلى الأمام
تحدونى رغبة جامحة ملحة إلى أن أكيل اللطمات على ذلك الوجه الشاحب
لهذا الشاب الذى حنث بالعهد الذى قطعه واستهان بالثقة التى وضعتها فيه،
ولم يأبه بشعورى وصدق نيتى فى دناءة ووضاعة وخسة .. بيد أنني عدت
فكظمت غيظى وتمسكت بأهداب العقل، فسرت نحوه فى بطاء متعمد وبذلت
فى ذلك جهداً فوق الطاقة حتى صرت فى مواجهته، وقفت حيث لا تفصلنى
عنه سوى المائدة .. فكان من السهل جداً أن أتبين معالم وجهه، وتأملته
ملياً، فإذا بذلك الوجه الذى كان يتألق منذ ساعات قلائل بما أضفته عليه
مشاعر العرفان بالجميل، وأحاطت رأسه فى الكنيسة هالة قدسية، وقد زائله
كل ذلك فأضحى فريسة طيعة لتلك النزوة الشيطانية .. وإذا بيديه اللتين
تطهرتا بتشبهتهما بستار المذبح وهو يلقي بأقدس يمين وأغظله، قد عاودهما
الانفعال والنقص والتوتر، وكأنهما مخالب فى انقضاضهما على النقود التى
انتشرت أمامه. وأدركت أن انحط كان مواتياً له، وأن ربحه وفير إلى درجة
كبيرة حتى أن العين لم تستطع أن تلم بما كانت يداه تجمعها من قطع ذهبية

وأوراق مالية و «فيشات» اللعب، وقد أخذت أصابعه تجمع تلك الأكدا س فى مزيج من التوتر والفرح والنشوة. وإذا به يرتب الأوراق المالية ثم يطويها، ويعود إلى القطع الذهبية فيقبض عليها فى نهم وشغف، ولا يلبث أن يطوح ببعضها إلى أحد المربعات، ويعاوده الانفعال .. واسترعى انتباهه نداء الرقيب فراح يتبع بعينه حركة الكرة فى دورانها، وخيل إلى وقتئذ أن روحه توشك أن تنطلق من جسده وهو مستغرق بكليته ومشاعره المرفهة فى رقعة «الروليت»، فكانت حاله تبعث على الرثاء أكثر من حاله بالأمس، إذ كان الأمل الشاهق الذى تركزت فيه جهودى قد انهار من أساسه !

«ورحت أتأمل مليا وأنعم النظر فى قسمات وجهه دون أن يفطن إلى وجودى، إذ كانت عيناه مركزتين فى أمر واحد هو اللعب وقد استغرق فيه بكليته فما كان يرفع عينيه إلى أو إلى غيرى لأنه كان يشخص ببصره إلى النقود دون سواها ويتابع فى قلق ثوران الكرة، فكانت مائدة «الروليت» المستديرة الخضراء هى المسرح الوحيد لجميع حواسه اللاهثة، فهى دنياء التى لا يتعداها أفق تفكيره. وجال بذهنى أن ساعات طوالا قد تمر بى وأنا على تلك الحال دون أن يشعر أو يفطن لوجودى. وضاق نفسى وأفلت زمامى، فسرت حول المائدة فى حزم ووقفت خلف ظهره، وأمسكت كتفه، فشاعت الحيرة فى عينيه وأخذ يحملق فى وجهى بنظرات زائغة كأنه ينظر إلى شخص غريب لم يسبق له أن رآه . لقد كان كإنسان تناول مقدارا كبيرا من مخدر، من العسير أن يفيق بسرعة وقد ران أثر المخدر على عينيه .. وانقضت فترة لاح لى بعدها أنه عرفنى إذ انفجرت شفثاه فى اختلاج عصبى، وراح يرمقنى بنظرة طويلة نمت عن شعوره بالبهجة والسعادة، وتمتم فى صوت خفيض غير واضح النبرات وفى بساطة وتودد وقد ران عليه الشرود والغموض :

- إن الحال تسير إلى أحسن .. لقد شعرت بك بمجرد دخولك وحين رأيته هناك .. وقد أحسست بذلك فى وقته ..

«ولم أدرك مغزى كلامه، وظننت أن نزوة اللعب قد طغت على فكره، وأنه لم يعد يذكر شيئاً، فنسى وعده وقسمه، بل نسى العالم أجمع، حتى أنا .. نسيتنى أيضاً. ولكن البريق الذى تألق فى عينيه حين وقع نظره علىّ كان زاخراً بالإغراء رغم تعاسته وإفلات زمامه وانصياعه للشيطان . ولذلك وجدت نفسى أفكر فيما يقول على الرغم منى، فاستفسرته عما يقصد بكلمة «رأيت» وعمن يعنيه بهذه الكلمة، فمال علىّ وكأنه يفضى إلىّ بسر يحرص على ألا يسمعه أحد سواى وقال :

- أعنى ذلك الضابط الروسى العجوز المبتور أحد ذراعيه، الذى يجلس هناك ومن خلفه تابعه .. لقد لاحظت أن الحظ يواتيه وأنه يربح فى معظم الجولات. فأدركت أن له نمطا خاصا فى اللعب .

فرحت أسير على منواله. والحظ فى جانبه من الأمس حتى الآن، وقد كانت حماقة منى أن ظلت ألعب بالأمس بعد انصرافه. ولعل أرباحه فى الليلة السابقة نيفت على العشرين ألفا من الفرنكات، وهو يربح اليوم فى كل جولة، وأنا الآن أنهج نهجه وأسير على منواله فأضع النقود فى المربع الذى يضع فيه نقوده .. والآن

«وتوقف عن الكلام فجأة حين صاح الرقيب بصوته الثاقب :

- الآن يبتدىء اللعب .

« فتحول الشاب بنظره على مهل إلى الضابط الروسى، فإذا به يراه يضع فى هدوء قطعة من النقود الذهبية فوق المربع الرابع، وبعد لحظة يضع قطعة أخرى. وفى لمح البصر رأيت الشاب يدس يده المرتجفة فى أحد جيوبه ويخرج عدداً من القطع الذهبية ويضعها على الفور فى المربع ذاته .. وصاح الرقيب بعد دقيقة معلنا «الصفرة» وراح يحصد بمجدفته النقود من المائدة.

ورأيت الشاب قد زاغ بصره فى زهول كمن لا يصدق فقدان هذه النقود .. وهل تظن أنه التفت إلى ؟ .. لقد بدا وكأننى غبت عن ذاكرته وتلاشيت من محور أفكاره ولم يبق لى كيان فى محيط حياته. فقد استغرقت حواسه فى ذلك الضابط الذى تناول قطعتين أخريين، وراح يفكر فى اختيار المربع الذى يضعهما فيه .

«وليس فى استطاعتى أن أصف لك ما لفنى من غصة وقنوط، ولكن فى وسعك أن تتصور مدى ما استشعرته من خيبة أمل نحو شاب بذلت كل ما وسعنى أن أبذله لكى أحفظ عليه حياته، فإذا أنا فى نظره كائن تافه، لا يقيم لصنيعى وزنا ولا يحمل لى تقديرا .. فعاد الحق يستعر فى نفسى، فجذبتة بعنف حتى انتصب واقفا، وقلت له فى صوت خفيض ولكن بلهجة قاسية امرأة:

- اترك اللعب وانصرف على الفور، وتذكر العهد الذى أخذته على نفسك بين يدى الله فى الكنيسة .. أيها التمس الذى لايرعى ذمة أو عهدا .
«وهزت كلماتى كيانه، فحلق فى مشبوها وشحب وجهه حتى أصبح فى صفرة وجوه الموتى، واسترخت عيناه واستكان فى ذلة الكلب المهيض، وراحت شفتاه تختلجان وترتجفان وكأنما تراءى الماضى بأحداثه أمام ناظريه. وبدا كأنه قد برم بنفسه فى اشمئزاز، فتمتم فى تلعثم :

- آه .. أجل .. نعم .. يا إلهى .. سأنصرف . اغفر لى .

«وراح يجمع النقود فى عجلة وتحمس، ولكنه أخذ يتراخى شيئا فشيئا .. وكأنما هناك قوة خفية تهيب به ألا يفعل . وعاد يرنو ببصره إلى الضابط الروسى الذى كان قد استقر رأيه على رقم معين، وفجأة رأيت الشاب يلقي فى لمح البصر بضع قطع ذهبية فى المربع الذى وقع عليه اختيار الضابط، ويقول فى لهجة اعتذار .

- لحظة واحدة ولن ألعب سوى هذه الجولة.. أقسم على ذلك وسأصرف بعدها لتوى.

«وتلاشى صوته وهو يتابع دوران الكرة .. لقد أفلت زمام المسكين من نفسه ومنى، إلى أن استقرت الكرة فى فجوة أخرى، وصاح الرقيب معلنا رقما وامتدت مجرفته تجمع القطع الذهبية .. إذن فقد خسر الشاب، فلم يلتفت نحوى، ولم يعد لى وجود فى ذاكرته كما نسى العهد الذى قطعه على نفسه، والوعد الذى لم تمر عليه دقائق .. وعاود اللعب، فعادت يده تندس فى جيوبه فى توتر وانفعال لتخرج بالنقود التى أخذت تتناقص . وظل طيلة الوقت يشخص ببصره إلى الضابط الروسى، الذى ظن أنه يجلب له الحظ، فانصاع وراءه .

الفصل الثالث عشر

صليمت عنيقت

«وطال الأمر ونفد صبرى، فدفعته يدي فى عنف وقسوة وصحت فيه :

- انهض الآن لتوك .. فقد ذكرت أن هذه آخر جولة تلعبها ..

«وملأنى الهلع حين استدار نحوى، ورأيت ذلك الوجه على غير عهدى به من الوداعة والاستكانة والخوف قد تحول إلى وجه ثائر، وجه مخلوق استبد به الشر والغضب، فراحت عيناه تقدحان شررا وشفثاه ترتجفان من الحنق، وصاح بى فى فورة جامحة وجمود بغيض:

- لماذا تزجين بنفسك فى حياتى .. دعينى لشأنى واغربى عنى لأنك مصدر نحس .. لقد لازمتنى الخسارة فى وجودك .. حدث هذا بالأمس ، وها هو ذا يحدث اليوم .. انصرفى بالله عليك .

«وأخذتنى المباغلة فرحت فى ذهول، وإزاء هذه المكابرة، وبكران الجميل شعرت بكرامتى تمتهن وبمرجل الغضب يغلى فى نفسى، فقلت له :

- هل تعزو نحسك إلىّ أنا ؟ .. هل نسيت قسمك أيها المنافق اللص الكذاب .

«وسكت، فلم أزد على ذلك حرفا .. ويا لهول ما أعقب ذلك، فقد قفز كالمجنون ودفعنى فى فظاظة بون أن يرعى شعور الموجودين الذين هبوا واقفين مستنكرين، ولكنه صاح بصوت عال فى وقاحة وخسة :

- لاترينى وجهك! إننى لست قاصرا ولست أنت ولىة أمرى! ها هى ذى نقودك .. فاغربى عن وجهى ودعينى لشأنى !

«وألقي فى وجهى بضع ورقات مالية من ذات المائة فرنك. وقد علا صوته وكأن مسا أصابه، غير عابئ بالعشرات من الناس الذين تجمعوا حوله، وراحوا يتطلعون إليه فى تهامس وتغامز وهم يضحكون .. وبلغ من شدة الضوضاء التى أحدثها أن أقبل الكثيرون من الحجرة المجاورة لينظروا ما حدث بدافع الفضول، فاستولى علىّ خجل شديد .. وخيل إلىّ أننى أقف مجردة من ثيابى وسط هذا الحشد الغريب.

«ودق الرقيب المائدة بمجرفته وصاح فى بصوت عال :

- أرجو أن تلزمى الصمت أيتها السيدة !

«ومن عجب أنه وجه الكلام لى أنا كائننى أنا التى أحدثت الضوضاء، فشعرت بالهوان والخزى إذ وجدت نفسى محط أنظار الجميع ومادة مهمتهم وهمساتهم، كما لو كنت إحدى فتيات الليل أنقدها أجراها فلماذا تنتظر وماذا يدفعها إلى البقاء .. وراحت الأعين تحلق فى وجهى، فانتحيت ركنا وقد استشعرت الذلة والخزى، وأشحت بوجهى لأتفادى نظرات الفضول، وإذا بعينين أذهلهما حرج موقفى فأخذت صاحبتهم تنظر إلى مشدوهة وقد فغرت فاما لفرط الدهشة، ثم رفعت يدها تحت تأثير الذعر الذى ألم بها .. لقد كانت قريبة زوجى !

«ووقع على وجودها وقع الصاعقة، واشتعلت فى نفسى مشاعر الغيظ والألم .. فهرولت خارجة من حجرة اللعب قبل أن تفيق من ذهولها ودهشتها. واستطعت بقوة لا أدرى من أين أتننى أن أصل إلى مقعد بحديقة الفندق، نفس المقعد الذى كان يجلس عليه ذلك المخبول بالأمس مهدما محطما، وتهاكت على المقعد مهيضة مهينة محطمة، مثلما كان هو ..

«كان ذلك منذ حوالى ربع قرن، ومع ذلك فإن تأثيره القاسى فى نفسى مايزال كما لو كان قد حدث بالأمس .. فقد اكتويت بإهانتته لى على مرأى من هؤلاء الغرباء، يستغلق على الأمر كلما فكرت فى تلك الألفاظ التى يطلقون عليها أسماء متنوعة كالنفس والعقل والشعور والألم، وكيف تقف كلها مكتوفة رغم فورتها واحتدامها عن السيطرة على الجسد الذى يتعذب ويتلظى ويتحطم.. وكيف يتسنى لمخلوق حى أن يعيش بعد تلك الأحداث والأحوال لمجرد جريان الدم فى شرايينه ولا يدرکه العدم كما يحدث للشجرة إزاء عاصفة هوجاء تطيح بها !

«بيد أن الألم لم يلازمنى سوى لحظة خاطفة، هى التى تلقيت فيها اللطمة.. وعندما ارتميت على المقعد متهالكة خائرة النفس لاهثة الأنفاس أكاد أختنق، استشعرت مرارة الموت. ولكن الحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن الألم شعور واهن لا يلبث أن يتقهقر ويتلاشى أمام غريزة حب الحياة .. تلك الغريزة المتأصلة فى نفوسنا رغم ما نلقاه من متاعب وأهوال، حتى لترجع كفتها الرغبة فى الخلاص من تلك الحياة .

«ولم أستطع أن أفسر كيف عدت إلى رشدى رغم تلك الصدمة القاصمة العنيفة، وإن لفتنى الحيرة فيما ينبغى أن أفعل وكيف أتصرف، وقفز إلى ذهنى أن الحقائق لاتزال فى مكتب الأمانات بالمحطة، واستتبع ذلك بروز فكرة الرحيل التى أخذت تستبد بى فى إلحاح .. الرحيل من هذا المكان .. إلى أى مكان .. بعيدا عن هذه البقعة الموبوءة وبؤرة الفساد .. فرحت أسرع الخطى ما وسعته قوتى نحو المحطة لا ألقى على شىء وقصدت مكتب الاستعلامات لينبئنى عن موعد أول قطار لباريس، وبادرت إلى سحب حقائبى حين علمت أن مواعده فى الساعة العاشرة .

«وذلك الموعد هو تمام أربع وعشرين ساعة منذ ذلك اللقاء المقيت، كانت زاخرة بالأحداث والأهوال، وبالأحاسيس والمشاعر التى خلفت فى نفسى جرحا لا يندمل مدى الحياة .

«وألح على ذهنى وراح يتوارد عليه فى البداية أمر واحد، هو الرحيل، وأن ليس من سبيل سوى الرحيل .. فأخذت نفسى تردد ذلك فى تواتر لكى أهرب من هذا المكان .. ومن نفسى .. وشجونى، وأعود إلى موطنى .. بين عشيرتى وأهلئى، وإلى حياتى الأولى المطمئنة الرتيبة .

«واتخذت مكانى فى القطار، فقضيت به ليلتى .. ووصلت «باريس» ومنها أخذت أنتقل من مكان إلى مكان، وأخيرا رأيت أن أتجه إلى «بولونى» ثم إلى

«دوفر» .. مفتاح الطريق إلى «لندن» . وإذ بلغتها يمت شطر البيت الذى كان يقيم فيه ابنى .

وقد حدث كل ذلك فى سرعة خاطفة فى غير ما تفكير أو تدبير، فقد كان فكرى عاطلا حتى عن النوم والحديث والطعام مدى يومين كاملين إلا من فكرة الرحيل ..!

«وما إن حطت الرحال، وبلغت منزل ابنى ودخلته على غير موعد أو توقع ، حتى ارتسمت علامات الدهشة والجزع على وجوه أهل البيت جميعا .. فقد نمت نظراتى عما فى دخيلة نفسى .. وتراجعت مذعورة مجفلة حين أراد ابنى أن يقبلنى ! لأتنى لم أحتمل أن أراه يقبل شفقتين اعتبر أن طهارة الأمومة زايلتها فأضحيتها دنستين ! .. وأطبقت فمى عن الكلام أو الرد على ما وجه إلى من اسئلة. وإنما أبدت الرغبة فى إعداد الحمام، فقد طغى على إحساس عجيب بالرغبة فى تطهير جسدى من أوزاره لا من آثار وعثاء السفر .. ومما بدا لى أنه شابه من طيش ذلك الشاب ونزوته البشعة .. وتحاملت فى جهد وإعياء حتى وصلت إلى المخدع، فاستلقيت على الفراش ورحت فى نوم عميق دام أكثر من اثنتى عشرة ساعة كنت خلالها شبه ميتة أو مخدرة تخديرا تاما، أدركت منه كيف يكون الموتى حين يرقدون فى توابعهم !

«وفزع الجميع لأمرى وقلقوا، فقد ظنوا أننى أعانى من وطأة المرض، وأتى حذبهم على بعكس ما كنت أنتظر وأرجو، فقد نبه حواسى إلى ناحية قاسية وأيقظ فى كوا من الألم، فاستشعرت الخزى وشعرت بأننى لست أهلا لعطفهم وتقديرهم .. وبذلت قصارى جهدى كى أملك زمام نفسى حتى لاتعتربنى نوبة أكشف لهم فيها. عن خستى وخيانتى تحت تأثير نزوة جامحة عارضة ..

«وقضيت بينهم فترة من الزمن لا أدرى كيف مرت بى ساعاتها .. رأيت بعدها أن أرحل إلى إحدى القرى الفرنسية اخترتها مصادفة بون أن تكون لى صلة بأحد من أهلها .. لسبب واحد هو أنه بدا لى أن عارى سيظهر جليا للناس، وأنهم إذا كانوا يعرفوننى من قبل فإنه سيتضح لهم ما طرأ على من تغير حيث رزحت أعماقى تحت وطأة الشعور بالإثم والدنس .. حتى لقد كنت حين أستيقظ فى الصباح يلغنى الهلع والفرع، فلا أجسر على فتح عيني .. فقد كانت أحداث تلك الليلة المشؤومة ماثلة فى ذهنى وخيالى، أتمثل كيف حدث ذات يوم أن صحوت من نومى فوجدت رجلا غريبا ممددا على الفراش إلى جوارى وقد تجرد من معظم ثيابه .. فيراودنى نفس الإحساس الذى شعرت به وقتذاك وهو تمنى الموت!

«بيد أن دوران عجلة الزمن طلسم كبير للأحداث، يستنفد عمر الإنسان كافة مشاعره .. حتى أن تقدم الأعوام يزيده الإنسان من الموت، فيظل حياته بغمامة قاتمة يفقده ذلك الاستمتاع أو الإحساس بمباهج الحياة .. على العكس تماما مما يستشعره الإنسان حينما تكون الحياة مقبلة زاخرة بفورة الشباب والحيوية .

«هكذا أخذت أستجمع شتات أفكارى وأسترجع رشدى من الصدمة العنيفة التى منيت بها. وحدث أن التقيت فى إحدى المناسبات بموظف بالمفوضية النمساوية، وكان شابا فى مقتبل العمر من أصل بولندى، فوجدت نفسى أستعلم منه عن أسرة الشاب الذى شاطرنى إثمى .. فسمعتة يقول :

- أذكر أن شابا من أفراد تلك الأسرة قد انتحر منذ عدة سنوات وكان وقتذاك فى «مونت كارلو» .

«ولم يقع منى الخبر موقع الدهشة أو الألم أو الرثاء، بل ربما استشعرت الراحة لسماعه.. فقد دفعتنى الغريزة بأن نهاية ذلك المنكود قد حسمت كل شىء وقضت على أى احتمال للقائه فى المستقبل. وتبعاً لذلك لم تعد هناك

قرينة على خطيئتي سوى الذكريات .. فغمرتنى منذ ذلك الحين طمأنينة ناعمة ؛ لأن الشيخوخة فى حد ذاتها لاتبعث فى النفس القلق بل إنها مرحلة العمر التى ينبغى أن يحياها الإنسان بلا خوف وقد طلق ماضيه بذكرياته .
«ولعلك تدرك الآن السر فى تلك الرغبة الملحة فى أن أروى لك ماضى حياتى .. لأننى عندما رأيت موقفك من مدام «هنرييت» وأنت فى صفها تدافع عنها، وتقرر فى حزم أن يوما واحدا بل أقل يستطيع أن يحول حياة أية امرأة إلى النقيض، شعرت وكأنك تقصدنى بما قلت، فاستشعرت نحوك الشكر والامتنان، إذ قدرت أنك تدافع عنى.. فكان هذا حافزا لى على أن أفضى إليك يمكنون سرى، فتخف عنى وطأة ذلك الماضى، وينزاح ذلك الإثم الذى يلاحقنى وتقضى ذكراه فى غير رحمة أو هوادة .. حتى إذا ما قدر لى يوما من الأيام أن تطأ قدمى قاعة اللعب التى كانت يوما المحور الذى تحولت فيه حياتى، دخلتها بون أن أستشعر حقدا على نفسى أو على ذلك الشاب.

«نعم ، جال بخاطرى أن اعترافى سيكون بمثابة المسوح الذى يطهرنى ويرفع عنى ذلك العبء الجاثم فوق صدرى، فينزاح عنى إلى غير رجعة .
إننى أشعر الآن بالهدوء والطمأنينة والسعادة تغمرنى بعد أن سنحت لى الفرصة فقصصت عليك قصتى، فقد نفست عن نفسى وأوشكت أن أستشعر الهناء وراحة البال.. فشكرا لك من أعماق القلب ..».

ونهضت عن مقعدى إذ أدركت أنها قد أنهت قصتها، وحاولت فى حياء أن أسرى عنها .. ويظهر أنها فطنت إلى ما جال بخاطرى فقالت على الفور:
- أرجو أن تلوذ بالصمت .. لاتجاملنى ولا تعقب بقول، فشكرا لك من أعماقى وقد اتسع صدرك فأصغيت لقصتى .. رعاك الله ..!

* * *

وكانت قد انتصبت واقفة وقد مدت يدها لتودعنى، وتطلعت بون قصد

منى إلى صفحة وجهها، فإذا أسارير هذه العجوز التى صبغها الحياء والحرّج تشير الرثاء فى نفسى والشفقة والعطف فى قلبى .. وفجأة اكتسى ذلك الوجه الذى تتوجه هالة شعرها الأبيض بحمرة محتقنة .. ترى هل كان ذلك صدى لجنوة العاطفة التى خبت، أم كان مظهرا من مظاهر الارتباك، حتى لقد ذكرتني بالفتاة التى تذكىها ذكرياتها فتضطرب فى خفر وتشعر الحرج فى اعترافها .

وشعرت بشتى الأحاسيس، وراح الانفعال يسرى فى كيانى دون وعى منى، وشملتني رغبة ملحة طاغية فى أن أظهرها بما أحمله لها من توقير وتقدير، فارتج، علىّ، وغاص الكلام .. ولم أجد أمامى سوى أن أنحنى لها فى إجلال واحترام بالغين، وأن أطبع قبلة تقدير على اليد المغضنة الممدودة إلىّ والتى راحت ترتجف وكأنها ورقة من أوراق الشجر تعصف بها رياح الخريف .

جنون الحب



جنون الحب

شخصيات الرواية

ماتيلدا : حسناء وزوجة محام وأم إيدجار

إيدجار : غلام ابن ماتيلدا

البارون : شاب ثرى وجيه

الفصل الأول

البارون الوسيم

أخذ القطار يتهاذى حينما اقترب من «سيمرنج»، ذلك المصيف الجبلى لمدينة «فيينا» والذي يقع على ربوة منبسطة خلعت عليه طابعا خاصا من السحر والجمال، وكان القطار يرسل صفيـره معلنا قرب الوصول، وإن هى ألا دقيقة حتى كان القطار قد استقر بعرباته الداكنة على رصيف المحطة، وقد أضفت السماء لونا فضيا على الكون، وراح المسافرون يتدافعون ويتزاحمون فى صعود وهبوط، وقد علت أصواتهم فى صخب مثير .. حتى إذا حان الوقت لكى يستأنف القطار مسيره، انبعث صفيـره ثانية ثم تحرك وقد جذب خلفه العربات تباعا، فراحت ترسل ذلك الصوت المتتالى .. وما هى إلا لحظة حتى غاب من مرأى العين، إذ كان قد دلف إلى النفق، ولم يعد هناك أثر لجلبة أو وضوء، وران الهدوء على المكان وصفا جوه بعد أن انجاب عنه الدخان .

وكان ممن هبطوا من القطار، شاب جذب إليه الأنظار بأناقته هندامه ورشاقته مشيته الطبيعية فى غير تكلف، واسترعى النظر أن الشاب بادر إلى عربة نقله إلى الفندق، وراح الجوادان يجران العربة على مهل ويصعدان بها الطريق الجبلى .. كان ذلك فى فصل الربيع، والنسيم ينعش النفوس، وقد تخللت السماء سحب بيضاء .. تلك التى لا ترى إلا فى ذلك الفصل من السنة، وقد راحت تتسابق وتتلاحق بعضها فى أثر بعض، وكأنها أسراب من الحمام المتدافعة فى صفحة السماء الزرقاء، ولا تلبث أن تحتجب عن الأعين خلف الجبال الشاهقة .. وأنها لتتدافع ثم تفترق متجمعة حيناً ومتفرقة حيناً آخر، وأخيرا تحط الرحال فوق قمم التلال فتتوجها بهالات بيضاء، كأنها تنف من القطن المنقوش، وزمجرت الرياح فى عنف، فتراقت أمامها الأشجار التى كانت قطرات المطر لاتزال عالقة بها فراحت حباته تتناثر وكأنها فصوص براقـة من البلور، وأخذ عبير الجليـد يشيع فى الجو فحات من النسيم علية يستنشـقها الإنسان فتتـعشه وإن كانت لاذعة البرودة

فى الوقت نفسه، وبالجملة كان الكون بأرضه وهوائه وسمائـه دائب الحركة فى نشاط مستمر، وإذ وصل الجوادان إلى نهاية الطريق الصاعد انطلقا يجريان فى سهولة وخفة يطرق الأسـماع وقع سناـبـكـهما .

وعنى الشاب حين وصل إلى الفندق بتصفح سجل أسماء النزلاء، وإذ فرغ من ذلك استـشعر خيبة أمل كبيرة وتجهـم وجهه وراح يتساعـل فيما بينه وبين نفسه وقد برم بنفسه وتملكه قلق مـرير :

– لماذا جئت إذن ؟ .. إن وجودى هنا وحيدا دون صحبة أو متعة لأشد وطأة على النفس من ممارسة العمل .. ولعلـى لم أتـخير الوقت الملائم لحضورى .. إن سوء الحظ يلازمـنى دائماً فيما أهينـه لنفسى من فرص الترفيه.. وجميع النزلاء غرباء عنى، ولو كان من بينهم بعض النساء لكان ذلك مبعثاً لتسلية أو لهو أو استمتاع حتى فى أبسط الصور وأكثرها براءة، لكيلا تنقضى تلك الأيام السبعة فى وحشة موحشة ووحدـة ثقيلة على النفس.

كان ذلك الشاب «بارونا» من نبلاء النمسا، حظى بمركز مرموق فى أحد المناصب الحكومية .. فقد كان موظفا كبيرا فى إحدى الوزارات، وقد حفزه على أخذ هذه الإجازة أن زملاءه جميعا قد انتهـزوا فرصة ذلك الفصل البديع، فصل الربيع، فحصلوا على إجازاتهم .. فلم يشأ أن يشذ عنهم، وأن يتخلـى عن حق له، ورغم أنه كان ينزع إلى الهوى، فإنه كان اجتماعيا بالسليقة .. ولهذا كان محبوبا فى كافة المجتمعات، وله فيها مركز مرموق، وكان يضيق بالعزلة ويبرم بالوحدة فكان يتحاشى ذلك قدر استطاعته، فلم تكن به حاجة إلى أن يستزيد من معرفة نفسه، بل كانت تلج عليه الرغبة فى الاندماج بالناس والاختلاط بهم، لـكى يتسع أفق مداركه، ولكى يشبع نزوات نفسه ليشبع الدفء فى قلبه .. وكان يعتقد أنه لو جنح إلى العزلة لصار تافها، وفقد – اجتماعيا – كيانه وحيويته !

ولم يكن بردهة الفندق أحد .. فراح يذرعها فى ضجر وضيق واستياء، وأخذ يتناول الصحف واحدة بعد واحدة يتطلع إليها نون أن يقرأ إحداها، أو يتسلى بالعزف على «البيانو» فى قاعة الجلوس فيعالج أحد الألحان فى غير مهارة .. إلى أن ضاق بنفسه فاستلقى على مقعد فى أحد الأركان فى ضجر وبرم، وراح يتأمل الظلمة التى أخذت تخيم على المكان والضباب الذى يتخلل الأشجار تنفثه فى شكل بخار وردى .. فمر به الوقت فى ملل، وقد أرهف حسه وتوترت أعصابه، فميم شطر قاعة الطعام ودلف إليها .

وكان الكثير من الموائد لايزال شاغرا، فقد انتثر أفراد قلائل على بعض الموائد .. فأجال البصر فى نظرة خاطفة .. نون جوى، فلم يكن يعرف أحدا من الجالسين، إلا شخصا واحدا ، انتحى ركنا قصيا وحياء فرد التحية فى غير مبالاة .. عرفه مصادفة، فعرف فيه أنه من أولئك الذين يسرفون فى إرضاء مزاجهم، ولم يطالعه وجه امرأة واحدة يمكن أن يأمل فى أن تكون له معها مغامرة ولو عابرة، فاستبد به الضيق .

وكان البارون يحظى بقسط وافر من وسامة الوجه، حتى لتجعله هذه الوسامة قبلة أنظار النساء ومطمعا للكثيرات منهن والاندماج فى مغامرات غرامية كثيرة، وقد أوتى موهبة اللباقة فكان ينجح فى كل مغامرة، وكان ممن لايرتج عليهم فى موقف من المواقف، فقد حصنته موهبته وسرعة بديهته. يمضى فى حياته ينتقل من صيد إلى صيد، لا تقلت منه فرصة ولا يمنى بالفشل فى مغامرة ؛ لأنه كان يركز نظرتة الثاقبة الأولى فى أنوثة المرأة وأغوار الأحاسيس الجنسية فى قلبها، نون ما نظر إلى مركزها ومكانتها، وعما إذا كانت زوجة صديق أو خادما أو غسالة !

وحين يعبرون عن ذلك الطراز من الرجال فى النمسا بأنهم من «غواة صيد النساء» ويصفون ذلك الأمر بالوضاعة والزراية، فإنهم يفعلون ذلك على سبيل المدارة، وبدون أن يدركوا ما يحمله تعبيرهم من حقيقة واقعة؛ لأن

جميع مميزات هذه الهواية ولوافعها وغرائزها من تلهف وفورة، وما تستلزمه من عقل يعمل فى قدرة خارقة .. يتفاعل كل ذلك فى تصرفاتهم وفى أسلوبهم الخلاب المعسول الزاخر بالإغراء وإطراء المفاتن، فهو بمثابة الشباك التى يسهل بها الإيقاع بالنساء واستسلامهن.. تتملك هؤلاء الرجال نزوة جامحة عارمة، وشهوة تختلف فى جوهرها عن العواطف النبيلة السامية، أبعد ما تكون عن عاطفة الحب وأقرب ما تكون من شهوة المقامرة، شهوة ساكنة كامنة تقدر الأمور ولكنها فى نفس الوقت تودى بصاحبها إلى مواطن التهلكة، وليس بمستغرب أن نرى بعض هؤلاء الرجال قد أوتى عنادا فى الطبع وصلابة مراس وصبرا لا ينفد وطول أناة .. فشاغلهم الشاغل هو ارتقاب المغامرة، فلا يفلتون دقيقة من يومهم بون أن يسعدوا بلذة حسية ولو بسيطة.. أو نظرة خاطفة أو ابتسامة هادئة أو لمسة بالقدم أو الساق أثناء الجلوس ، فلا تخلو أيامهم من أمثال ذلك، وكأن هذه الحوادث العابرة هى المعين الذهبى ومنبع روح حياتهم، ينهلون منه فى نشوة ومنتعة فيذكى نار الوجد والصبابة فى نفوسهم .

وهكذا وجد البارون نفسه وسط أناس ليس بينهم امرأة واحدة، ولو إحدى الزميلات، فتناول صحيفة وراح فى برم يشخص فى سطورها بون أن يعى شيئا مما حوته.. فقد كان فكره مشتتا كالمخمور لا يفهم معنى للكلمات، وعلى غير توقع سمع حفيف ثوب من خلفه، وصوتا ينم عن غضب يقول فى لهجة متراخية خفيفة بالفرنسية :

- اسكت يا «إدجار» .. كفى ذلك .

وشعر بحفيف الثوب الحريري، وهو يحثك بطرف مائدته، ورأى سيدة قارعة القوام، بارعة الجمال، تزخر بفتنة طاغية يتبعها طفل صغير نال منه الشحوب يرتدى سترة مخملية داكنة اللون، فرمقه بنظرة فضول، وجلست السيدة والطفل قبالتها إلى مائدة أغلب الظن أنها كانت قد احتجزتها، وخيل

إليه أن الطفل كان يبذل جهدا فى التشبث بالهدوء فى الوقت الذى كان القلق يعتمل فى داخله فتنتطق به عيناه .. أما السيدة - وقد أضحت موضع اهتمام البارون- فقد كانت ثيابها غاية فى الأناقة، كما كانت من ذلك الصنف من النساء الذى يميل إليه بجوارحه، فقد كان قوامها ممشوقا وجسمها ممتلئا ملفوفا فى غير اكتناز .. فكانت بالإضافة إلى فتنتها ووسامة وجهها مثالا رائعا للجمال، وكان قد تم نضجها، فحلا له قطافها.. وبدت مرهفة الحس متوترة الأعصاب، بيد أنه تبين جليا أنها كانت تحاول التغلب على انفعالها وإخفاءه وراء قناع من الأسى والاكتئاب !..

ولم يكن فى استطاعة البارون ، فى مبدأ الأمر، أن يلقى نظرة فاحصة على عينيها .. بيد أن حاجبيها قد راقا له وقد استدارا فى نسق بديع، وهما يكادان يلتقيان فى رفق وخفة فوق أنفها الدقيق، وهو طابع يتميز به العنصر اليهودى وقد أضفت هذه الوسامة وذلك الجمال على الوضع الجانبي لوجهها فتنة تخلق اللب وتجذب القلب. ومن الإنصاف أن نقرر أن شعرها كان رمزا لفتنة الأنوثة يذكى فى النفس شتى الأحاسيس، وكان اعتدادها بجمالها وبأنها قبلة الأنظار وموضع الإعجاب يملؤها زهوا بنفسها فيضفى ذلك على سحرها هيبة ضافية .

وطلبت السيدة الطعام بصوت يكاد لا يسمع، ثم تحولت إلى الطفل فشددت عليه أن يتمسك بأداب المائدة وأن يلتزم الهدوء .. إذ كان قد أخذ يعبت بالشوكة التى أمامه محدثا بها صوتا لا يليق، فعلت السيدة ذلك دون أن تأبه بنظرات البارون الفاحصة المختلطة فى حذر وبون أن تكثر له .. بل لقد بالغت فى تحفظها، فتظاهرت بأنها لا تفتن إلى وجوده، وإن كان اهتمامها خفية إلى نظراته هو الذى دفعها إلى ذلك التحفظ الذى انطوى - فى الواقع - على اهتمام من جانبها .

وبغثة تغير الحال، واكتسى وجه البارون بإشراقه وضاءة، وزايله
التجهم.. واستيقظت أعصابه بعد استكانة، وأضاء جبينه ونأت عنه التجاعيد
التي كان قد خطها الضجر، ونشطت عضلاته واستعادت حيويتها فاعتدل
قوامه وتآلفت عيناه .. فكان كامراً ما إن رأت رجلاً حتى جهدت في إبراز
مفاتها وسلطانها، لقد كان «طاقة كامنة» في حاجة إلى ما يحفزها فتنتطق
في اندفاع ونشاط .. إنه وقع على الصيد فلمعت عيناه بذلك البريق
السحري، وراحا تتحديان نظرات المرأة وتتصديان لها .. والتقت نظراتهما
بين الحين والحين، خاطفة تنم عن اضطراب وتردد وقلق، دون أن يستشف
منها جواب صريح .. وخيل إليه أن ابتسامة كادت ترسم على شفثتها،
فاستبدت به الحيرة لهذا الغموض، وكاد الأمل يخبو في نفسه اللهم إلا ذلك
الشعاع الذي كانت ترسله عيناها من نظراتها إليه، والذي استشف منه
مبلغ ما تعانیه من حيرة وارتياب ومقاومة، واتضح له أن التحفظ واصطناع
الهدوء اللذين التزمت بهما كانا يفضحان شعورهما بالقلق والضيق .. وانتابته
حالة من الانفعال، فها هو ذا يرى أمامه الصيد، فجاهد ما استطاع لكي
يبتكأ في تناول طعام العشاء ليطيل من بقاءه، وظل شاخصاً إليها ببصره لا
يحول نظره عنها نصف ساعة، وكأنه يرسم في لوحة خياله كل صغيرة من
دقائق وجهها ويلمس بمشاعر الحس كل قطعة من مفاتن جسمها الزاخر
بالحيوية والجاذبية والأنوثة .

ولفت الظلمة الفضاء، فأخذت الأشجار تتمايل وتتراقص، وراحت
أوراقها ترسل حفيفها متواصلاً - كأنها رتل من الأطفال الصغار استولى
عليهم زعر شديد - تحت وطأة الريح والمطر، وراحت الظلمة تتسلل إلى قاعة
الطعام رويداً، وران الصمت فاشتد الضيق بالرجال، وغدا حديث الأم
لطفها أكثر اصطناعاً وأوضح تكلفاً، وأدرك البارون بالغريزة أنه لن يلبث
أن ينتهى، فأذكى نشاط تفكيره واستقر رأيه على القيام بعمل إيجابى،

فنهض عن مائدته، وكان أول من أقدم على ذلك، وسار فى خطوات بطيئة متناقلة صوب الباب، وحين صار فى محاذاة السيدة ألقى ببصره إلى الردهة فى تعمد ظاهر، كأنه يوحى بشيء .. ثم استدار والتفت خلفه بغتة وكأنه نسى شيئاً، فلمحها تنظر وتتأمل بنظرة اهتمام !..

وتلكأ فى الردهة وانتظر قليلا .. وسرعان ما وجد السيدة قد أقبلت والطفل متعلق بيدها، ثم رآها تتناول بعض المجلات وتقلبها وتعرض على الطفل بعض الصور والرسوم، فاتجه إلى المنضدة التى كانت المجلات فوقها، وكأنه يهم بأن يتناول هو الآخر إحداها، بيد أنه فى الواقع كان يسعى وراء هدف آخر، إذ كان يريد أن ينفذ إلى أغوارها من أعماق عينيها، ولعل هاتفا أهاب به أن ينتهز هذه الفرصة فيبادلها تحية أو حديثاً، بيد أنها استدارت عنه حين رآته مقبلاً نحو المنضدة، وقالت للطفل وهى تربت على كتفه :

- حان موعد النوم يا «إدجار» .. فهيا إلى الفراش ..

ومضت لا تلوى على شيء، فشعر البارون بالمرارة وخيبة الأمل حين رآها تنصرف على هذه الصورة، فقد كان يتمنى ويتوقع أن تربطه بها أواصر المعرفة فى تلك الليلة، ولكن انصرافها المبغت أيقظه من أحلامه وأمانيه.. بيد أنه استشعر لذة ونشوة فى ذلك الإعراض والتمنع، فقد أخذه على أنه نوع من الدلال الذى تختص به الجميلات من النساء، وألهبت الحيرة والغموض أحاسيس البارون وأشعلت شوقه وزادت لهفته، فقد شعر بأنه وجد ضالته التى يستطيع أن يذهب معها فى مغامرة !..

الفصل الثانى

مفتاح المفامرة

وحين جاء اليوم التالى، ودلف البارون إلى القاعة، رأى طفل فانتته يتحدث إلى غلامى المصعد فى صوت واضح، ويطلعهما على صور فى كتاب يحمله، ولم تكن أمه معه، ولعلها كانت حينذاك تضع الرتوش الأخيرة فى زينتها .. فأخذ البارون يتأمل الطفل مليا وعن كثب، فرآه حيا تشوبه حمرة الخجل ويبدو ثائر النفس والأعصاب وبدا له أن نموه الجسمانى غير طبيعى، فقد كان ضئيل الجسم بالنسبة لعمره الذى يناهز الاثنى عشر عاما .. كما كان بطئ الحركة فى بلاده، عينا غائرتان مكتحلتان، يبدو عليه الفزع كأنه انتزع من أهله ليعيش مع شخص غريب، بينما اكتسى وجهه بمسحة من جمال، وإن كان لم يستكمل معالمة، وقد ظهرت على صفحته آثار فترة الانتقال من الطفولة إلى الرجولة فى أولى مراحلها .. فكان كالعجينة التى لم تتشكل بعد، فليس هناك معالم تميزها، وكانت ملابسه فضفاضة لا تتلاءم مع ضالة جسمه، وليس لدى الأطفال فى هذه السن ما يدفعه أو يحفزهم إلى التماس التأنق فى مظهرهم !..

وكانت تصرفات الطفل وتنقله من مكان إلى مكان - دون هدف أو غرض - يثير الرثاء والإشفاق، وكان الجميع يرمون ويضيقون به ذرعا .. فهو يثير ضجر البواب حين يلح عليه بالأسئلة فيضطر إلى إبعاده عنه، وفى بعض الأحيان يعترض الداخلين والخارجين عند باب الفندق فيبعث الضيق فى نفوسهم .. على أنه كان جليا أنه كان يتوق إلى وجود صديق يؤنس له .. فكانت ميوله الصبانية للكلام والثرثرة تدفعه لإشباع رغبته إلى التماس ذلك مع الخدم والتقرب منهم، فكانوا يجيبون على استفهاماته وثرثرته كلما سنحت لهم الفرصة، بيد أنهم كانوا يناؤن عنه ويقطعون حديثهم معه إذا مر بهم أحد الرجال أو إذا اقتضاهم العمل ذلك .. وراح البارون يرقب فى شغف واهتمام تعلق وجهه ابتسامة ناعمة، أمر ذلك الطفل التعس الذى كان

لا يتورع عن الإقدام على أى شىء بدافع الفضول، فكان الجميع يتهربون منه فى شىء من الكراهية .

وتطلع الطفل إلى البارون فى نظرة فضولية، والتقت نظراتهما لحظة .. وأدهش البارون أن يرى عينيه الصغيرتين السوداوين ترتدان فى هلع وفزع، لا لشىء سوى أنهما شعرتا بأنهما ضببتا تتطلعان، فأغمض الطفل عينيه على الفور، وراق للبارون ذلك التصرف من جانب الطفل، فراح يهتم بهذا الطفل الذى كان الوجل دون شك مبعث حياته وخجله، وقفزت إلى ذهنه فكرة. فأخذ يتساءل :

- أليس من الممكن أن يجعل من هذا الطفل همزة الوصل بينه وبين فاتنته النافرة ؟ .. إنها فكرة يجمل به أن يحاولها .. وراح ، وهو يتظاهر بأنه يسير عفوا فى غير تعمد، يتعقب الطفل الذى انطلق نحو الباب وأخذ يداعب جوادا ويربت على رأسه ويتحسسها فى عطف جميل وحنان كبير، فنهره الحوذى وأبعده فى فظاظة .. فأخذ الطفل يتنقل من مكان إلى مكان، وقد استبد به الضيق فأكفهرت عيناه وزايله المرح واكتسى وجهه بمسحة من الأسى والكآبة ، وعندئذ تقدم منه البارون، وسأله فى بشاشة اصطنعها :

- هل تطيب لك الإقامة هنا ...؟

فاشتد حياء الطفل ، وعلت وجهه حمرة الخجل، وأخذ يحملق فى البارون بقلق، وقد ألم به خوف شديد .. فضم يديه إلى جانبيه، وحرك رأسه يمنا ويسرة فى ارتباك ظاهر .. فقد كانت هذه أول مرة - كما يلوح - يتحدث إليه فيها شخص لا يعرفه .. وبعد فترة قال الطفل :

- نعم يا سيدى .. شكرا .

وكان هذا غاية ما استطاع النطق به، حتى لقد نطق بالكلمة الأخيرة فى عناء بالغ ..

فقال البارون وهو يضحك لكى يسرى عن الطفل ويترد عنه الخوف :

- عجيب ما تقول .. فإن هذا المكان يبعث السأم لفتى مثلك .. كيف تقضى ساعات يومك ؟

وكان الفتى لا يزال على حاله من الاضطراب الذى أعجزه عن أن يرد عن سؤاله بجواب حاضر .. ولعله لم يصدق أن سيدا كالبارون - ذا شخصية بارزة - وليست له به صلة قرابة أو معرفة ، يتبسط فى التحدث إليه وهو الذى لم يفكر أحد فى الاهتمام به ، بل على العكس كان الجميع يبتعدون عنه وينفرون منه ، وزادت هذه الفكرة من خجله ، ولكنه استشعر الزهو فى الوقت ذاته .. واستجمع شتات أفكاره فى عناء وقال :

- إننى أقضى بعض الوقت فى القراءة ، وأحيانا أترى سيرا على الأقدام ، وأحيانا أخرى أخرج مع أمى للنزهة فى عربة .. لقد جئت إلى هذا المكان للنقاها ، إذ كنت مريضا .. وقال الطبيب إن أشعة الشمس تساعدنى على أن أستعيد صحتى ..

وقد نطق الفتى بالكلمات المتعلقة بالنقاها والمرض وإشارة الطبيب وهو يشعر باعتداد وثقة فى نفسه ، فإن الأطفال يهولون دائما من شأن المرض ، إذ يدركون أن ذلك يدفع أهلهم إلى مضاعفة الاهتمام بهم .. وعلق البارون على كلام الفتى قائلا :

- أنا لا أنكر ما للشمس من فائدة لك ، بيد أنها قد تضى على جسمك المعرض لها بعض السمرة .. لذلك ينبغى ألا تطيل البقاء تحت وهج أشعتها ، وأنه لأحرى بك أن تمارس رياضة الجرى وأن تكون أكثر إقداما ومجازفة لأن ذلك يجدد حيويتك ويضاعف نشاطك ، فإننى أراك أكثر هدوءا مما ينبغى ، وإنك كالقزم إلى جانب ذلك الكتاب الضخم الذى تحمله ، وكم أقدمت على سخافات وأنا فى مثل سنك ، حتى لقد كنت أعود إلى المنزل كل مساء وقد تمزقت ملابسى ، فليس من الحكمة أن يتمسك الأطفال بالهدوء والرزانة .. !

وانفجرت شفتا الفتى بابتسامة عذبة ، وما لبث أن زايله الشعور بالخوف والحياء .. وتمنى أن يرد على حديث البارون ولكنه فكر فى أن ذلك ما يتنافى مع قواعد الأدب ، وأن ذلك قد يعتبر جرأة منه واندفاعا أمام هذا الرجل الوسيم المهذب الرقيق المشاعر الذى لا يعرفه ومع ذلك يحدثه بلهجة زاخرة بالعطف والحنان .. كما لم يسبق له أن تورط فى موقف كهذا .. فلقته الحيرة ، وتضافر شعوره بالسعادة والغبطة مع الخجل الذى يعتريه فأنثارا الاضطراب فى نفسه ، وتمنى لو أن حديث الرجل لا ينتهى لأن الإجابة أعوزته ، وأنقذه من هذا المأزق أن كلب الفندق الكبير أقبل وراح يتشمم الرجل والفتى وقد أنس لمداعباتهما ، فقال البارون :

- أتميل إلى الكلاب وتحبها ؟

فأجاب الفتى على الفور :

- أحبها جدا .. إننا نقضى الصيف عند جدتى فى دارها ببلدة «بادن» بالقرب من «فيينا» ، ولديها كلب أليف لطيف يأبى إلا أن يلازمنى طول الوقت ..

فقال البارون ، مبالغة فى التودد إلى الفتى ، وليبعث فى نفسه الغبطة والطمأنينة :

- وكذلك نحن .. ففى ضيعتنا عشرات وعشرات من الكلاب الثمينة النادرة من مختلف الأنواع ، وسأهديك واحداً منها ذا لون ذهبى وأذنين متدليتين جميلتين ، صغير السن .. فهل يروق لك ذلك ؟

وكاد الفتى يطير من الفرحة ، وتورد وجهه ، وطفحت أساريره بالبشر على الفور وكأنه يتحرق شوقا للحصول على الكلب فى التو واللحظة :

- كم يسرنى ذلك .. !

وبعد تفكير قليل ، استشعر بعض الخوف فأردف يقول :

- ولكن ماما تعارض فى ذلك ، وتقول إن الكلاب مصدر للمتاعب والمضايقات ..

وشاعت ابتسامة على وجه البارون حين تدرج الحديث إلى الأم فقال :
- وهل والدتك حادة الطبع هكذا ؟ ..

ففكر الفتى قليلا قبل أن يجيب .. ولعله كان يفكر فيما إذا كان من الصواب أن يتحدث عن أمه أمام شخص غريب ، وأخيرا قال فى شىء من التحفظ :

- أمى ليست حادة الطبع أو قاسية ، فإنها تتساهل معى كثيراً ولا ترفض لى مطلباً .. لأننى مريض وفى دور النقاهة ، وربما سمحت لى باقتناء كلب .

- هل أطلب منها أن تلبنى لك هذه الرغبة ؟ ..

فشاعت الفرحة على أسارير الفتى ، وهتف قائلاً :

- آه .. أرجو أن تبادر إلى ذلك ، فإنها ستوافق على الفور ، ما فى ذلك ريب .. صفه لى .. هل هو أبيض الأذنين؟ .. وهل فى مقدوره أن يلتقط الكرة ويعود بها إلى إذا قذفتها أمامه ؟

- إنه كذلك .. ففى استطاعته أن يفعل كل شىء ..

وأضاء وجه البارون بابتسامة الرضى ، إذ رأى عيني الفتى قد تألفتا ، فأمكنه بذلك أن يطرد الخجل الذى كان مستولياً عليه وانطلق الانفعال الذى كان مكتوماً تحت وطأة الخوف .. وإذا بذلك الطفل الذى كان يزرع تحت وطأة الخجل والخوف والاضطراب يتحول إلى فتى يطفح بالبشر والطمأنينة والحيوية ، فراح البارون يقول لنفسه : « ليت الأمر كان كذلك مع أمه .. ليتها تخفى وراء هذا الحذر والتحفظ ، عاطفة ملتهبة كهذه ! ».

وراح الفتى يطره بوابل من الأسئلة :

- ما اسم ذلك الكلب ؟ ..

- لكى ..

- لكى .. إنه اسم جميل ..

وأخذت الفتى نشوة من السرور والفرح فراح يضحك ، وازدهاه هذا الأمر الذى لم يخطر له على بال .. فأمامه شخص يتبسط معه فى الحديث فى حذب وعطف ، بل يوليه اهتماما لم يكن يتوقعه ، وشعر البارون بالزهو لهذا التوفيق ، فقرر أن ينتهز الفرصة ولا يدعها تفلت من يده .. فدعا الفتى إلى نزهة فى صحبته ، فطار الفتى فرحا بهذه الدعوة ؛ إذ كان يعاني وحدة قاسية ويتوق إلى أن يكون له رفيق يؤنس ، فراح يتحدث فى صراحة وبراءة الأطفال إلى هذا « الصديق » بكل ما يريد أن يعرفه عن طريق الأسئلة التى بدت وكأنها من وحى الساعة .. وبعد فترة قصيرة كان البارون قد ألم بكل صغيرة وكبيرة عن أسرة الفتى ، فعرف أنه وحيد أبيه المحامى فى « فيينا » وأنه ينحدر من سلالة يهودية ومن طبقة موسرة .. كما عرف أن الأم تضيق بالإقامة فى « سيمرنج » وأنها تتوق إلى صحبة محبة .. وانتهز البارون هذه الفرصة ، فسأل الفتى عما إذا كانت علاقة أمه بأبيه على وفاق وصفاء .. وقد أجاب بأنهما ليسا على وئام تام .. !

واستشعر البارون الخجل من نفسه لتحاييله لمعرفة هذه الأسرار العائلية من الفتى بمثل هذه البساطة والسهولة .. وليس بعجيب أن الفتى كان يشعر بزهو بالغ لأن حديثه وقع موقع الاهتمام من شخص كبير ، فلم يخف شيئا عن ذلك الصديق ، وغمره الإعجاب بنفسه لأن الناس يرونه فى صحبة وثيقة مع شاب كبير ، فقد شمله البارون بمزيد من العطف بأن وضع ذراعه على كتف الفتى أثناء نزهتهما ، وهكذا شيئا فشيئا ، نسى الفتى فارق السن بينه وبين البارون ، وأنه ليس سوى فتى صغير .. فانطلق فى الحديث فى براءة الأطفال دون تحفظ ، وكأنه يتحدث إلى ولد صغير مثله .. !

واستشف البارون من حديث الفتى أنه يتمتع بقسط كبير من الذكاء وسرعة البديهة ، بل إن عقله أكبر من سنه ، وتفكيره يرقى إلى مرتبة كبيرة من الرجاحة .. شأنه فى ذلك شأن الفتية الذين تعترتهم أمراض أو علل ، أو الذين يختلطون بمن هم أكبر منهم ، فقد كان مندفعاً فى عواطفه أياً كانت هذه العواطف - سواء فى ذلك ما ينطوى منها على حب أو كراهية - فلم يبد عليه اعتدال أو اتزان فى واحدة منها ، فكان إذا تحدث عن شخص ما اندفع فى إظهار الحب له أو كراهيته فى تحمس وعنف ، وتتجلى انفعالاته على حركاته وأساير وجهه ، فتنبسط حين يتحدث عن عاطفة الود وتتجهم عند التحدث عن البغض والكراهية .. ولعل ذلك من مخلفات المرض الذى كان قد ألم به . وما كانت تصرفاته المتطرفة سوى شعور بفزع مكبوت إزاء عواطفه المضطربة التى كان يجد عناء كبيراً فى كبحها ..!

وبعد فترة تقل عن الساعة ، كان البارون قد ملك زمام هذا القلب الصغير الملهب المضطرب .. فما أسهل خداع طفل ساذج وبخاصة إذا كان قد لقى نفوراً ممن حوله ، وتحدث البارون عن ماضيه هو أيام كان طفلاً ، فلم يسع الفتى إلا أن يعتبره صديقاً ورفيقاً ، وغمرته السعادة لعثوره فى هذا المكان النائى على صديق عطوف وود ، أنساه من خلفهم من رفاق صغار فى «فينا» بأصواتهم الطفلية وثرثرتهم الفارغة ، حتى لقد انطمست من ذاكرته صورهم وذكراهم ، فاندفع بكليته وبمشاعره وعواطفه نحو ذلك الصديق الكبير .. وأفعم بالزهو والإعجاب بنفسه عندما دعاه هذا الصديق لحظة افتراقهما إلى ملاقاته فى صباح اليوم التالى ، ثم وهو يرسل إليه التحية من بعيد كما يفعل الإخوة والأصدقاء الحميمون عند الوداع .. وقد كانت هذه اللحظة من أمتع وأسعد اللحظات عند «إيجار» ..!

وابتسم البارون ابتسامة ذات مغزى ، وهو يرمق الفتى الذى راح يعدو .. فقد عثر على مفتاح المغامرة وهمزة الوصل التى ينشدها ، وكان

على يقين من أن الفتى سيقص كل كلمة تبادلها على أمه ، وبخاصة ما يتعلق بتلك الأم وإطرائه على لباقتها وظرفها ، وقوى الأمل فى نفسه بأن الفتى سيوثق الصلة بين أمه وصديقه ، وبذلك يكون قد وفر على نفسه عناء السعى وراءها .. وراء فاتنته الحسنة ، ومن حقه أن يطمئن الآن ، وأن ينعم بأعذب الأحلام وأن يتأمل جمال الطبيعة ، وهو يعلم سلفا أن الفتى سيكون «القنطرة» التى ستوصله إلى قلب الحسنة .. !

الفصل الثالث

تآلف وانسجام

ثبت للبارون ، بعد ساعة واحدة ، أن الخطة التي أُنقِذَ رسمها سريعة الأثر ، فقد حالفها التوفيق جملة وتفصيلا .. وعندما حان وقت العشاء ، تأخر في دخول قاعة الطعام عامدا ، وما أن لمح الفتى حتى قفز عن مقعده وحياه في حماس وحرارة وقد طفحت أساريره بالبشر وتألقت عيناه .. وجذب ذراع أمه ، وتحدث إليها وهو يشير بيده إلى البارون حتى لاحظ الموجودون ذلك .. فتخضب وجه السيدة خجلا واعتراها ارتباك ظاهر ، فأنبت الطفل على ذلك الطيش ، ومع ذلك لم تستطع مقاومة الفضول ، فتطلعت إلى الناحية التي أشار إليها الفتى ، ترضية له ، فكانت هذه فرصة البارون الذهبية .. فحنى رأسه للسيدة في احترام بالغ ، وهكذا في سهولة وسرعة وبساطة اتصل خيط التعارف بينهما ، إذ اضطرت هي إلى رد تحيته في أدب ووقار ، وإن كانت قد حرصت بعد ذلك أن تميل برأسها ووجهها نحو صحاف الطعام ، وتجنبت في حرص وحذر الالتفات ناحية البارون ، أما الفتى فكان على العكس من ذلك ، فقد تعلق عيناه بصديقه لا تحيدان عنه ، بل لقد هم أن يخاطبه رغم بعدهما عن بعضهما ، فحنقت أمه لهذا التصرف المعيب وأنبت الطفل في عنف ، وعقب العشاء مباشرة طلبت إلى الفتى أن يأوى إلى فراشه ، فلاح الأسى على وجهه وتبادل معها حديثا هامسا ، سمحت له بعده أن يذهب إلى تحية صديقه .. وإذ وصل إلى البارون أخذ يلاطفه لبضع لحظات ، فعاد الطفل وعيناه تتألقان.

وبغته تحول البارون ببصره نحو مائدة الحساء في حركة رائعة ، وفي لباقة هناها - وقد اعتراها الارتباك - بذلك الابن الذي يتمتع بقسط كبير من الذكاء وسرعة البديهة ، ذاكرة بالغبطة والإطراء الوقت الممتع الذي قضاه في صحبته في الصباح . وقد تورّد وجه الفتى غبطة وزهوا وهو يستمع ، وأراد البارون أن يصل حبل الحديث ، فراح يطرق موضوع صحة الطفل مستفسرا عنها بعدد من الاسئلة ، مما اضطر الأم أن تجيب عنها ..

وهكذا اندمجا فى حديث طويل ، كان الفتى ينصت إليه فى غبطة وإن لم يحد عن قواعد الأدب والاحترام ..

وعندما قدم البارون نفسه إلى الحسناء ، لاح له أن فخامة لقبه ورنينه كان لهما صدى عميق الأثر فى نفسها .. فقد لاحظ أنها أخذت تعامله فى لباقة وتقدير رغم تحفظها ، وبعد فترة قصيرة استأذنت فى الانصراف مراعاة لصحة الطفل ، بيد أن «ادجار» عارض فى إلحاح ذاكرا لها أنه لا يشعر بأى تعب .. حتى أن باستطاعته أن يظل مستيقظا طول الليل حاضيا بتلك الصحبة ، ولكن أمه كانت قد بسطت يدها للبارون مودعة ، فقبلها فى احترام بالغ .. !

وتتازعت نفس الفتى فى تلك الليلة أحاسيس مضطربة من السعادة واليأس ، وعصفت بأفكاره ، فلم ينعم هادئا هنأ فقد جد فى حياته أمر لا عهد له به .. إذ بدأ يشعر أنه عامل مهم فى حياة أشخاص أكبر منه ، فجسم ذلك له من شأن نفسه ، واستشعر شيئا من الاعتداد بالنفس ، وكان محروما من الصداقة ، وقد نشأ فى عزلة وتحالفت عليه العلل والأمراض .. كما كان مفتقرا إلى العطف والحنان اللذين ينتظرهما من أبويه ، ولكن هذين الأبوين كانا فى شغل عنه ونادرا ما كان يحفلان به .. وقد درج الناس على الاستهانة بعاطفة الحب وأثرها وقوتها ، فينظرون إلى الحب من ناحية الموضوع ولا يهتمون بالحالة النفسية التى تسبقه ، والتى تكون عادة فى تلك الحقبة الموحشة التى تتخلف عن الوحدة والعزلة وخيبة الأمل والتى تمتد نتائجها إلى ما يصيب القلب من أحداث جسام .. فقد زخر الفتى بفيض من الأحاسيس الكامنة المعطلة والمتحفزة فى الوقت نفسه للانطلاق، فلما ظهر أول شخص على مسرح حياته وشعر بأنه جدير بها ، انطلقت تلك الأحاسيس دافقة .. !

وتنازع الفتى فى مخدعه المظلم شعوران متباينان : نشوة من السعادة وموجة من الحيرة .. ود أن يضحك ملى فمه ما وسعه الضحك ، واستشعر فى الوقت نفسه رغبة ملحّة فى البكاء .. إنه أحب البارون كما لم يحب أحدا من قبل .. حتّى أباه وأمه ، وتركزت جميع عواطفه وأحاسيسه ومشاعره فى شخص هذا الرجل الذى لم يكن يعرفه أو يعرف اسمه حتّى وقت قريب ، بيد أنه رغم ذلك كان على جانب من الفطنة والذكاء جعله لا يتهيب الغامض والمجهول ، ويهيب به أن يعتز بهذه الصداقة ، ولم يكن يثيره سوى شعوره بتفاهته وبالفارق الكبير بينه وبين صديقه ، حتّى لقد راح يسائل نفسه فى حيرة وقلق :

- هل أنا جدير بصداقته وأنا فتى لم أتجاوز اثنى عشر عاما من عمرى؟
لم أبداً بعد مناهل العلم ، أذهب إلى فراش النوم مبكرا شأن جميع الأطفال .. ؟ يا لمارتى .. ! ماذا يمكن أن أكون فى نظره ؟ .. وماذا أستطيع لكى يفيد منى .. ؟!

وحز فى نفسه ذلك القصور فى التعبير عن مدى اعتزازه وتعلقه بصديقه ، فقد كان يعبر عن ذلك فيما مضى باقتسام ما يملكه من طوابع البريد وأقلام الألوان إذا أسعده الحظ بصديق جديد ، وكانت تلك الهدايا غاية ما يملكه الطفل ويعتز به .. ولكنها تبدو الآن فى نظره تافهة القيمة تثير السخرية ، وكيف تطاوعه نفسه أن يقدم مثل هذه الاشياء إلى صديقه الكبير ؟ .. واستبدت به الحيرة بصدد الطريقة التى يعبر له بها عن مشاعر حبه له وأخذ الألم يتسلل إلى نفسه لشعوره بأنه لايزال فتى صغيراً لم تكتمل رجولته ، واشتد حنقه ، وتمنى لو أن معجزة وافته فرأى نفسه فى صباح اليوم التالى ، ذلك الصباح الذى دعاه فيه صديقه إلى لقائه ، وقد شب عن طوقه وأضحى قويا مكتمل الرجولة .. كثيراً ما راودته هذه الأحلام فى منامه .. !

وأخذت هذه الهواجس تتفاعل مع أحلام الفتى التى تتميز بها فترة النضج هذه ، فأخذ إلى النوم وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة ، ولما كان موعد صباح الغد قد أضحى شاغله الشاغل ، وقد فكر فيه كثيرا ، وينتظره بصبر نافذ .. فكان من نتيجة ذلك أن استيقظ قبل السابعة من صباح اليوم التالى حتى لا يتأخر عن مواعده ، وارتدى ملابسه فى خفة وعلى عجل ، ثم ذهب ليعانق والدته ويقبلها ، فدهشت للبهته ونشاطه وسرعته .. وقبل أن تستفسر منه عن سر هذا النشاط كان قد هروا نحو السلم ، وظل يروح ويغدو فى صبر نافذ مدة ساعتين ، وقد نسى تماما أو لعله أراد أن ينسى طعامه جاعلا نصب عينيه أن يلقى صديقه فى الموعد وأن يجنبه عناء الانتظار .. !

وفى منتصف الساعة العاشرة ، أهلت طلعة البارون وأقبل يتهادى على مهل لا يكتثر بما حوله ، وكان يعلق الآمال فى خياله على ذلك الموعد ويتمناه من وقت طويل ، وابتسم اذ رأى الفتى يعدو نحوه فى لهفة بالغة ، ثم رضى عن طيب خاطر أن يفى بوعده ، فأمسك بذراع الفتى وراح يتمشى معه ، وإن أبدى فى ترفق عدم الرغبة فى الذهاب إلى النزهة على الفور .. وبدا كأنه ينتظر أمرا ما ، فقد نمت عن ذلك نظراته التى راحت تتجه نحو الباب ترقبه فى قلق ، وبغثة اندفع بجسمه إلى الأمام ، وانحنى محييا الحسنة التى كانت قد أقبلت ، فردت التحية وسارت نحو الصديقين .. وابتسمت ابتسامة غبطة ورضا حين علمت بأمر النزهة التى حرص الفتى على اخفاء أمرها عنها ، وكأنها سر من الأسرار لا يجوز أن يبوح به .. وبعد شئ من الدلال والتردد ، قبلت دعوة البارون لمشاركتهما فيها .. !

وكان حريا بالفتى أن ينشرح صدره لمصاحبة أمه لهما فى نزهتهما .. ومن عجب أن ما حدث كان على النقيض من ذلك ، فقد تجهم وجه الفتى وعبس وجز على شفثيه ، وأضجره أن تحضر أمه فى تلك اللحظة .. لقد

كانت النزهة له ومعه فقط ، وإنه وإن كان قد قام بمهمة همزة الوصل ووصل المعرفة بين أمه وبين صديقه البارون ، فلم يكن ذلك إلا على سبيل المجاملة لها دون أن يشركها معه فى صداقته ، بل كان يريد أن يستأثر وحده بتلك الصداقة ، وأثار ذلك فى نفسه إحساسا بالغيرة ، وبخاصة حين لاحظ عبارات اللطف والمجاملة التى اختص بها البارون والدته .. وساروا - ثلاثتهم - فى طريقهم إلى النزهة ، وإذ رأى الفتى ما يبيده البارون من إقبال واهتمام وتلطف نحو أمه ، شعر باعتداد فى نفسه وبأنه شخص له نفوذه وقيمتة ، وبخاصة وقد كان الفتى موضوع حديث الاثنين معظم الوقت ، وكانت الأم تتحدث فى شىء من اللف والدوران عن شحوب الفتى وإرهاق حسه وتوتر أعصابه ، بينما راح البارون يبتسم وهو ينفى عن الفتى ما تذكره عنه أمه ، وأخذ يطريه ويبالغ فى الثناء على «صديقه» ، كما كان يدعوه ، واغتبط الفتى لذلك أشد الاغتباط إذ أصبحت له مزايا ومكانة وحقوق لم تكن له من قبل فى طفولته .. وسمح له أن يتكلم حين يشاء ، بعد أن كان الصمت مفروضا عليه ، وصار فى استطاعته أن يعبر عن رغباته التى كانت تقابل قبل ذلك بالزجر والتأنيب .. فليس بعجيب أن يذكر ذلك فى نفسه الشعور بأنه أضحى كبيرا ، وأنه تعدى طور الطفولة التى صارت فى نظره شيئا ولى ومضى ، وأنه تخلص منها إلى غير رجعة ..!

ودعت الحسنة البارون إلى الغداء ، فلبى الدعوة شاكرا .. وازداد تبسطها وتلطفها حين جلس إلى مائدتها ، وزالت الكفة بينهما ، ولم تعد صلتها مجرد الوجود متجاورين على الموائد ، بل اندمجا وتوثقت أو اصر المعرفة بينهما ، فأصبحا يجلسان وجها لوجه ، وتطور التعارف وتحول إلى صداقة ، فاكتمل عقد الثلاث ، وراحت أحاديث الحسنة والبارون والفتى تختلط وتمتزج فى تآلف وانسجام .. !

الفصل الرابع

فكرة شيطانية

أوحت لهفة البارون له أن الوقت قد حان للقطاف ، فما كان يرضيه أن يقف على عتبة زوال الكلفة بينه وبينها وصداقته لابنها .. ولو أن فى تبادل الحديث بينهم متعة شائقة له ، ولكن ذلك لم يكن غاية بغيته ، وكان يوقن أن أمور الحياة إذا لابستها الحيل ومناورات الغزل فإنها لا تؤتى الثمرة المرجوة فى أسرع وقت ، بل تؤخر الاحاسيس بين الرجل والمرأة .. وبخاصة إذا كان الحديث فى غير حرارة واقتحام الميدان باردا غير ملتهب ، لذلك أثر أن يضيق رقعة الاحاديث التى يتناولونها حتى لا تغيب عنها حقيقة ما يرمى إليه .

ومال إلى الاعتقاد بأن لهفته على بلوغ نهاية الشوط ستؤتى ثمرها عاجلا، وكانت هى فى تلك الفترة الحرجة من مراحل حياتها يساورها القلق والتفكير والندم ، لأنها ظلت على ولائها وفية لزوج لم تشعر نحوه بعاطفة حب ، وفى هذه الفترة بالذات يجنح جمالها إلى الغروب ، فتناوشها الهواجس بأنه ليس ثمة أمامها سوى فرصة واحدة وأخيرة ، هى فترة الصراع بين الزوجة الأمينة الوفية التى تعتز بشرفها وكرامتها وبين المرأة العابثة المستهترة ، بين الأمومة بمثلها العليا وبين الأنوثة بنزواتها الطاغية .. تجيء هذه الفترة فى الوقت الذى تكون فيه المرأة قد قطعت شوطاً كبيراً فى حياة الاستقرار ، فإذا شعورها بأنوثتها وما يلزم هذه الأنوثة من رغبة فى المتعة وقد استأثرا بكل تفكيرها .. وهنا تشوب البلبلة أفكارها ، وتناوشها الهواجس ، وتتأرجح كفة الإرادة بين الشهوة وبين الشرف والرضا ، وهذه أحسم اللحظات فى حياة المرأة لأنها تضطر إلى سلوك أحد الطريقين ..

فإما أن تعيش زوجة وأماً ، وإما أن تعيش «أنثى» .. !

وكان البارون ممن خبروا فنون النساء ، وممن نفذوا إلى أغوار أعماقهن، فعرف ما يعتمل فى دخائلهن .. فبدأ له هذا التردد الذى لاح على الحسناء بين الأمرين : إما التمسك بحياتها الراهنة الفاضلة ، أو التضحية ،

ولاحظ أنها كانت تتعمد دائما تجنب الحديث عن زوجها ، الذى يرجح أن أعماله ومشاغله خارج نطاق المنزل كانت تستغرق كل وقته .. كما استشف كذلك أنها لا تستشعر فى أعماقها حبا أو تعلقا بابنها ، وكانت عينا الطفل السوداوان تنمان عن ضيق كامن ، كان مبعث أسى يكدر صفو أمه .. وحزم البارون أمره وقرر أن يبدأ المغامرة على الفور بطريقة معسولة فيها كثير من الإغراء ، على أن يتظاهر بالاناة وعدم التسرع .. فتظاهر بعدم الاكتراث بهذه الصداقة بينه وبينها ، لأنه أراد أن يمكس بزمام الموقف ، وأن يكون هو المحور الذى تسعى هى إليه لا أن يكون هو الساعى .. يرمى من وراء ذلك إلى سحق كبريائها وإذلالها ، بإبراز الفارق الكبير بين مركزه الاجتماعى ولقبه المرموق وبين مركزها العادى ، فاتخذ من لقبه الرفيع وارسستقراطيته العالية سلاحا يمكنه من الوصول إلى هذا الجسم البديع المشوق المتفتح كزهرة الزنبق ، ثم قهر ذلك الجسم وغزوه بإظهار كبريائه مشفوعة بالفطور فى الاهتمام بها .. !

ولم تلبث هذه الفكرة الشيطانية أن طغت عليه ، فحزم أمره وفرض على نفسه التمسك بأهداب التحوط والحذر ، ولم يبرح غرفته بعد الغداء ، واستشعر عنوبة فى أن هناك من يفتقده وينتظره .. بيد أن هذا الاحتجاب المصطنع لم يكن موضع اهتمام لدى الحساء ، ولم يثر فى نفسها الرغبة فى رؤيته أو لقائه ، لأنه لم يكن قد شغل ذهنها حتى تظن أو تأبه لوجوده أو عدم وجوده .. ولكن هذا الاحتجاب كان قاسيا على الفتى المسكين الذى أحس بالعزلة والفراغ ، فظل الساعات ينتظر الصديق فى صبر عجيب وفى وفاء الاطفال ، ودار بخلده أنه إذا انصرف أو شغل بشىء آخر فإن ذلك يعد خرقا لأصول الصداقة .. فأخذ يقتل الوقت بالسير فى تذاقل نون غرض وعلى غير هدى فى ردهات الفندق ، وكان ضجره يزداد بمضى الوقت .. كما راح القلق يصور له شتى الاحتمالات ، فجال بخاطره أن حادثا ربما

أصاب الصديق ، أو أن هفوة بدرت منه عفوا فأغضبته .. واستبد به الأسى حتى كاد ينفجر فى البكاء لنفاد صبره .. !

وأقبل المساء ، وحن موعدا العشاء ، وقدم البارون لتناوله فاستقبل استقبالاً بالغ الروعة ، فقد راح الفتى يعدو نحوه دون أن يأبه بأمه التى نهشته فى قسوة ، ودون أن يكثرث لنظرات الجالسين ودهشتهم ، وارتقى فى أحضان صديقه وطوقه بذراعيه الصغيرتين فى شوق وحرارة وهو يصيح منفعلاً :

- أين أنت يا صديقى ؟ .. وأين كنت ؟ .. لقد طرقت كل مكان بحثاً عنك !

وتضرج وجه أمه خجلاً لأن الفتى أوحى بكلامه أنها كانت هى الأخرى تبحث عنه ، فضايقتها ذلك وقالت فى غلظة :

- أجلس يا «أدجار» والتزم التعقل ..

وكانت فرنسيتها ركيكة ، حتى لقد كان يعتريها الارتباك حين كانت تضطر إلى التحدث عن تفاصيل دقيقة .. واستكان الفتى ، ولكنه راح يطمط البارون بأسئلته ، فعادت الأم تقول له فى شيء من العتاب :

- أعلم أن للسيد أن يفعل ما يشاء وما يحلو له .. وربما لم ترق له صحبتنا أو أنها ضايقته !..

فشعر البارون بالغبطة فقد أفلحت حيلته ، إذ كشفت الحسنة فى غير تحفظ أو حذر عما يعتمل فى صدرها ، وأقحمت نفسها فى الأمر بهذا العتاب الذى كان فى الواقع صورة من صور المجاملة له .. فتنبهت غريزة الرغبة فى الاستيلاء الكامنة فى أعماقه ، وانتشى لذلك التوفيق السريع للخطا التى رسمها ، وأيقن أن الصيد أصبح قاب قوسين أو أدنى من متناول يده ، فلمعت عيناه وشعر بالدم يجرى ساخناً فى عروقه ، وراحت الكلمات تترى دافقة من شفثيه دون أن يدري كيف واثته هذه القدرة على

الكلام .. شأنه فى ذلك شأن من يعانى من الصبابة والوجد ، يرى أول بارقة تدل على أنه راق فى عينى امرأة ، فتلتهب أحاسيسه وتتأرجح مشاعره ، فيضفى عليه ذلك قدرة خارقة ولباقة نادرة .. وكان فنانا فى رواية القصص الزاخرة التشويق والإغراء والتي تثير كوامن الاحاسيس ، فراح يروى فى ذلك المساء عددا منها عن رحلات قام بها للصيد فى بلاد الهند بدعوة من صديق إنجليزى عظيم المكانة ، وأخذ - خلال سرد قصصه - يحتسى فى نهم كئوس الشمبانيا التى راح يطلبها تباعا احتفاء بتلك الصداقة التى توثقت وأصرها ، مما جعله يتجاوز فى حديثه كل ما كان يتوقع من متعة ، وقد كان موفقا ولبقا فى اختيار موضوع حديثه لأنه واسع المجال والخيال وفيه الكثير من أسباب الإثارة للمرأة .. بيد أن الفتى كان أشد من أمه انتباهها وانبهارا بهذه القصص ، حتى اشاعت الغبطة فى نفسه فتجلت فى بريق عينيه ، ونسى أمر الطعام والشراب ، وراح يحملق فى وجه البارون وكأنه يلتقط الكلمات ويلتقفها من شفثيه .. ولم يدر بخلده أن يرى يوما رجلا عاش هذه الأحداث التى لا يعلم عنها شيئا إلا بين صفحات الكتب ، وكان يعتبرها ضربا من الخيال ، كصيد الأسود والنمور ومغامرات الهنود الحمر وسحرهم وطلاسمهم ومركبات الحرب والدمار عندهم ، تلك المركبات الرهيبة التى تفنى آلافا من البشر فى لحظة ، لم يكن يصدق أن لمثل هؤلاء الناس وجودا فى عالم الحقيقة ، بل ما كان يعتقد فى وجود هذه البلاد فى العالم ، فقد كان يظنها من القصص الخرافية أو الخيالية .. ولهذا جذبت انتباهه وأثارت فيه اهتماماً شديداً ، فظل طول الوقت يحدق فى وجه صديقه لا يحول عينيه عنه ، بل تابعه بإدراكه وكافة مشاعره ، وعجب كيف يقتل صديقه هذا أسداً شرسا أو نمرا مفترسا ، وانعقد لسانه فلم يجرؤ على توجيه سؤال ، وحين حاول ذلك انبعث صوته مبجوحاً كالمبهور ، وراح يرسم فى خياله كل مشهد فى تلك القصص السحرية ، فكان يتمثل البارون وقد

اعتلى ظهر فيل ضخـم داخل هودج زاهى الالوان يحوطه هـنود من نوى الوجوه الحمر ، علت رءوسهم عمائم ضخمة ، ويتمثل النمر وقد كشر عن أنيابه فبـدت تلمع فى بريق رهيب وهو يقفز من الغابة ويندفع نحو الفيل منشبا مخالفه فى خرطومـه .. وبعد ذلك راح البارون يقص أحداثا أشد اثارة وأدعى إلى التشويق والاهتمام ، فشرح الحيل التى يقتنصون الفيلة بها ، بأن يستدرجوا صغارها العابثة فى مرح إلى حفر يعدونها خصيصا لذلك مستعـينين فى الإيقاع بها بحيوانات كبيرة مدربة .. وهكذا راحت قصص البارون تترى الواحدة تلو الأخرى ، وكل واحدة منها إشد إثارة وأكثر تشويقا من سابقتها .. حتى زاعت عينا الفتى وتألقتا فى انفعال ، وهو يتخيل ويتمثل الرمح يلمع ثم يغوص فى الفريسة فيصرعها .. !

الفصل الخامس

طبيعة الأنتى

انتهى البارون من سرد قصصه ، وكانت الساعة حينئذ قد بلغت التاسعة مساءً ، فقالت الأم لابنها :
- حان موعد النوم .. فهيا ..

فاكفهر وجه الفتى لهذا الأمر الذى أصدرته إليه أمه ، والذى نقله من عالم الخيال الذى كان سابجا فيه . ومن عادة الصغار أن يروا فى إصدار مثل هذه الأوامر لهم ، وبخاصة أمام الناس ، تصغيراً من شأنهم وبأنهم ليسوا نوى أهلية للتمتع بالحرية ، وقد استثار الفتى أن أمه تمنيه بخيبة أمل شديدة بحرمانه من متابعة القصص ومعرفة خاتمتها ، تلك القصص التى شغفته واستحوذت على لبه ، فتوسل إليها قائلاً :

- دعيني يا أماه أستمع لهذه القصة أيضاً ، هذه القصة فقط ، التى تدور حوادثها حول الفيلة الضخمة ..

وهم بأن يلحف فى الرجاء والتوسل ، ولكنه أثر أن يحتفظ بشخصيته وعزته ككائن ، فلم يلح على أمه أكثر من ذلك .. بيد أنها أبدت نحوه فى ذلك المساء بالذات قسوة فى المعاملة لم يعهدها منها من قبل ، إذ رآها تزجره بحدة وهى تقول له :

- لا تلجئنى إلى تكرار تنبيهك .. قلت لا ، فقد تأخر الوقت ، كن مطيعاً وهيا إلى فراشك .. وأعدك بأن أقص عليك ما سأسمعه من القصص ..

ولاح التردد على الفتى ، فقد تعود أن تصحبه أمه إلى الفراش ، وهذه أول مرة تتصرف معه هكذا ، ولم يشأ أن يحط من قدر نفسه أمام صديقه إن هو عاود التوسل ، فأراد أن يبرر رحيله بتعليل يحفظ عليه كرامته ، فقال لأمه :

- أحقا ستقصين على كل صغيرة وكبيرة يا أماه ؟ .. جميع القصص ؟

- طبعاً يا بنى .. بعد أن أسمعها ..

- فى ليلتنا هذه ؟ ..

- ليكن ذلك .. والآن هيا إلى فراشك .. !

وفى هذه المرة ، عندما هم الفتى بالرحيل ، مد يده ليحيى البارون ويحيى أمه ، وعجب من نفسه أن وجهه لم يتضرج ، بيد أنه أدى التحية وهو يكتفم تنهداته وزفراته لكيلا يفلت زمام مشاعره فينخرط فى البكاء ، وداعب البارون الفتى ملاطفاً ، فانفجرت شفثاه الصغيرتان بابتسامة مغتصبة رغم الحنق الذى يعتمل فى نفسه ، وما لبث أن أسرع الخطى نحو الباب ... ولو لم يبادر إلى ذلك لشاهد الاثنان عبرات الفتى تجرى على وجنتيه !

وظلت الحسنة فى قاعة الطعام فترة من الوقت مع البارون عقب انصراف الفتى ، وتوقف الرجل عن سرد أقاصيص النمر والفيلة والهنود والصيد ، وتبلبل حديثهما وشابه بعض السأم والاضطراب .. وبعد قليل انتقلا إلى الردهة ، وانتحيا أحد الأركان ، فجلسا فيه بعيداً عن أعين الرقباء، ولم يلبث البارون أن استعاد عزمه فنشطت حيويته ، أما هى فقد بدت منتشية من تأثير عديد كئوس الشمبانيا التى رشفتها ، فكان من نتيجة ذلك أن الحديث بينهما جنح إلى ناحية حساسة .. !

ولم يكن البارون مفرطاً فى الوسامة ، ولكنه كان يتفجر حيوية وشباباً ، مكتمل الرجولة ، وقد أضفى عليه شعره المصفف ووجهه المتلائم التقاطيع مظهرها يدعو إلى الإعجاب به .. فراق للحسنة ما كان يبيده من حركات منطلقة مرحة ، فشعرت بالغبطة لوجودها بقربه ، ولم تعد تخشى نظرات عينيه .. ثم راح حديث البارون يتدرج شيئاً فشيئاً فى جرأة جعلتها تضطرب ، وأحست أن كلماته وكأنها أيد تتحسس جسمها .. واستيقظت أحاسيسها فى فورة جامحة دفعت الدم إلى وجنتيها ، بيد أنها ملكت زمام عواطفها وراحت تضحك وكأن شيئاً ما لا يعتمل فى داخلها .. تضحك فى مرح ، دون أن تدري أنها كانت تترجم بذلك المرح عن انعطافها إليه بصورة طفلية ، وحاولت فى بعض الأحيان أن تظهر عدم الرغبة فى سماع بعض

أحاديثه المكشوفة التى تتجاوز حد الحشمة بإشارة من يدها أو إيماءة من عينها ، ولكن طبيعة الأنثى كانت تغلبها على أمرها ، فتنم عن الرغبة فى المزيد .. ! وزالت الكلفة بينهما إلى أقصى مدى ، فراحت تسايره فى التودد وترد بوعود مبهمه غامضة ، بينما كانت عيناها تحملقان فيه .. وما هى إلا لحظات حتى طرحت الانثى سلاحها ورفعت الراية البيضاء إذ بدأت تستسلم بالحديث وبالحرركات ، وسمحت لنفسها بالدنو منه والالتصاق به فتلامس جسماهما وسرت الحرارة فيهما وكأنها تيار كهربائى ، وراحت أنفاسه تلتفح أذنيها ومنكبيها بحديثه السحري .. وكشأن العاشقين المدلهين لم يحسا بمرور الوقت ، فقد استغرقتهما النشوة ولم يوقظهما منها إلا انطفاء بعض مصابيح الردهة ، فعرفا أن الليل قد انتصف .. !

ونهضت الحسنة عن مقعدها ، وقد أذهلها ما تورطت فيه ، واندفاعها إليه يمثل هذه السرعة والسهولة .. صحيح أن هذا اللون من المغامرات لم يكن غريبا عنها أو جديدا عليها ، ولكنها أدركت بعقلها الباطن الذى أخذ يهيب بها ويوحى إليها ، أنها فى هذه المغامرة قد اشتتت .. وأدركت فى جزع وذعر أنها أفلتت زمام نفسها ، وأن إحساسا جديدا عليها أخذ يسرى فى وجدانها وكيانها ، وينذرها بأنها مقبلة على أمر جلل وصراع بين العقل والقلب .. وأحست بما يشبه الدوار وكأن نومة من الوجل والثلل ولهيب الأنفاس تتقاذفها ، فاستولى عليها هلع غامض ، لا تدرى كنهه ومبعثه ، لقد عاشت لحظات كهذه من قبل ، ولكنها لم تكن بهذه الحرارة وهذا التفاعل .. !

وهمت بالانصراف ومغادرة البارون ، فقالت له :

- أتمنى لك نوما هادئا .. طابت ليلتك .. وإلى صباح الغد .. !

ولم تكن ترغب فى الهرب منه هو .. بل من هذه اللحظة الحاسمة ، ومن مغبة ذلك الاضطراب الشديد الذى لفها وسرى فى كيانها .. ولكن البارون

أمسك بيدها التى مدتھا إليه فى حنان واستبقاھا فى لباقة ورقة ، ثم راح يقبلھا .. لا مرة واحدة كما يجرى العزف والتقاليد ، بل تعددت القبلات توزعھا شفتاه المختلجتان على أناملھا ورسغھا ، وتولتها رعشة وانتفاضة حين أحست بشاربه عل ظهر يدها ، واستشعرت دفئا لا عهد لها به ، فحقق قلبھا وتتابعت ضرباته وأحست كأن رأسھا يشتعل .. وغمرھا شعور بالأم مبهم ، لا تدرى مبعثه يعتصرھا ، فجذبت يدها فجأة من بين يديه .. !
وتوسل إليها البارون أن تمنحه قليلا من عطفھا قائلا :

- ألا تمكثين معى لحظات أخرى .. ؟

ولكنھا حسمت الموقف وبادرت بالابتعاد على الفور ، فافصحت بذلك فى وضوح عن أحاسيسھا المضطربة .. لأنها كانت قد وصلت إلى الدرجة التى تسبق الاستسلام المطلق ، وأضحت كريشة فى مهب الريح ، وما عليه لكى ينالھا إلا أن يمر علیھا بلمسة من بنانه تسرى فیھا مسرى الكهرباء .. وأدركت حقيقة ما يعتمل فى داخلھا ، فقد ألهبھا الخوف من أن يضمھا الرجل ويعتصرھا بين ذراعيه .. وقد كانت تتمنى ذلك حقا ، فقد أحست بالحسرة وخذلان النفس لأنه لم يحتویھا بين ذراعيه ، ثم راح يطرھا بالقبلات ويتشبث بالعناق .. لقد كان من الجائز ، بل من المحتمل جدا ، أن يحدث عندئذ ما تتوق إليه نفسها ، وأن لم تدرك ذلك منذ أمد طويل ، نعم كان من الممكن أن تعيش هذه المغامرة التى كانت تهفو إليها بجميع حواسھا وجوارحھا ... المغامرة التى تلهث فیھا الأنفاس وتمتزج ببعضھا بعضا فى حرارة ونشوة ، والتى جاهدت وناضلت كى تصدها وتكبح نفسها عن الوقوع فیھا حتى الآن .. المغامرة العظمى التى تحطم إلى الأبد ، لا مجرد النزوات الطارئة ونوازع الانفعال الوقتية .. ! بيد أن البارون أثر أن يتمسك بعلياء نفسه تبعا للخطة التى رسمھا وأحكم تدبيرھا ، فلم يشأ أن

ينقضها رغم لهفته ، ولم يشأ أن يتهافت وينصاع ، فقد وثق بأن الصيد أصبح فى متناول يده ، وإن هى إلا ساعات حتى يقضى لبانتة وينال مشتهاه .. فلماذا يتسرع ؟ ولماذا ينتهز فرصة ضعفها واستسلامها ويمثل نور القناصة ، مستعينا بنشوة الخمر ؟ .. لقد أثر أن يتمهل فى الصيد لأنه يستعذب النضال الذى يؤتى ثمره ويعقبه الاستسلام عن رغبة وطواعية .. لقد أيقن تماما أن سحره قد سرى فى كيائها وحطم مقاومتها .. !

وعندما بلغت فى صعودها نهاية السلم ، توقفت قليلا ، وأطبقت بيدها على قلبها اللاهث كأنها تريد أن تمنعه من الانطلاق من صدرها ، لأن أعصابها كانت قد انهارت .. ثم تنهدت فى ارتياح بعض الشيء لأنها نجت بنفسها من كارثة محققة ، ولكن زفرتها نمت فى الوقت نفسه عن إحساس بالندم .. بيد أن الكارثة التى تتهددها ، والندم الذى تستشعره ، كانا يساورانها فى صورة باهتة وغموض مبهم ، وأحست بما يشبه الدوار .. فراحت تتجسس طريقها إلى الغرفة مغمضة العينين نصف إغماض ، بينما راحت تترنح تحت تأثير ما ألم بها .. ولم تستعد رشدها وتستجمع شتات أفكارها وتتمالك أنفاسها إلا حين بلغت باب الغرفة ودلفت إليها ، فشعرت بالأمان والطمأنينة .. !

وعندما فتحت الباب فى رفق تراجعت مذعورة ، فقد لمحت شيئا ما يتحرك فى ظلام الغرفة .. وتوترت أعصابها ، وهمت بأن تصيح مستغيثة ، ولكنها سمعت صوتا أثقله النعاس ، خافتا واهنا كصاحبه يقول :

- وأخيرا عدت يا أماه .. !

وعجبت لماذا جاء إلى فراشها ، فبادرته بالسؤال :

- ماذا أتى بك إلى هنا ؟ .. وماذا تصنع بربك ؟

ثم أسرع نحو الفراش الذى كان الفتى يغوص بين طياته . وأيقظه قدومها فنهض ، وجال بذهن الأم أنه مريض ، وأنه جاء إلى مخدعها التماسا لدواء.. ولكن الفتى قال فى عتب ناعم والنعاس يغالبه :

- انتظرتك طويلا يا أماه .. حتى غلبنى النوم .. !

- ولماذا ظللت مستيقظا وانتظرتنى ؟

- لتقصى على قصة الفيلة ... !

- أية فيلة يا بنى .. ؟

وأدركت لتوها ماذا يعنى ، فقد تذكرت أنها وعدته بأن تقص عليه حينما تعود ما ستسمعه من قصص «الصيد والمغامرات» ، فظل الفتى الساذج على هذا الأمل ، وتسلسل إلى مخدعها ينتظرها فى ارتقاب وثقة .. فلما طال به الوقت وطال غيابها ، غلبه النعاس فاستسلم للنوم .. وأحنقها هذا التصرف من جانبها ولكنها فى الواقع أحست فى قراراتها بالسخط على نفسها وبالخلج الذى يعتري من يقترب ذنبا .. وجاهدت لكى تزيج عنها هذا الشعور ، فصاحت فى الفتى :

- هيا إلى فراشك فوراً أيها الولد العاق .. !

وتطلع إليه «ادجار» فى خوف ودهشة .. ترى ماذا فعل فأغضبها منه وجعلها تحنق عليه هكذا .. إنه لم يأت ذنبا يستحق عليه اللوم والتأنيب ، بيد أن دهشة الفتى وتلكأه فى السير تنفيذا لأمرها ، ضاعف من حنقها فنهرته فى غلظة :

- هيا إلى غرفتك فوراً .. !

ولم يكن حنقها فى الواقع منصبا على الفتى ، بل على نفسها .. لأنها تعرف تماما أنها المذنبة .. !

وانصاع الفتى لأمرها صاغرا دون أن ينبس بكلمة ، وكان متعبا جد التعب ، يغالبه النعاس .. واستبد به إحساس واحد هو أن أمه نكثت

بوعدها، وأنها جائرة في تصرفها معه ومعاملتها له ، ولكنه لم يغضب ولم يثر لأن الاعياء كان قد نال منه وإن استشعر بعض الاستياء الذي جعله يلوم نفسه لاستسلامه للنوم حين كان ينبغي أن يظل مستيقظا .. وبذلك استشعر أنه مازال طفلا ، فأخذ يردد ذلك في نفسه في غيظ ، حتى غلبه النوم من جديد .. وتولته كراهية شديدة لطفولته .. !

الفصل السادس

تغيير مفاجيء

لم ينعم البارون بنوم هانى فى تلك الليلة ، لأن المدلهين الذين لم يصلوا بعد غاية مشتتهاهم من المحبوب يقضون الليالى فى سهاد .. لذلك كانت ساعات ليلته اضطرابا وأرقا وتفكيراً وقلقا ، فإذا أخذته سنة من النوم أو غفوة تخللتها الرؤى والأحلام .. وندم لأنه لم ينتهز تلك الفرصة التى واثته بالأمس فيذهب فى الشووط حتى نهايته . وعندما أقبل الصباح وهبط من غرفته ، كانت آثار السهاد والانفعال بادية على وجهه وفى عينيه ، فبدا نافذ الصبر ضيق النفس .. وظهر الفتى فجأة من أحد الأركان ، وما أن وقع بصره على البارون ، حتى جرى نحوه ثم طوقه بذراعيه الصغيرتين فى بهجة وفرح ، وراح يمحطه بالسؤال تلو السؤال .. لقد غمرت الفتى سعادة لا حد لها لأنه وجد نفسه ينفرد بصديقه ، لا تشاركه فى هذه الرفقة أمه ، وأخذ يتحدث إلى البارون فى دماثة ولطف ذاكرة بأنه كان أحرى به أن يروى أقاصيصه له هو لا أمه ، معللا ذلك بأن أمه قد أخلفت وعدها له ، ولم تنقل إليه الأقاصيص التى سمعتها بعد مغادرته لهما كما وعدته ، وراح يلقي إلى البارون بوابل من الثثرة الصبيانية ، حتى برم الرجل بالفتى وبثرثته ، ولم يستطع إخفاء تعكر مزاجه عنه .. !

وانقلبت بشاشة البارون إلى عبوس وتجهم ، وهو يرد على فضول الفتى وأسلته ، وضايقه بالأكثر إلحاف الفتى فى ملاحقته التى تنطوى على مغزى يوحى بما يشبه الرقابة ، واستفساراته التافهة التى ضاعفت من سأمه .. وكان قد ضاق بنفسه عن أن يقضى نهاره فى تجوال مع فتى صغير ، كما سئم مبادلته تافه أحاديثه ، تلك الأحاديث الصبيانية السخيفة ، فهفا قلبه إلى الحسنة وتمنى أن ينفرد بها .. فتضاعف ضيقه ، ولم يستطع مغالبة نفسه فأبدى تبرمه بتلك الصحبة للفتى ، ولكن الفتى وقد تأصلت جنور الصداقة فى نفسه فى براءة الأطفال ، بالإضافة إلى أن البارون قد بهره

بقصصه الشائقة فملك عليه عواطفه ومشاعره وأيقظ فيه الفضول .. أضحى من العسير على البارون أن يحمله على الافتراق عنه وعدم ملازمته .. !
وراض البارون نفسه على احتمال رفقة الفتى ، ريثما يحين الموعد الذى كان بينه وبين الحسنة فى تمام الساعة العاشرة ، فقد تواعدا واتفقا على الخروج فى نزهة .. ولذلك أرخى العنان للفتى وتركه على ثرثرته كيفما راق له ذلك ، وتظاهر بمطالعة إحدى الصحف ، وإن راح يوجه إلى الفتى بين الحين والحين كلمة عابرة أو ملاحظة طريفة على سبيل الملاطفة حتى لا يؤذى شعوره .. وما أن وافت ساعة الموعد حتى كان قد أعد حيلة يتخلص بها من الفتى ، فتظاهر بأنه تذكر فجأة أمرا مهماً ، وطلب إلى الفتى متلطفاً أن يتوجه إلى الفندق القريب ، وأن يستعلم نيابة عنه عما إذا كان ابن عم له يدعى الكونت «جريندهم» قد وصل ، إذ كان قد بعث إليه يخبره بمقدمه .. !

وفى براءة الأطفال انطلق الفتى الصغير الساذج عدوا نحو الفندق الذى أشار به البارون ، وقد امتلأ زهوا وسعادة بأن يكلفه صديقه أداء خدمة وأن يكون فى مقدوره أن يقوم بها ، مزهوا فخورا بأنه قد أضحى موضع ثقة صديقه ، يعتمد عليه فى أمر من أموره ويجعله رسولا شخصيا لابن عمه .. فأخذ يعدو دون توقف حتى لهثت أنفاسه ، ودون أن يأبه بنظرات الناس الذين راحوا يرمقونه فى دهشة وعجب .. وحرص على كسب ثقة البارون وحسن ظنه به ، فأراد أن يثبت له مدى إخلاصه ونشاطه وإقباله على تلبية ما عهد إليه به .. ووصل إلى الفندق واستعلم عن الكونت ، فقبل له أنه لم يصل بعد ، بل ليس لدى إدارة الفندق نبأ عن موعد قدومه ، فعاد يحمل هذه الإجابة ، وقد ضاعف من سرعته فى الجرى عن ذى قبل .. ووصل وقد كادت أنفاسه تتوقف ، بيد أنه لم يلمح للبارون أثرا ، إذ كان قد غادر الردهة .. ويمم الفتى شطر غرفة البارون ، فلعله عاد إليها لأمر ما ، وطرق

بابها فى لهفة ، ولكن دون جدوى .. فهرول إلى قاعة الجلوس ، ثم إلى المقهى ، وانتهى به المطاف إلى مخدع أمه ليسألها المشورة فيما ينبغى أن يفعل ، وحز فى نفسه أنه لم يجدها هى الأخرى .. وبلغ به اليأس والضيق ، فاستفسر من البواب فى يأس ، فأنبأه بأن أمه خرجت فى رفقة البارون منذ دقائق .. فأنار هذا النبأ فى نفس الفتى مزيجا من الدهشة والأسى .. !

وراح الفتى ينتظر أوبتئهما فى صبر نافذ .. وفى براءة الأطفال لم يساوره أى شك من ناحيتهما ، واعتقد أنهما لن يلبثا أن يعودا بعد دقائق قلائل ، وجال بخاطره أن البارون أراد أن يتعجل أنباء وصول ابن عمه الذى أرهق الصغير نفسه عدوا فى الذهاب والإياب لكى يأتى بها على عجل وينبئ بها البارون .. ولكن الدقائق راحت تترى ، والساعات تتتابع وتتوالى ، دون أن يعودا ، فأخذ القلق يناوش المسكين .. والحقيقة أنه استشعر القلق منذ دخل ذلك الشخص الغريب فى أفق حياته ، وأقحم نفسه متغلغلا مع أمه ومعه .. إن أية أحاسيس أو انفعالات - مهما كانت خفيفة أو طفيفة - تطبع أثرا عميقا على الأفئدة اليافعة والقلوب الغضة .. ولهذا أثرت هذه الصدمة فى نفس الفتى وفى وجدانه ، وسرعان ما عاودته تلك الاختلاجة العصبية التى اعترت جفنيه وراحت تهزهما ، واشتد شحوب وجهه .. !

وظل الصغير ينتظرهما طويلا ، يحده الأمل فى قرب عودتهما ، ثم أخذ القلق والاضطراب يتسللان إلى نفسه ، حتى كاد ينفجر بالبكاء .. وحتى ذلك الحين لم تكن الشكوك قد ساورتها ، أو أساء بهما الظن ، وقد خشى - بسذاجته وبثقته المطلقة بصديقه - أن يكون قد أساء فهم المهمة التى كلفه بها البارون ، فراح يتعذب لمجرد هذا الحدس .. !

وأخيرا عاد الرفيقان ، ورأهما ، وعجب أشد العجب إذ وجدتهما يتبادلان الحديث وقد تجلت عليهما وعلى حديثهما البهجة والغبطة والمرح ، دون أن تبدو عليهما أية دهشة بخصوصه .. وكأن غيابهما عنهما لا يؤلمهما ، وضاعف من عجبه أن البارون لم يسأله عن المهمة التي كان قد وكل إليه القيام بها ، بل قال له :

- لم نتمكن من انتظارك فسقناك يا «داج» ، وقد ظننا أننا سنلتقى بك فى الطريق .

وفى سذاجة الأطفال خشى «ادجار» أن يكون قد جشمهما عناء البحث عنه ، فراح يؤكد لهما أنه سلك الطريق الرئيسى دون غيره ، وحين رغب فى معرفة الطريق الذى سلكاه ، وهم بأن يسأل عن ذلك ، نهشته أمه فى غلظة قائلة :

- كفى ثثرة أيها الشقى .. ليس للأطفال أن يزعجوا الناس هكذا ..

وقد أثارت بردها هذا غضب الفتى ، فاحتقن وجهه .. وألمه وحز فى نفسه جدا أن تعاود أمه إيذاء شعوره وخدشه أمام صديقه البارون ، وتساءل فيما بينه وبين نفسه ، ترى لماذا تتعمد ذلك .. ولماذا تجنح إلى الحط من شأنه وتحقيره وزجره هكذا فى غلظة وقسوة وإظهاره بمظهر الصغير التافه الأبله .. ؟! ومع أنه قد أفسح لهما المجال ، فلا ريب فى أنها تغار منه ، وتحاول أن تفصل بينه وبين صديقه .. بل لعلها هى التى أشارت بسلوك طريق آخر غير الطريق الذى سلكه حتى لا يلتقيا به .. على أن المسكين تشبث بالعناد ، وعقد العزم على ألا يدعها تخدش شعوره بعد الآن ، متوعدا بأن يثبت لها ذلك ، وبأنه سيقاومها .. وأوحى إليه تفكيره ألا يتكلم مع أمه على مائدة الطعام ، وأن يقصر حديثه على البارون فقط .. !

ولم يتنبه الاثنان إلى تحدى الفتى وصمته ، وكأنهما لا يشعران بوجوده ، وقد كان حديثهما بالأمس لا يتناول سواه .. فقد نأيا عنه وراحا يتحدثان

ويتغامزان ويضحكان ويتداعبان وكأنه ليس معهما ، أو كأنه طيف لا يريانه ، فغلى الدم فى عروقه واحتقن وجهه ، وأحس بغصة تكاد تخنقه وشملته رجفة وهو يذكر ضعفه وعجزه .. أهكذا قدر له أن يبقى أمامهما كالبتمثال ، ساكنا لا يتكلم ولا يتحرك ، يتطلع إلى أمه وهى تغتصب منه صديقه الوحيد الذى أفعم قلبه بحبه .. فأضحى عاجزا عن الدفاع عن نفسه ، لأنذا بهذا الصمت الرهيب .. !

وحفره ذلك على أن ينهض ، وأن يهوى على المائدة بقبضتيه .. لعلهما يتنبهان إليه وإلى وجوده ، ولكنه تمالك نفسه ورباطة جأشه وكظم غيظه ، واكتفى بأن توقف عن تناول الطعام ، ومضت على ذلك فترة طويلة دون أن يحظى بلفتة من أحدهما ، فلم يعره أحدهما أى اهتمام ، وظلت الأم على غباؤها هذا ، أو لعله تغايبها ، إلى أن قدم إليهم آخر طبق من أطباق الطعام ، فالتفتت إلى الفتى ، وإذا رأت الطعام لا يزال أمامه لم يتناول منه إلا القليل ، سألته عما إذا كان يشكو مرضا أو ألما .. فقال الفتى يحدث نفسه :

- يا له من أمر غريب .. إن دائرة تفكيرها لا تتعدى مجرد الاطمئنان عليّ صحتي ، وعما إذا كنت مريضا أم لا .. وما عدا ذلك فأمر تافه فى نظرها .

ثم أجاب أمه فى لهجة لا تخلو من جفوة :

- ما بى ميل إلى الطعام ..

ولم تكلف الأم نفسها عناء معرفة السبب .. إذن حيلته لم تؤت ثمرتها المرجوة ، ولم يعد فى مقبوره أن يجتذب انتباههما إليه .. وخيل إلى الفتى أن البارون قد محاه من ذاكرته وأنه لا يعترف بوجوده ، لأنه لم يوجه إليه كلمة ما .. فخنقت الفتى العبرات وكاد يجesh بالبكاء ، وأخيرا لجأ إلى حيلة من حيل الأطفال عندما يريدون التخفيف من عذابهم والتنفيس عن أنفسهم ، فتناول خلسة المنشفة التى أمامه وراح يجفف بها الدموع التى طفرت بها

عيناه وانسابت على وجنتيه وشفتيه دون أن يفتن أحدهما إلى ما آلت إليه حاله .. !

وانتهوا من تناول طعام الغداء ، فشعر الفتى بشيء من الراحة وتنفس الصعداء، وخلال الأكل اقترحت الحسنة أن يقوموا بنزهة فى عربة تذهب بهم إلى «ماريا شوتز» ، فتضايق الفتى حين سمعها تقترح ذلك ، وجز على شفتيه غيظا .. لأن معنى ذلك أن أمه لم تعد ترغب فى أن يخلو الفتى إلى صديقه لحظة واحدة ، وانفجر رجل الغضب بين ضلوع الفتى حين قالت له أمه وهى تنهض عن المائدة :

- أغلب الظن أنك نسيت كل ما تلقنته فى المدرسة يا «ادجار» .. أليس من الأفضل أن تبقى لتستوعب دروسك .. ؟!

وعندئذ أطبق الفتى قبضتيه فى حلق بالغ ، فقد عادت إلى الحط من شأنه فى حضرة البارون ، وتصويره فى قالب الطفل والجهر بذلك أمام الناس ، وأن مكانه فى المدرسة لا بين من هم أكبر منه ، إلا إذا كان ذلك من باب الملاطفة وعلى سبيل التسامح .. بيد أنه فى هذه المرة شعر بأنه أودى أكثر من اللازم وفوق طاقة احتماله ، فانعقد لسانه ولم يجب بنعم أو لا ، بل أولاهما ظهره .. فاستدركت أمه قائلة وقد رسمت على شفتيها ابتسامة :

- هل يضيرك هذا أيضا .. ؟

ثم تحولت إلى البارون تخاطبه :

- هل ترى فى انصرافه للدرس ما يضايقه .. ؟

وأحس الفتى حين سمع ذلك كأن ضربات قلبه قد توقفت ..

وعلق البارون على استفسار الحسنة قائلا :

- إن قضاء ساعة أو بضع ساعات فى التحصيل والاستذكار لا يبعث

على التذمر أو الضجر .. !

اذن فقد اتفقت أراؤهما تجاهه ، وتحالفا ضده .. واحتدمت فورة الغضب فى عيني الفتى ، فاندفع يقول بأقصى ما وسعته قوته الواهنة :
- تعليمات أبى أن أركن إلى الراحة التامة فى هذا المكان ، فهو يريد أن أستريح وأستجم فى فترة نقاهتى ..

وتمسك الفتى بتعليمات أبيه ذاكرا بأنها واجبة التنفيذ والاحترام ، وكانت لهجته عندما اندفع يطلق جوابه كالقذيفة تنم عن تهديد وتوعد .. ولاحظ الفتى أنه حين ذكر أباه فى سياق كلامه ، بعث ذلك شعورا من الذعر والاستياء فى نفس أمه والبارون ، فقد غضت الأم من بصرها وأشاحت بوجهها وراحت تنقر على المائدة بأصابع مرتعشة متوترة ، وران على ثلاثتهم صمت رهيب كئيب .. وأراد البارون أن يعالج الموقف ويخفف من حدة الأمر ، فتصنع الابتسام وقال :

- لك ما تريد يا «داج» .. وأنا من ناحيتى لا تنتظرنى دروس وامتحانات، فقد انتهت امرى ورسبت فى كل المواد منذ أمد طويل .. !
ولم ترق هذه الفكاهة «لادجار» ، فقد بدت له سخيفة ، فلم يبتسم .. وإنما رشق البارون بنظرة ثاقبة حادة كأنه يتفحصه لينفذ إلى أغوار نفسه .. ترى ماذا حدث حتى انقلبت الصلة بينه وبين البارون إلى النقيض ؟ .. هل جد أمر ما يستغلغلق عليه فهمه أو إدراكه ؟ .. وزاغت عينا الفتى وشردتا ، وتتابع نبضات قلبه اليافع فى خفقات متواصلة .. فقد بدأت الشكوك تساوره وتنتهيه ، وغاب فى حلم كئيب من أحلام اليقظة .. !

الفصل السابع

بداية الشك

ترى ماذا جد أو طرأ حتى بدل الحال غير الحال ؟ .. هكذا راحت الهواجس تناوش الفتى، والأفكار المقبضة يكاد رأسه الصغير ينفجر من حدة وطائها ، وهو مستكين فى مواجهتهما فى العربة .. لماذا لم يظلا على ودهما وصفائهما لى ؟ .. لماذا تغض أُمى بصرها كلما تطلعت إليها ؟ .. ما سر هذا المرح الذى يلفهما والبهجة التى ينتشيان بها ؟ .. لقد أحجما عن مخاطبتى كما كانا يفعلان بالأمس وقبل الأمس ، بل يتراءى لى أن وجهيهما قد تغيرا وأنهما ليسا الوجهين المعهودين .. فما أشد الحمرة التى تصطبغ بها شفثا أُمى ، لعلها استعانت بطلاء ما لتجعلهما تزهوان هكذا ، فى حين أنها لم تهتم قبل الآن بهذا .. والبارون أيضا ، أصبح لا ييش فى وجهى بل يعتريه العبوس كلما رآنى وكأئننى اقترفت ما أذيت به شعوره . ما أكرمت قط فى حقهما ، ولم تبدر منى لهما كلمة إساءة .. إذن فلست أنا علة هذا التبدل ، بل هما مصدره ، ويخيل إلى أنهما يعيشان فى جو من الخفاء ، لا يجرؤان على الجهد بتصرفاتهما حتى ليخفى الواحد منهما عن الآخر بعض ما به ، وتخللت أحاديثهما الألغاز والطلاسم ، بل قل كلامهما وحل بهما الهجوم محل الضحكات ، والتجهم محل المرح .. فلا بد أنهما ينوءان بسر يحرصان على إخفائه عنى ، بيد أنه لابد لى من أن اكتشفه ، ومن يدرى .. لعلى أعرفه ، فقد يكون السر الذى يحرصان على أن يجعلانى بمنأى عنه هو السر الذى تعالجه الكتب وتصوره التمثيليات عندما يقف الرجل والمرأة متقابلين ، ويرسلان عذب الأغاني وقد بسط كل منهما ذراعيه للآخر ، فيتعانقان ويتباعدان .. ! تماما كما حدث بين معلمتى وأبى من سلوك يتنافى مع الآداب ، مما أدى إلى إعفائها من عملها .. هذه حلقات متصلة شديدة الشبه بعضها ببعض، وإنى لأحس بذلك وإن كنت لا أدرك كنه هذا الإحساس، وكم أتلطف إلى كشف النقاب ومعرفة هذا السر الخفى .. وكم أتلطف إلى تحطيم الحاجز وقهر ما يستغلق على .. بل أتلطف أكثر وأكثر

إلى اليوم الذى أخطى فيه مرحلة الطفولة ، فتفتتح أمامى مغاليق الأمور ولا يكون للتغريب أو الخداع منفذ إلى عقلى ونفسى .. إذن فلأبدأ العمل الآن وإلا فسأظل أخطب فى الجهد بأمور الحياة مدى العمر ! .. ولابد لى من الوصول إلى هذا السر الخطير ..!

وتغضن وجه الفتى بالتجاعيد ، فبدا على هزاله ويفاعته كأنه شيخ طاعن.. وقد استغرق فى تفكير عميق كأنه يعالج مشكلة حرب عالمية ، نون أن يتمتع نفسه أو يأبه بما حوله من جمال الطبيعة المنبسطة بألوانها الساحرة وجبالها الشامخة وغاباتها المترامية وأوديتها التى أضفى عليها الربيع بهاء أخاذا .. لم يجتذب الفتى شىء من ذلك وتعلق بصره وتفكيره فى الوجهين اللذين أمامه ، وراح يجهد نفسه ليستشف السر الكامن فى أعماق عيونهما..

ولا ريب فى أن الشكوك إذا تسلت إلى الإنسان ، فى صورة ملتهبة ، فإنها تصقل القريحة وتشحذ العقل وتنير الطريق للفكر وتفتح حتى الذهن الذى لم يكتمل نضجا فتكشف له عن الغامض والمستغلق مما يثير الهواجس.. وإذا يد القدر تتدخل ، وبدفعة منها تتجلى الحقيقة ويتكشف المستور للفتى اليافع .. !

وشعر «ادجار» فجأة أنه قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من ذلك اللغز المستغلق .. من ذلك السر الخطير ، وقد أحسه ماثلا أمامه وإن كان بعيدا عن متناول وعيه مستعصيا على إدراكه .. ولكنه فى الوقت نفسه موقن أنه جد قريب منه .. وأثار هذا الإحساس حميته ، فأضفى عليه مسحة من الهيبة والوقار .. لقد أدرك نون أن يفطن أنه استكمل مرحلة الطفولة .. !

واستشعر البارون وأم الفتى بوطأة ضغط خفية ، وقوة مقاومة صامته ، لم يستطيعا إدراك كنهها .. وما جال بخاطرهما أن الفتى مبعثها ، وخيل

إليهما أن العربية تضيق بثلاثتهم ، وأخذت عينا الفتى اللتان ترسلان نظرات ملتبهة فى حرارة تنبعث من أغوارهما ، تثيران فى أمه والبارون إحساسا بالضيق والاضطراب ، فلم يجرؤا على تبادل الحديث إلا نادرا .. ونادرا ما تبادلوا النظرات ، وقد زايلهما المرح الذى كان يشيع فى أحاديثهما من قبل ، كانا ينغمسان فى حمأة التبذل فى تحفظ ، حين يتبادلان عبارات الغزل والمسكات الخفية ونظرات النهم ، ولكنهما كلما هما بشئ من ذلك اصطدما بنظرات الفتى الهادئة فى صمت وعناد ..

واشتدت وطأة هذا الصمت على نفس الأم ، فأخذت تختلس النظر إلى الفتى فى حذر .. وإذ رآته قد زم شفثيه ، قفزت إلى ذهنها صورة أبيه حين يكون محنقا أو يستبد به انفعال ، وشعرت بالضيق لتذكرها زوجها فى الوقت الذى تنتشى فيه بمغامرة غرامية مع البارون .. وقد خيل إليها أن الفتى بعينه المتربصتين ونظراته الثاقبة وبالاكتئاب البادى على جبينه الشاحب ، إنما هو شبح عهد إليه أن يراقبها ويراقب ضميرها .. فاثار ذلك فى نفسها شعورا بأنها لا تطيق وجود الفتى معها فى تلك اللحظة .. !

وتلاقت عينا الأم والفتى فجأة ، فغض كل منهما بصره إذ اكتشف كل منهما أنه يرقب الآخر خفية ، وقد كانت الثقة بينهما متبادلة حتى هذه اللحظة .. أما الآن فقد اعتور الشك هذه الثقة ، فتأثرت علاقتهما ، وأخذ كل منهما ينظر إلى الآخر نظرة غريبة ، ويجعل حاجزا بين مصيريهما ، وتولد فى قلب كل منهما شعور بالكراهية المستترة نحو الآخر .. شعور جديد وغريب عليهما حتى أنهما لم يجرؤا على الإفصاح عنه أو إظهاره .. !

وعادت العربية بهم إلى الفندق .. وعندما وقفت عند الباب تنفس الجميع الصعداء ، فقد كانت نزهة غير موفقة ، خلت من البهجة والمتعة والمرح ، وقد أحس ثلاثتهم بذلك نون أن يجرؤوا على الجهر به .. ونزل الفتى من العربية قبل الاثنين ، وتظاهرت أمه بأن صداعا ألم بها ، فبادرت لائذة بمخدعها ..

فقد كانت جد مرهقة تهفو إلى الخلوة بنفسها ، ونقد البارون الحوذى أجره ، ثم نظر إلى ساعته وسار نحو الردهة دون أن يأبه بالفتى الذى وقف فى مكانه ، بل سار البارون أمامه ، فى خطوات رشيقة متتدة يتخطر بذلك القوام الفارع الذى كان حتى الأمس موضع إعجاب الفتى .. سار فى طريقه لا يلوى على شئ كأنه لا يعرف الفتى ، أو أنه غريب عنه .. !

وشعر الفتى بغصة مريرة وكأن حجرا ثقيلا انقض فوقه فحطم كيانه ، حين رأى ذلك التصرف من جانب صديقه الذى أحبه بكل جوارحه ومن أعماق قلبه ، وشعر بخيبة أمل شديدة عندما ابتعد عنه البارون دون أن يوجه إليه كلمة أو عبارة ، مع أنه لم يسئ إليه ، ولم يقو المسكين على تحمل ذلك فى رباطة جأش عانى كثيرا للاحتفاظ بها ، فأحس بأنه ارتد طفلا تافها كما كان ، ثم راح يعدو خلف البارون على الرغم منه فى خطى حثيثة مضطربة ، ولحق به ووقف أمامه عندما هم بالصعود ، وقال له بصوت مبجوح كأنه صادر من أعماق سحيقة والدموع تكاد تطفز من عينيه :

- أى ذنب جنيته حتى تهملنى هكذا وتتجاهل وجودى ؟ .. لماذا تبدلت معاملتك لى إلى هذه الجفوة ؟ .. وكذلك أُمى ؟ .. ماذا يدفعكما إلى إقصائى عنكما ؟ .. هل تضيقان بى ؟ .. أو هل بدر منى ما يستوجب ذلك .. ؟!

وسرى هذا العتاب المشرب بالتأنيب مسرى السم فى نفس البارون ، وشملته رجفة على الرغم منه ، فقد كان فى نبرات الفتى ما جعله يستشعر الخجل ، واضطر أن يتلطف معه .. كما أخذته الشفقة على ذلك الصغير البرئ ، فتصنع الابتسام تلطفا وقال له :

- إنك واهم يا صغيرى «داج» ، وكل ما فى الأمر أننى كنت منحرف المزاج اليوم .. إنك فتى ظريف وقلبى يحبك كثيرا .. !

قال البارون ذلك وهو يداعب شعر الفتى ، بيد أنه أشاح عنه بنظره قليلا ، ليتفادى نظرات التوسل التى أرسلتها عينا الفتى المغرورقتان .. وبدت له

اللعبة التى يمثلها عسيرة ثقيلة على نفسه ، فقد استشعر الخجل لأنه يتلاعب بعواطف هذا الفتى ويعبث بحبه له بهذه الطريقة المعيبة ، وأثر فيه أبلغ الأثر ، وحز فى نفسه سماع هذا الصوت الطفلى وقد حنقته العبرات ، فقال له فى حنان وعطف :

- ألا تشعر بالتعب يا «داج» ؟ .. هيا إلى فراشك وسيعود الصفاء إلى علاقتنا فى المساء ..

- على ألا تصرفنى أمى إلى الفراش مبكرا ..

- لك هذا يا «داج» .. ! ليطمئن بالك ، فهيا إلى غرفتك الآن ، وسأذهب أنا لأغير ثيابى واستعد للعشاء ..

وغمرت الفتى موجة من الفرح ، بيد أن قلبه ما لبث أن عاوده خفقانه فى شدة وعنف .. فقد أحس المسكين أن عشر سنوات أضيفت إلى عمره ، وأنه يستشعر إحساسا لا عهد له به هو الشك .. !

وظل الفتى ينتظر اللحظة الحاسمة ، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة حين كانوا قد اتخذوا مقاعدهم حول المائدة ، ولاحظ أن أمه لم تتصرف معه كما تصرفت بالأمن ، فلم تشر عليه بالتوجه إلى فراشه .. فساوره قلق مبهم لذلك ، وتساءل فيما بينه وبين نفسه لماذا تخلت عن عاداتها التى تتبناها فى حرص ورتابة ودقة ، فسمحت له بالسهر حتى هذا الوقت .. هل أنهى إليها البارون برغبته التى أبداهها له وهو يحدثه ؟ .. وندم أشد الندم لأنه ألقى إلى صديقه بمكنون نفسه فى صراحة وثقة .. وما أن وافت الساعة العاشرة حتى نهضت أمه بغتة واستأذنت فى الانصراف ، وعجب الفتى أن يرى البارون لا يدهش لهذا الانصراف المبكر ، بل لم يحاول أن يستمهلها ويرجوها البقاء فترة أخرى . فاشتد وجيب قلبه وفاضت نفسه بالأسى .. !

وتجاهل الفتى هذه الملاحظة وتظاهر بالسذاجة ، وسار مع أمه دون اعتراض أو توسل .. بيد أن عينيه زاغتا فجأة ، فقد حانت منه التفاتة مباغتة فرأى أمه تلقى إلى البارون نظرة ذات مغزى من خلفه ، نظرة التواطؤ على أمر خفى .. إذن لقد نكث البارون وعده ، وهذا ما جعله لا يبدى أى اعتراض على انصراف أمه المبكر .. فقد رسما الخطأ : أن يأوى الفتى إلى فراشه فى جو من هدوء البال والاطمئنان حتى لا يكون مبعث ضيق لهما فى الغد .. وتمتم «ادجار» فى خفوت :

- يا له من نذل حقير .. !

وتناهى صوته إلى سمع أمه رغم خفوته فسألته :

- ماذا تقول ؟

فجز الفتى على شفثيه غيظا ، وأجاب فى اقتضاب :

- لا شيء .. !

لقد جد عليه جديد ، وأضحى له ما يشغله .. وما يشغله سر من الأسرار ، وهذا السر هو المقت والحقد والكراهية إلى أقصى مدى ، يكنها ليس للبارون وحده .. بل ولأمه أيضا .. !

الفصل الثامن

الرقيب اليقظ

ران على الفتى هدوء وسكون فلم يعد نهبا للقلق، فقد تولد فيه إحساس واضح بالكراهية والعداء .. ومن ثم راح يستطيب الوجود معهما رغم أنه يعلم يقينا أن ذلك يضايقهما ، بل كان يستشعر المتعة فى مضايقتهما ، وبالعداء السافر الذى يواجههما به فى حدة وعنف، وكان البارون هو الهدف الأول لسهام الفتى ، فعندما تلتف معه وألقى إليه بتحية باسمه فى صباح اليوم التالى، تعتمد الفتى ألا يتطلع إليه ، وظل جالسا فى مقعده واكتفى برد التحية فى فتور . وسأله البارون عن أمه ، وعما إذا كانت قد غادرت مخدعها وهبطت إلى الطابق الأرضى، فأجاب فى كلمات مقتضبة بون أن يرفع عينيه عن صحيفة كان يقرأها قائلا :

- لا علم لى بذلك .. !

ودهش البارون لهذا التصرف من جانب الفتى ، وتساءل فيما بينه وبين نفسه عن مغزى ذلك .. ثم هتف فجأة قائلا :

- لعلك لم تتل قسطا من الراحة كافيا فى نومك يا «ادجار» .. أليس الأمر كذلك .. ؟

وظن أن هذا التلطف كفيل بأن يعيد الجو إلى سابق عهده، ولكن الفتى التزم خطة الاقتضاب فى القول ، فأجاب قائلا :

- لا .. !

ثم عاود الاستغراق فى قراءة الصحيفة .. فما كان من البارون إلا أن هز كتفيه استخفافا بالفتى، وقال وهو يبتعد عنه :

- يا لك من فتى عقيم .. !

ومضى فى سبيله لا يلوى على شىء .. وكانت هذه بمثابة الشرارة أو الطلقة الأولى لمعركة فاصلة .. فقد انتهج الفتى التحفظ والفتور فى علاقته بأمه، فأبى فى تأدب أن يذهب إلى ساحة «التنس» عندما ألحت عليه فى ذلك، وكان فى زم شفتيه، وفى تلك الابتسامة

الباهتة الصفراء، ما ينم عن أنه قد بلغ من الإدراك بحيث لا يرتضى أن يخدعه أحد مهما كان ذلك الأحد .. وبعد لحظة قال لأمه وهو يحدق في عينيها ويتصنع الحياء :

- حبذا لو أخذتمانى للنزهة معكما ..

وأثار هذا الجواب أمه وبعث في نفسها الاستياء، وبدا عليها اضطراب وارتباك لم يخفيا عن عين الفتى اليقظة .. فقد تظاهرت بأنها تبحث عن شئ تفقده ، وقالت :

- إذن فانتظرني هنا حتى أتناول إفطاري ..

ولم يعترض الفتى، وانتظر .. ولكن عجلة شكوكه كانت تدور في سرعة ويقظة متحفزة ، فقد شعر من أعماقه بما يدفعه إلى تحليل وتعليل كل لفظ ينطق به الاثنان للبحث عما يحمله من مغزى ونوايا، وكانت نظرتة ثاقبة بحيث تمنحه التوفيق فيما يفعل، وقد هداه تفكيره ألا ينتظر في الردة كما أشارت عليه أمه .. بل أثر أن يقف في الطريق، في موضع يمكنه من أن يرقب كافة الأبواب، وليس باب الخروج وحده .. فقد أوحى إليه الغريزة بأنهما يدبران خدعة، فحزم أمره على ألا يتركهما يفلتان ، ثم توارى خلف بعض الأخشاب متمثلا بما قرأه في بعض القصص .. واستشعر الرضا عن خطته ، فابتسم حين لمح أمه تتسلل من الباب الجانبي بعد نصف ساعة تقريبا وقد أمسكت بيدها باقة من الأزهار والورود ، ثم تبعها شريكها الخائن ..!

وبدا المرح في أساريها .. ولا ريب أنهما استشعرا السعادة إذ ظنا أنهما أفلتا منه، وتناهى إلى سمعه حديثهما وضحكاتهما وهما في طريقهما إلى الغابة .. وواتت اللحظة الحاسمة التي يترقبها الفتى ، فغادر مخبأه وسار نحوهما ويبدأ كما لو كان لقاءه لهما جاء مصادفة ، وأخذ يتشقى ويستمتع في الوقت نفسه بما أحدثته هذه المباغته فيهما ، إذ كانا قد ذهلا

بالفعل فأخذنا يتبادلان نظرات الفزع .. وتقدم الفتى بخطى بطيئة نون أن يحول عنهما عينيه الساخرتين ، وعندئذ قالت أمه :

- أنت هنا ، وقد بحثنا عنك فى أرجاء الفندق يا «داج» !

فأخذ الفتى يتحدث إلى نفسه قائلاً :

- يا للكذب المكشوف .. !

بيد أن شفتيه لم تختلجا ، فقد أطيقتا على سر حقه ..

وظهر التردد على الجميع ، وهم يختلسون النظر إلى بعضهم البعض فى توجس وترقب ، ولم تلبث المرأة ، وقد بلغ منها الاستياء ، أن تصنعت الهدوء وقالت وهى تعبت بزهرة مما فى يدها :

- هلم بنا ننتزه .. !

بيد أن دهشة خفيفة سرت فى طرف أنفها تتم عن فورة غضب جهدت فى كبته ، وظل الفتى ينظر إلى الفضاء المحيط به كأنها لا توجه إليه الكلام ، وظل هكذا إلى أن شرعا فى السير ، فسار معهما .. وحاول «البارون» أن يثنيه عن ذلك بحيلة ابتدعها ، ولكن الفتى رشقه بنظرة ازدراء وقد مط شفتيه إمعانا فى ذلك فقد بدأت كراهيته الطاغية تظهر سافرة .. !

ومما لا ريب فيه أن وجود الفتى كان مبعث ضيق لهما ، ثقلت وطأته عليهما أثناء السير حتى لقد أطبق كل منهما قبضتيه كأنهما سجينان وهو حارسهما ، وظل الفتى هادئاً صامتاً ، ومع ذلك فقد تضاعف ضيقهما به ولم يعودا يحتملان وطأة نظراته الثاقبة وعينيه اللتين راحت الدموع تترقرق فيهما ، وذلك الانقباض الذى ألم به والذى كان يحول نون أية محاولة من جانبيهما للتودد إليه .. وفجأة قالت الأم وقد ضاقت به وبذلك الرقابة ذرعاً :

- لماذا تسير هكذا وراعنا ؟ .. تقدمنا ولا تلاحقنا ، فإن ذلك يحطم

أعصابى ..

ولم يعترض الفتى، وامتلأ لأمرها .. ولكنه كان يستدبر متطلعا إلى الخلف بين الفينة والفينة ينتظرهما كلما بعد عنهما، مرسلا إليهما نظرة زاخرة بالمر والدهاء ليشعرهما بمبلغ كراهيته وحقده التى لم تخف عليهما .. !

كان صمت الفتى ونظرة العداء والحقد التى يرشقهما بها بمثابة الخنجر النافذ إلى قلوبهما ، فكانت تحبس الكلام فى حلقيهما .. ولم يجسر البارون على المضى فى مطارحتها الغرام أو مداعبتها ومغازلتها بل أحس وهو يكاد ينفجر من الغيظ بأن الصيد لن يلبث أن يفلت من يده ، وأن جنوة الشهوة التى أذكأها فيها وبذل فى سبيل ذلك شتى الأحاييل، لن تلبث أن تخمد تحت وطأة توجسها من ذلك الفتى البغيض .. وكم عالجا استئناف الحديث، ولكنه كان يستعصى عليهما، فلأذا بالصمت قانعين بإرهاق السمع لحفيف الأشجار ولوقع خطواتهما المتعثرة !

وشملت الكراهية ثلاثتهم، فكان الفتى وقد عرف غدر الشريكين، يستعذب غضبهما العاجز الذى كان منصبا عليه، وأخذ بين الحين والحين ينظر إلى البارون فى سخرية ، فيسمعه يتمم ببعض الكلمات التى لا يجد فى نفسه الجرأة على الجهر بها .. كما كان يرقب فى اغتباط أمه وقد استشاط غضبها، واستشف محاولتهما لتلمسى خدعة أو حيلة يستطيعان بها إقصاءه وتجنب مراقبته، بون أن يوفقا .. فقد اشتد حقده وعداؤه ، فأحكم خطته بدقة لا تسمح لهما بمنفذ .. !

وفجأة قالت الأم ، وقد عيل صبرها :

- لنعد الآن ..

لقد أحست التعسة بانهيار أعصابها ، وبأنها لم تعد قادرة على تمالك نفسها، وأنه لا بد لها من أن تتصرف على أى وجه حتى لا يطفئ عليها هذا

العذاب فتنفجر فى البكاء .. وحين سمع «ادجار» منها ذلك ، قال فى بلادة وهدوء :

- هذا عجيب ومؤسف فى الوقت نفسه، فإن الطقس بديع يحفز إلى الاستزادة من النزهة .. !

وأدركت الأم كما أدرك البارون أنه يسخر منهما ويعتمد إيداهما ، بيد أنهما لم ينبسا ببنت شفة .. فقد تعلم هذا الفتى كيف يضبط زمام نفسه، ولهذا لم يبد على أساريره ما يشى بتلك السخرية اللاذعة التى قذفها بها .. واتخذ الجميع طريقهم إلى الفندق وكأن على رؤوسهم الطير فلم ينطق أحدهم بكلمة طول الطريق، وإذ خلت الأم إلى الفتى فى مخدعها، تخلت عن رباطة جأشها ورزانتها، وراحت تنفس عن نفسها وتفتأ غيظها ، فطوحت بقفازها ومظلتها فى حركة استياء .. ولاحظ الفتى أنها أفلتت زمام نفسها، وأن تصرفها على هذا الشكل يسرى عنها .. فى الوقت الذى كان يتوق فيه إلى أن تزداد ثورة واحتداما ، ومن ثم لم يبرح الغرفة ، بل ظل بها ليذكى جنوة هياجها وانفجارها، وأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهابا، وتجلس حيناً وتتقر على المائدة بأناملها حيناً آخر .. وإذ وصلت فورتها إلى القمة صرخت قائلة :

- ما أشد إهمالك لشعرك، وما أبشع قذارتك ! .. ألا تخجل من الظهور أمام الناس بهذه الصورة ؟ ..

وراح الفتى يصف شعره دون أن يتكلم ، فأنارها هذا الصمت الثقيل الذى اقترن بابتسامة ساخرة .. فأحست برغبة ملحّة فى أن تنهال عليه صفعا ولطما ، وما لبثت أن صرخت فى وجهه :

- أغرب عن وجهى واذهب إلى غرفتك !

إنها لم تعد تطيق وجوده قريباً منها .. وابتسم الفتى ، ثم خرج .. !

لقد أضحيا يرتعشان فرقا أمام الفتى .. يخشيان وجوده معهما والتعرض لنظرات الحقد والرقابة التى يرشقهما بها ، وكلما ازداد وميض عينيه ، اشتدت وطأة الإثارة فى نفسيهما .. لقد راح الفتى الصغير يصلى خصميه العاجزين عذابا أليما بقسوة طفلية فيها الكثير من الضراوة والوحشية . وظل البارون مسيطرًا على أعصابه قادرا على كظم غيظه وغضبه لأنه كان يأمل فى حيلة يتغلب بها على الفتى ، جاعلا نصب عينيه هدفه الوحيد مع حسناؤه .. أما هى فقد انهارت أعصابها وأخذت تغتصم نفسها شيئا فشيئا ، وكانت تتلمس لغيظها تنفيسا ، فلا تنى عن زجره والجهر بعيوبه .. فكانت تنهره بغلظة أثناء تناول الطعام فتقول له مؤنبة :
- لا تعبث هكذا بالمعلقة ! .. ليس ذلك من آداب المائدة ! .. إنك غير مؤدب ! .. لا تستحق شرف الجلوس مع من هم أكبر منك !

وكان «ادجار» يقابل ذلك ببلادة وفتور ، ولا يرد .. بل يكتفى برسم ابتسامة على شفتيه ، وقد مال برأسه قليلا ، لأنه يعلم أن صيحاتها تلك تنم عن يأسها .. ! وملاءه الزهو أن يرى الاثنين يفضحان أمرهما بهذه الطريقة .. أما هو فقد اكتست نظراته بالهدوء ، ولو أنه انتهج ذلك من قبل لكان من الجائز أن يجنح إلى الفظاظة لاثارتهم ، ولكن المرء يتعلم الكثير عندما يستشعر الكراهية والحقد ، ولذلك تعلم أن يقنع بالصمت .. بالصمت المطبق .. !

وظل الفتى متمسكا بصمته المرهق الشديد الوطأة ، فراحت أمه تصرخ من حدة وقعه فى نفسها ، وعجزت عن احتمال تلك الحال .. وعندما انتهوا من تناول الطعام ، نهضت كما نهض البارون ، فأراد الفتى أن يتبعهما فى حركة عادية طبيعية ، لا تنم عن قصد أو تعمد .. فهال ذلك الأم وانفجرت ، ونسيت كل تحفظ واتزان ، ونفثت كل ما فى نفسها ، كان وجود الفتى على

هذا الوضع الوقح بمثابة النار التي تصلبها وتعذبها ، فانتفضت فى فورة غيظها انتفاض من لدغته عقرب ، وصاحت :

- كيف تلاحقنى هكذا كأنك طفل لم يشب بعد عن الطوق ؟ .. إننى لا أحب أن تتبعنى كالظل ! ليس مكانك بين من هم أكبر منك سنا .. تعلم هذا ، والتمس من أسباب التسلية ما يلتمسه أمثالك من الأطفال .. تصفح كتابا أو صحيفة أو مجلة ، أو افعل ما يحلو لك .. ولكن دعنى قليلا ، فإنك تثيرنى وتحطم أعصابى إذ تلاحقنى بوجهك الكئيب البغيض .. !

هكذا أفرغت آخر ما فى جعبتها .. واعترفت اعترافا صريحا لا يدع مجالا للشك ، فراح الفتى يبتسم ، بينما اعترى أمه والبارون فزع واضطراب ، فاستدارت هى تنشد الابتعاد إذ أحرقها أن تكشف عن استيائها فى سفور ، واكتفى «ادجار» بأن قال :

- لعلك تذكرين أن أبى قد أوصى بآلا أنتزه وحدى ، وشدد فى ذلك وأكد .. حتى لقد عاهدته بأن ألزم جانب الحيطه وأن أكون دائما فى صحبتك ..

وتعمد الفتى وهو يقول ذلك أن يلفظ كلمة «أبى» بنبرة ذات مغزى ، إذ كان قد لاحظ أن لها وقعا أليما عليها وعلى البارون .. واستشف من ذلك أن ما خفى عنه له شأن بأبيه ويتصل به بسبب من الأسباب ، وأنهما يخشيان هذا الشأن رغم بعد أبيه عن مسرحهما .. يكشف عن ذلك ما يعتريهما من ضيق واضطراب لمجرد ذكره ، ولذا الاثنان بالصمت ، فلم ينطق أحدهما بكلمة أو يعلق بشئ .. وكأنهما فقدتا القدرة على الكلام وانعقد لسانهما ، وسار الاثنان جنبا إلى جنب ، ومن خلفهما سار الفتى .. بيد أنه فى مشيته هكذا لم يستشعر مهانة أو ذلة ، بل على العكس من ذلك شعر بتأثيره عليهما ، ذلك التأثير الجبار الصارم .. فقد كان بمثابة الرقيب اليقظ المتحفز لفريسته ، كما شعر أنه أقوى من الاثنين ، اللذين كتما سرهما الرهيب الذى يجهله ، رغم أنه صغير وأنهما يكبران .. !

الفصل التاسع

خدعة حقيرة

مرت الأيام تباعا .. ولم يبق على رحيل البارون سوى القليل ، فعزم على أن ينهل من المتعة واللذة المحرمة بأوفر قسط مستطاع ، وكان هو والحسنة يدركان ألا سبيل لهما إلى التغلب على الفتى العنيد الحقود ومقاومته ، فأوحى إليهما تفكيرهما السقيم بحيلة دنيئة مخجلة .. هى أن يهربا منه لبضع ساعات يرشفان فيها من تلك الكأس المحرمة ، وهما بمنجاة من رقابة الفتى وملاحقته .. فطلبت الأم من ابنها أن يذهب إلى مكتب البريد ويسجل خطابين ، وفى تلك اللحظة حانت من الفتى التفاتة ، فلمح البارون عند الباب يتحدث إلى حوزى ، وساور الشك « ادجار » وهو يتناول الخطابين من أمه ، إذ كان يعلم أن خدم الفندق يؤدون أمثال هذا العمل .. فسأل نفسه : ترى هل عادا إلى خداعه ، ثم قال لأمه :

- وأين تنتظريننى ريثما أعود ؟

- هنا .. فى هذا المكان ..

- هل حقا ذلك أم هو مجرد كلام ؟ ..

- حقا .. سأنتظرك هنا .. !

- إذن فلن تخرجى .. وستنتظريننى حتى أعود .. !؟

وكان الفتى يشعر بسلطانه وتأثيره ، ولذلك خاطبها بلهجة التهديد والأمر .. وقد كان قبل ذلك يتوسل إليها ، ولكن الأمور تطورت وتبدلت ، واتجه صوب الباب يحمل الخطابين .. ولما اقترب من البارون ، خاطبه وكان قد أحجم عن محادثته مدة يومين ، فقال له :

- لن أغيب طويلا .. سأسجل هذين الخطابين بسرعة ، وستنتظريننى أمى ، فرجائى ألا تغادرا الفندق قبل أن أعود .

فأجابه البارون وهو يفسح له الطريق :

- أجل .. لا تخف .. لا تخف ..

وهرول الفتى عدوا إلى مكتب البريد .. وإذ بلغه ، اضطر إلى الانتظار فترة طويلة ، إذ كان بالمكتب رجل راح يثقل على الموظف ويشغله بعيد من الأسئلة ، وحينما أنجز الفتى مهمته ، قفل راجعا يدعو بأقصى سرعته .. وكان وصوله إلى الفندق فى اللحظة التى كانت أمه قد صعدت فيها إلى العربة وجلست ، وإلى جانبها البارون ، فتحركت بهما فى التو .. فغلى رجل الغضب فى نفسه ، واشتد اضطرامه ، فتمنى لو أمكنه أن يقذفهما بقذيفة .. لقد أفلحت حيلتهما ، وأفلتا منه .. ولكن بخدعة ذميمة دنيئة .. إنه عرف منذ الأمس أن أمه لا تتورع عن اقرار الكذب المشين .. ولكن .. أن تعده وعدا صريحا ، ثم تخلف ذلك الوعد وتنقضه بعد ساعة أو بعض ساعة بطريقة مخزية مزرية ، فذلك إن دل على شىء فعلى منتهى الخسة والوضاعة .. إنها بذلك قد قضت على البقية الباقية من ثقته بها ، وخيل إلى الفتى أن الحياة لغز معقد لا يكاد يدرك كنهه ، وأن المعايير والقيم قد هانت وضاعت بعد أن ظن أنها واجبة الاحترام ، فإذا بها توافه تذروها الرياح !..

واستغلق على الفتى تفسير ذلك السر الغامض ، وتعليل جنوحهما إلى خداعه والفرار منه كما لو كانا لصين لاذا بالهرب حين فاجأهما رجل الشرطة .. حقا أنه قرأ فيما قرأ أن بعض الناس من نوى النفوس الوضيعة يلجأون إلى الحيل والخداع أو القتل ، وهدفهم من ذلك المال أو السلطان .. ولكن ترى ماذا دفع هذين الشخصين إلى اللجوء إلى خداعه ثم إلى الفرار منه ؟ ما الذى يرميان إليه من وراء ذلك ؟ .. ولماذا يميلان إلى الاحتجاب عنه ؟ .. ثم ما هذا الذى يحرصان على إخفائه عنه بتلك الحيل وذلك الخداع ؟ .. وراح يفكر ويمعن فى التفكير ، ويضنى عقله ويرهقه بون هوادة ، وساوره إحساس مبهم بأنه إذا نفذ إلى هذا السر انتقل إلى مرحلة النضج ، وزايلته طفولته فأصبح رجلا .. ولكن ما سبيله إلى كشف هذا اللغز ، وقد

عصف به الغضب والحقد لإفلات أمه وشريكها ، فجانبه صفاء الذهن والتفكير ..

ولم يجد سوى أن ينطلق عدوا صوب الغابة .. حتى إذا بلغ طريقا مهجورا لا يتعرض فيه للأنظار، ترجمت عبراته عن شجونه ، فراحت تنساب على وجنتيه غزيرة ساخنة .. وأخذ يردد فى غيظ : « خبيثان ، كاذبان ، مخادعان » ! .. وقد نفس بهذه الشتائم عن نفسه حتى لا يختنق ، وقد راحت مشاعر الغضب والكراهية والضيق والهموم ونفاد الصبر التى زخرت بها أيامه والتى احتملها بجهد فوق طاقة الأطفال ، فأكسبته إحساسا بأنه نضج وأضحى كبيرا .. راحت هذه المشاعر تتفجر فى نفسه فتتساب عبرات حرى، بيد أنها كانت آخر عهده بالبكاء فى طفولته ، فقد كانت بمثابة الحد الفاصل بين مرحلتى الطفولة والنضج .. لذلك كانت أقسى ما استهدف له ، فراح يبكى مستسلما مستعذبا فى تلك اللحظة ، راثيا لما كان فى نفسه من ثقة وحب واحترام .. !

وعندما عاد إلى الفندق ، كان قد تحول إلى شخص آخر لا عهد له به .. شخص اتسم بالهدوء والرزانة ، ويمم شطر غرفته فاغتسل ليزيل آثار الدموع من عينيه ، حتى لا يتشفيا فيه حين يريانه ، وراح ينتظرهما رابط الجأش والجنان متحفزا للانتقام .. !

واكتظ البهو بالنزلاء الذين جلسوا يقتلون الوقت فى قراءة الصحف أو لعب الشطرنج ، بينما انهمكت السيدات فى الأحاديث والثرثرة ، وجلس الفتى هادئا ساكنا ، وقد كسا الشحوب وجهه وزاغت نظراته ، ودلف الاثنان من الباب ، وبدا عليهما الضيق والاضطراب حين رأياه فجأة .. وهما بأن يقولوا بعض أعذار كاذبة كانت قد اصطنعهاا أثناء عودتهما ، فهب الفتى واقفا فى ثبات ، وقال فى تحد حاد :

– سيدى .. لدى ما أقوله لك .. !

وبدا الحرج على البارون فتتململ فى وقفته ، وقد أحس بأن جرمه قد انكشف ، وأنه به متلبس .. واستعصت عليه الإجابة الرزينة ، فقال فى تلعثم:

– نعم .. لا بأس .. بعد قليل .. بعد لحظة .. !

ولكن الفتى ، وقد نفذ صبره، انفجر فيه بحدة ، بصوت تعمد أن يكون عاليا كى يسمعه جميع النزلاء الجالسين فى البهو :

– بل استمع إلى الآن .. إن مسلكك شائن معيب .. لقد كذبت على وأنت تعلم أن أُمى تنتظرنى ..

وارتاعت الأم وهلع قلبها حين رأت الأنظار تصوب إليها، فأسرعت نحو الفتى وقطعت عليه الاسترسال فى حديثه قائلة :

– «ادجار» ..!

وفطن الفتى إلى أنها ترمى إلى طمس صوته بحدة صوتها، فاستشاط وازداد حدة عن ذى قبل ، وعاد يصرخ فى وجه البارون بأعلى صوته:

– إننى أقول لك للمرة الثانية، على مسمع من الحاضرين جميعا، إنك كنت وضعيا فى تصرفك، وفى كذبك على، وخداك لى .. وهذا جرم جد شائن !

وقعت كلمات الفتى على البارون وقع الصاعقة، فشحب وجهه حتى أضحى فى بياض الثلج .. وتعلقت به أنظار النزلاء وأخذ بعضهم يتلامزون ويتغامزون، فنقد صبر الام، وأهوت على الفتى الذى راح يرتجف انفعالا بقبضتها، وصرخت فيه بصوت محنق مغيظ :

– اصعد إلى غرفتك فوراً .. وإلا انهلت عليك صفعا أمام الجميع ..!

ولكن الفتى تمالك نفسه واسترد رباطة جأشه، واستاء، بل ندم لتهوره، فقد كان يرمى إلى إثارة البارون دون أن يفعل هو، ولكن فورة الغضب غلبته على أمره ..!

وسار الفتى نحو السلم بخطى وثيدة هادئة، بينما راحت الام تقدم الأعدار للبارون فى كلمات متلعثمة :

- لا تلق بالا إلى وقاحته يا سيدى .. واغفر له ما بدر منه فلا يخفى عليك أنه عصبى ..

وأثارتها نظرات السخرية الموجهة إليها، لأنها لم تخش شيئاً سوى التعرض للفضيحة، وأدركت أن لابد لها من التشبث بالرزانة وكأن ما حدث ليس بذى بال.. فلم تشأ أن تخرج فوراً، فاتجهت إلى حارس الباب وسألته عن خطابات باسمها، ثم تظاهرت بأنها تتحدث إليه، وبعد ذلك صعدت إلى مخدعها وكأن شيئاً لم يحدث، ولكن النزلاء تابعوها وهى توليهم ظهرها بنظرات السخرية، وأخذوا يتهامسون ويتغامزون فى ضحكات مكتومة !..

الفصل العاشر

تأملات

راحت الام تصعد السلم على مهل، فما كان يثيرها إلا التعرض لمثل هذه المواقف الشائنة .. وكانت فى قرارة نفسها لا تجسر على مناقشة الفتى، فهى لا تنكر جرمها وتهاب نظرات ابنها .. تلك النظرات الغريبة الجديدة التى أطاحت بطمأنينتها وطوحت بأفكارها .. وأهاب بها الفزع أن تتذرع بالملاطفة ، إذ قدرت أن لاجدوى من اتباع العنف أو القسوة مع الفتى ، لان ثورته ستغدو مصدر قوة له تفوق قوتها ..!

وفتحت باب غرفته فى وداعة بالغة، فأدهشها أن ترى الفتى يجلس هادئاً مستكيناً، وقد ملك زمام أعصابه فلم يبد فى عينيه خوف ما، أو أنه اقترب ما لا يتفق مع الأدب، وإنما كان معتدا بنفسه كعملاق مار ..! وقالت له ، وقد أضفت على صوتها حنان الامومة :

- ماذا ذهب بلبك يا «داج» ؟ .. لقد رثيت لك، وخجلت من تصرفك .. كيف تتحدث فى تحد هكذا وتسلك مثل هذا المسلك المعيب مع رجل كبير كهذا ؟ .. إننى أهيب بك أن تبادر فتعذر له .. ولم ينظر الفتى إليها .. بل تطلع إلى النافذة، وأجابها قائلاً :

- لا .. لن أفعل .. !

قال ذلك وهو مشيح عنها بنظره، يتطلع إلى النافذة كأنه يحدث الأشجار التى أمامه، وعجبت الأم لما بدا عليه من ثقة واعتداد بنفسه ، فعادت تقول:

- ماذا طراً عليك يا «ادجار» ؟ .. تبدو كأنك تغيرت كثيراً حتى ليخيل لى أننى لا أكاد أرى فيك «ادجار» ابنى .. عهدى بك عاقلاً لطيفاً يسهل التفاهم معك ، فإذا بك تنقلب فجأة شيطاناً رجيماً .. لماذا تحقد هكذا على البارون وقد كنت تتغنى بحبك له، كما كان من ناحيته رقيقاً لطيفاً معك ؟!

- نعم .. لقد كان كذلك لانه جعلنى قنطرة يرمى من ورائها إلى التعرف بك !

وقع هذا الجواب منها موقع السهم المسموم ، فقالت :

- ما هذا الذى يجول بذهنك ؟ .. هل أنت من البلاهة بحيث تتصور شيئاً كهذا ؟ .. ماذا يشغل بالك .. ؟

فصاح الفتى فى حق :

- إنه مخادع وكاذب ، وكل أفاعيله تنطوى على الخبث .. لقد رآك وأراد أن يتعرف بك ، فأخذ يتقرب منى ويتودد إلى ويتطلف معى إلى درجة أن وعدنى بأن يهدينى كلباً صغيراً جميلاً ، ولست أدري بماذا وعدك أنت .. كما لا أدري لماذا يتودد إليك ، ويصحبك كثيراً .. لاشك فى أنه يبتغى منك شيئاً أو أمراً ، وإلا ما اتخذ زيفاً مظهر الرجل المهذب .. إنه رجل شرير .. يخدع ويكذب .. راقبيه فتتكشف لك حقيقته .. كم أبغض هذا الحقير النذل .. !

- ماذا دهاك يا « ادجار » ؟ .. ويحك ! .. كيف تخرج مثل هذه الالفاظ من فمك ؟ ..

وشعرت بالاضطراب ، وتحيرت فلم تدر ماذا تقول بعد ذلك ، واستشعرت فى أعماقها بأن الفتى مصيب وعلى حق .. ثم استطرد « ادجار » قائلاً :

- نعم إنه نذل وجبان ما فى ذلك شك ، وكان أحرى بك أن تفطنى إلى هذه الحقيقة .. وإذا كان الامر غير ما أقول ، فبماذا تعللين خشيتته منى وتهربه ، إن لم يكن ذلك لانه يعلم تماماً أننى أحُدس نواياه السيئة ، وأكشف خبثه وحقارته ..

- بالله عليك .. كيف تتكلم بهذه اللهجة وكيف تسمح لهذه الالفاظ أن تجرى على لسانك ؟ .. !

كان هذا أقصى ما وسعها أن ترد به ، فقد شل عقلها فأضحى عاجزاً عن التفكير ، وزايله الصفاء فارتج عليها ، ولم تنطق شفتاها إلا بتلك الكلمات التى أرادت أن تموه بها اضطرابها وارتيابها .. واختلط عليها الامر ، فلم تعرف أيهما تخشى ، ابنها أم البارون ، فاستولى عليها جزع أودى بالبقية الباقية من رشد لها ، ولاحظ « ادجار » ما طرأ عليها وأدرك مبلغ تأثيره فيها ،

فشد ذلك من عزيمته، وبعث فيه الامل بأنها ستكون فى صفه ضد البارون..
فاقترب منها فى دلال البنوة وأمسك بذراعها متوددا، وبدا صوته عذبا ناعما
وهو يقول لها :

- ليس هناك شك فى أنك لاحظت سوء نواياه يا أماه، فمنذ أن دخل فى
حياتك تبدلت حالك، ولست أنا الذى تغيرت.. فقد بث روح الكراهية لى فى
قلبك، لسبب واحد هو أن يخلو له الجو معك.. إنه يخدعك ويريد أن يغرر بك،
ولا أدري بماذا وعدك، فهو كالحية الرقطاء لينة الملمس قاتلة اللذعة، وأنا
أعرف تماما أنه لن يفى بوعد.. ثقى بما أقول، إن من يخدع واحدا يخدع
غيره ما دام له هدف عنده.. إنه شخص سيىء لا ضمير له وليس جديراً
بالاطمئنان إليه أو الثقة به ..!

وعجبت الام كيف يتحدث الفتى هكذا فى حكمة الشيوخ ، وخيل إليها أن
هذا الصوت الناعم الذى تخنقه عبرات الاسى صدى لما يعتمل بين جوانحها،
فقد راودها بالأمس إحساس بنفس هذه الكلمات ، راح يهيب بها فى إلحاح،
ولكن الحياء منعها من أن تعترف برجاحة رأى الفتى ، فلجأت إلى الجفاء
والغلظة، شأن من يضيق صدره بشعور مقبض يريد التخلص منه ، فقالت
للفتى :-

- إن من لا يزال فى طور الطفولة لا يدرك مثل هذه الامور، فليس لك
وأنت ما زلت صغيرا أن تقحم نفسك فيها.. وتمسك بأداب السلوك ..!

فعاد التجهم إلى وجه الفتى، وبدا جامدا كالطود، وقال فى جفاء :

- انت وشأنك يا أماه.. لقد حذرتك وكفى ..!

- إذن فأنت تصر على عدم الاعتذار له ؟

- نعم .. لا أريد الاعتذار ..

وكانا وجها لوجه وهما يتحدثان، فأحسست بأن مكانتها عنده قد تضاعلت

بعد ما رآته من عناده وتشبثه برأيه، فقالت :

- إذن ستتناول وجباتك وحيدا فى غرفتك.. فلن تجلس إلى المائدة حتى تعتذر .. إننى أعرف كيف ألقنك السلوك السوى، الزم غرفتك ولا تبرحها حتى أسمح لك .. أنفهم ؟

ولم يجب الفتى واكتفى بالابتسام.. تلك الابتسامة الماكرة .. بيد أنه فى قرارة نفسه لم يكن راضيا عن مسلكه ، لقد أخطأ حين أفلت زمام نفسه تجاه البارون، فأثر الهوى حتى لا يتكرر الامر مع أمه الكنوب ..

وغادرته دون أن تنظر إليه، فقد كانت تلذعها نظراته الثاقبة .. لقد ضاق صدرها به مذ أحست بذلك الوعى الذى هبط عليه، وأخذ يلاحقها ويحصى عليها حركاتها وسكناتها.. وهالها أن ترى ضميرها يتقمص هذا الفتى.. ابنها، فيحذرهما ويسخر منها.. لقد كان فى نظرها مجرد ابن.. إحدى متع الحياة، تفرح بوجوده أو تتلهى معه أو تخصه بحبها، وقد يكون مبعث ضيق لها أحيانا، ولكنه أولا وأخيرا جزء منها، يكمل ناموس الحياة .. ولكن هذا الابن قد طفر فجأة وأخذ يقاوم ميولها ويعترض طريقها ويملى عليها إرادته فتولد فى نفسها إحساس بالكراهية له ..!

وغشيتها بعض التعب وهى تهبط السلم، وتناهى إلى سمعها صوته الطفلى وكأنه منبعث من صدرها، يتردد فى أذنيها ويهيب بها :

- أحرى بك أن تحذريه ..

ولم تستطع أن تقبل هذا النذير الذى راح يلح عليها من أعماقها .. وصادفتها مرآة ، انعكس منظرها على صفحتها، فأخذت تتأمله فى تفكير عميق، وتأمل أن تغلغل إلى أغوار نفسها .. وانفجرت شفتاها عن ابتسامة خفيفة، وكأنهما توشكان أن تطلقا كلمة سخرية ، وكان الصوت لا يزال يهيب بها فى إلحاح متواصل، ولكنها هزت كتفيها وكأنها تطرد هذه الهواجس، وحزمت أمرها ونزلت بخطى ثابتة .. وكأنها مقدمة على المحاولة الحاسمة الاخيرة .. !

وظل الفتى حبيسا فى غرفته، وحمل له الخادم الطعام إليها .. وإذ سمع صرير الباب، ثار محنقا .. لاشك أن أمه هى التى أرادت له ذلك، وكأته حيوان يخشى أذاه ! وطافت برأسه مشاعر التفكير والاستنتاج والتساؤل :

- ترى ماذا يجرى الآن بعيدا عن عيني ؟ .. أية مؤامرة يدبرانها ؟ .. هل يقدر لذلك السر أن ينكشف فى غيابي ؟ .. السر الذى أحس به عندما أكون بين الكبار، والذى يوصد عليه الناس الابواب فى الليل ويخفونه وراء قناع من الأحاديث التافهة حين أقبل على مجالسهم ؟ .. ذلك السر الذى ظل يراودنى منذ أيام حتى لأكاد ألمسه لشدة قربه، ولكنى عاجز عن إدراك كنهه؟ ترى هل قصرت فى جهد أبذله فى سبيل كشفه ؟ .. لكم قرأت كثيرا من هذه الاشياء المشوقة دون أن أفهمها .. لابد أن هناك مفتاحا يجب أن أملكه لانفذ الى هذا السر، وربما كان المفتاح فى نفسى ، وربما كان فى نفوس غيرى .. لكم رجوت الخادمة أن تفسر لى ما استغلق على فهمه فكانت تسخر منى .. ما أبشع أن يكون المرء عاجزا عن الإدراك متعطشا إلى المعرفة لأنه صغير، لا سبيل له إلى سؤال الغير.. حقا ما أبشع أن أكون هكذا ألعوية وأضحوكة لمن هم أكبر منى، ومخلوقا بهذه التفاهة لا شأن لى ولا يرجى منى نفع .. لابد لى من أن أهتدى إلى هذا السر.. إن قلبى يحدثنى بأننى لابد سأكشف عنه، فقد أمسكت بطرف الخيط ولن يهدأ بالى حتى يتكشف المستور ..!

وتناهى الى سمع الفتى أن ثمة خطوات تقترب، فأصاخ السمع .. ولكنها كانت ريح هبت فداعبت أوراق الشجر، فما لبث أن عاد الى الاستغراق فى تأملاته :

- لابد أنهما يسيران فى طريق معيب شائن، وإلا ما لجأ إلى الخداع والأكاذيب الدنيئة ليقصيانى هكذا بعيدا عنهما .. لاريب فى أنهما يسخران منى الآن، وأنهما مغتبطان إذ تخلصا منى، ولكننى قرأت أن من يضحك أخيراً يضحك كثيراً، لانه يكسب الشوط فى النهاية.. ما أشد غبائى حين

رضخت لأمر أمى وقبلت حبسى، فأتحت لهما الفرصة كى يسدرا فى غيهما
نون رقيب يحصى عليهما حركاتهما وسكناتهما ، إننى أدرك أن الكبار
يظنون على ظنهم بأن الاطفال صغار الاحلام على طول المدى، ويظنون أن
همنا أن ننعم بالنوم فى ليلنا .. ناسين أننا على قدر كبير من المكر، وأن
بوسعنا أن نتظاهر بالنوم ونحن مستيقظون منتبهون لما يدور حولنا .. بل
ناسين أن باستطاعتنا أن نلبس مسوح البلاءة، ونحن أشد ما نكون يقظة
وذكاء !! فلقد سبق أن حدث أمر كان أهلى يرتقبونه منذ زمن، ولكنهم
أظهروا الدهشة أمامى تمويها لى .. إذ كنت قد سمعت أبى وأمى يتحدثان به
منذ أيام وهما يحسباننى نائماً .. إننى سافاجئ هذين التعسين فى
مغامرتهما الوضيعة هذه المرة .. كم أتمنى أن أسترق السمع وأن أرقبهما
خلسة خلال الباب، بينما يظنان أنهما بمنجاة منى لأنى حبيس .. ماذا لو
دققت الجرس فتأتى الخادمة وتفتح الباب .. وماذا لو أثرت ضجة وجلبة أو
حطمت زهرية أو إناء فيفتحون الباب ليتبينوا ما حدث ، فأنتهز الفرصة
وأندفع الى الخارج وأسعى لمراقبتهم .. ولكن ذلك يحط من شأنى ، فلا
ينبغى أن يعلم بمهانتي منهما أحد .. لاقنع بها الآن، فلسوف تدور عجلة
الزمن فأكيل لهما الصاع صاعين .. !

الفصل الحادى عشر

ترقب وتحفز!

اعترت الفتى رجفة، فقد تناهت الى سمعه ضحكة عابثة ناعمة، لاشك فى أنها ضحكة امرأة، تنبعث من الطابق الأرضى، فأخذ يتساءل :

- ترى هل هى ضحكة أمه .. فلتضحك الآن ملء شديقيها هازئة منى وأنا حبيس لاند بأحد الأركان كأننى كلب مشدود ، ما دام وجودى ليس مرغوبا فيه ..

وأشرأب عنقه ، وأطل من النافذة فى حذر، فتبين أن الضحكة لم تكن لأمه، وأن التى أطلقتها فتاة ضمن حفنة من الفتيات الماجنات رحن يتعابثن مع أحد الشبان، وفطن الى أن النافذة قريبة من مستوى الارض، فخطر له أن يقفز منها ويسعى الى مراقبتهم وهما يظنان أنهما بمأمن من عيونه .. فاستشعر الغبطة لهذه الفكرة، وخيل إليه إنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من السر الخطير، وألح عليه هاتف فى أعماقه :

- أسرع .. ولا تفلت الفرصة ..

وكان الطريق غير مطروق ، فلم يخش أن يكشف أمره أحد .. وكالعصفور الصغير قفز من النافذة، وأحدث هبوطه على الارض صوتا لا يكاد يسمع، وكان قد استمرأ المراقبة خلال اليومين الماضيين ، ولكنه الآن أحس بشعور مبهم من التوجس والانقباض وهو يختلس الخطوات حول الفندق فى حذر، وتجنب الأضواء حتى لا ينكشف أمره .. وابتدأ بقاعة الطعام، واسترق إليها النظر فلم يجدهما ، وهكذا أرسل بصره خلال النافذة تلو النافذة دون أن يجسر على التسلل إلى الداخل خشية أن يكونا فى إحدى الردهات فيريانه، وساوره اليأس حين لم يعثر لهما على أثر، وفجأة لمح شبحين عند الباب ، فتراجع مضطربا وتوارى فى الظلام .. كانت أمه تتأبط ذراع البارون الذى أصبح أنيسها وجليسيها .. إذن فقد حالفه التوفيق وظهر على المسرح فى الوقت الملائم .. ترى بماذا يتحدثان فى خفوت لم يستطع معه أن يتبين الكلمات؟ ، زاد من ذلك أن الريح كانت

تعصف .. وتناهت إليه ضحكات أمه، ضحكات منفعة لا عهد له بها ..
ومادامت تضحك ، فليس ثمة شر، وبالتالي ليس هناك ما يوحى بأنهما
يخفيان عنه أمرا جللا .. فشعر بخيبة أمل .

وتساءل الفتى ترى ماذا يضطرهما الى مغادرة الفندق وحدهما فى
جوف الليل ، والى أين يقصدان؟ .. لقد كانت فى الجو نذر رياح عاصفة،
وفجأة اشتدت حلة السماء بعد صفاء وإشراق، حتى أصبح من العسير تبين
موضع القدم، ولكن كوكبا لم يرقه ذلك، فتخلص من غلالته وغمر المكان
بضوء فضى .. وهكذا تعاقبت الظلمة والضوء ، وكأن قبة السماء حسناء
تتقنع ثم تسفر ، وأخيرا استقر الصفاء على صفحة السماء، فلمح الفتى
شبحى البارون وأمّه يسيران .. وكانا ملتصقين وكأن شعورا بالهلع يلفهما ،
حتى لقد ظنهما شخصا واحدا، ترى ما وجهة هذين الآثمين؟ .. وكانت الغابة
تبعث الرهبة فى النفس فى ذلك الليل البهيم، وأشجار الصفصاف ترسل
أصواتا تضاعف من شعور الخوف .. وكأن وحشا ضاريا أخذ يروح ويحىء
سعيًا وراء فريسة .. وقال «ادجار» يحدث نفسه:

- سأتبعهما ولن يريانى فى ذلك الظلام أو يحسبى أو بخطواتى ، لأن
الريح تعصف فتتلاشى بجانبها جميع الأصوات ..

وتابعهما بنظرة وهما يهبطان الطريق المنحدر ، متواريا وراء الأشجار
والظلال، فى إصرار ومثابرة وعناد .. مغتبطا بالريح التى حالت دون
تنبيههما له ، وناقما عليها لأنها حالت دون سماع حديثهما .. وقفزت إلى
ذهنه فكرة وهى أنه لو أمكنه أن يجتلى أسارير وجهيهما فسيقرأ فيها
السر..!

ورأهما يتوغلان فى السير، ليلويان على شىء ، وقد انتشيا بالسعادة
لخلوتهما الآثمة فى هذا الليل الساكن والزاهر بشتى الأفاعيل ، واستسلما
لنشوتهما الجياشة، دون أن يدور بخلدتهما أن على كثر منهما فى تلك

الظلمة، عينا ساهرة تقتفى أثرهما وتتبع خطواتهما .. عينا زاخرة بالفضول
مفعمة بالحد والكراهية ، لا تطرف عنهما لحظة .. !

وفجأة توقفا عن المسير .. فتوقف الفتى تبعا لذلك، وتوارى خلف شجرة،
وشعر بمزيج من الحق والخوف .. كيف يكون الأمر لو أنهما قفلا راجعين،
ولم يكن باستطاعته أن يصل إلى غرفته قبل وصولهما .. لسوف تفشل
خطته وتنهار، لأنهما سيفطانان الى أنه يراقبهما فى غفلة منهما ، وسيذهب
أمله هباء فى انتزاع سرهما الذى يهفو الى معرفته جاهدا .. ولاح عليهما
التردد ، بينما لم يكن هو هدفا لضوء القمر ، فلم يتبيناه ، وإن كان يراهما
فى وضوح ..!

ورأيا ممرا ضيقا يؤدى الى الوادى المنبسط ، شاعت فيه الظلمة، إلا من
ضوء ضعيف يتسلل إليه .. فأشار اليه البارون ، ودهش الفتى لماذا يريدان
أن يعبراه ، وبدت هى وكأنها ترفض فراح البارون يحثها ملحا ، واشتد
الحق والخوف بالفتى .. ماذا يبغى هذا اللعين من أمه إذ يستدرجها الى
ذلك المكان المظلم.. ومما كان قد قرأه ، دار بخلده أن البارون مقدم على
اقتراف جريمة قتل .. قتل أمه ، وأنه لذلك عمد إلى اقصائه .. فهل يستغيث
مستنجدا ؟ ..

وهم بأن يصيح ، ولكن حلقه جف فلم يستطع .. وتوترت أعصابه لشدة
الانفعال، وأحس بدوار وكاد يهوى إلى الأرض ، فتمس ما يستند إليه ،
وانكسر الغصن الذى أمسك به فأحدث صوتا اجفل منه الفتى كما بعث
الرعب فى الشريكين ، فحملقا فى الظلام يستطلعان ما جرى ، فتوارى هو
خلف الشجرة وظل ساكنا لا يتحرك ، ولفه الظلام فلم يش به .. وعاد
السكون الى المكان، بيد أنهما ظلا متوجسين ..!

وإذ كان القلق لا يزال مستحوذا عليهما، فإن البارون لم يمانع حين
أشارت عليه بالعودة، فقفلا راجعين فى خطى حذرة بطيئة وقد تلاصقا ..

واستشعر الفتى متعة لاضطرابهما وألمهما، وإمعانا فى التخفى ، زحف على يديه وقدميه متسللا حتى اجتاز الغاية، ثم راح يعدو بأقصى سرعته حتى بلغ الفندق، فصعد وفى لحظة كان مستلقيا على الفراش، وظل ساكنا فترة من الوقت يتصنت ، وقد اشتدت ضربات قلبه لشدة الجرى .. وبعد أن استعاد قواه وهدأت أنفاسه ، نهض الى النافذة واستند اليها بمرفقيه، وأخذ يرقب عودة اللعينين !..

وطال انتظاره، إذ لابد وأن القلق والتعب قد نالا منهما، فسارا فى وهن وبطء، بيد أنه ظل ينتظرهما فى حذر وجلد، حتى لاحا له يتقدمان ويبدأ، وقد انعكست أشعة القمر على ملابسهما فبديا كطيفين .. وعاد الفتى يتحدث الى نفسه متسائلا :

- ألم يكن القتل نية الرجل، أم حال تسلله والصوت الذى أحدثه الغصن الذى كسر نون اتمام الجريمة الرهيبة ؟! ..

وعندما اقتربا ، رأى وجهيهما، واتضحت له معالمها .. فلاحا له فى بياض الثلج، وقد نمت أسارير أمه عن شعور بالغبطة، أما البارون فكان على النقيض ، بدا عابسا مستاء .. ربما لإخفاقه فيما كان ينتويه ..

وإذ صارا على قيد خطوات من الفندق، اقترفا .. ولم يفكر أحدهما فى التطلع إلى أعلى ، حيث النافذة التى يطل منها .. فعلل الفتى ذلك بأنهما نسياه ، واستبد به حلق اختلط باحساس خفى بالانتصار ، وقال لنفسه :

- إنكما تحسبان أننى أغط فى النوم .. إنكما جد واهمان ، فإننى يقظ.. مترقب .. متحفز .. لم انسكما .. سأثابر على مراقبتكما حتى أكشف عن السر الرهيب الذى اقض مضجعى ، فجأفانى النوم.. سأفرق بينكما ، فلست نائما أو غافلا أو أبله ..

ودلف الاثنان من باب الفندق، الواحد تلو الآخر .. نون أن يدور بخلفهما أنه لهما بالمرصاد !..

الفصل الثانى عشر

أزمة حادة

ارتد الفتى عن النافذة لاهثا يرتعد خوفا ، فقد أحس بأنه أضحى عن كُتب من السر ، وكان يحسب أن ما قرأه فى الكتب من أقاصيص المغامرات، من وحى الخيال ، بعيدا عن الواقع.. فإذا به يرى نفسه يعيش فى هذه المغامرات والانفعالات، فارتعد لذلك كيانه .. ترى من يكون هذا المتطفل الذى أقحم نفسه فى حياته وحياة أمه ؟ .. أهو سفك ويستدرج أمه إلى الخلوات والظلام ليفتك بها؟.. أغلب الظن أن حدثا جلا كان يوشك أن يقع .. أخرى به أن يكتب لأبيه أو يبرق إليه فى الصباح.. ولكن ربما وقع المحذور فى ليلته هذه، فإن أمه لا تزال مع ذلك الرجل البغيض ، لم تصعد بعد إلى مخدعها ..

واختفى الفتى خلف ستارة فى مكان مظلم بالردهة ، يرقب عودتها المتأخرة .. فقد ألى على نفسه ألا يغفل عنهما ، وانتصف الليل، وأقفرت الردهة وخفت ضوؤها ، ومضى الوقت متناقلا .. وأخيرا تنهى الى سمعه وقع خطوات تصعد ، فأرهف السمع .. لم تكن مشية شخص يسرع الى غرفته ، بل كانت خطوات بطيئة مترددة، كأن سلحفاة تزحف.. وأصاخ السمع ، فتناهدت إليه همسات بين الحين والحين ، يتبعها توقف عن السير .. فطغت على الفتى موجة انفعال حادة : ترى هل هما قادمان، وهو لا يزال فى رفقتهم ؟ وغدت الخطوات أكثر وضوحا ، وتبين صوت البارون يهمس، فتجيبه أمه قائلة :

– أرجوك لا .. ليس الليلة

وازداد ارتجاف الفتى ، وتضاعف ضربات قلبه، لأنه باقترابهما يسمع ما يقولان ، وشعر بالتقرزز من صوت الرجل وهو يتوسل اليها ويتذلل فى إلحاح .

– اطرحي هذا العناد، وخففى من حدة تلك القسوة.. لقد كنت بالغة الروعة والجمال هذا المساء ..

- ارجوك .. اعفنى .. لا يحق لى ذلك ولا أستطيعه .. اتركنى .. ابتعد عنى .. !

واعترى الفتى رعب جائح .. إن أمه تتنهد فى حرارة .. ماذا يخيفها؟ .. ماذا يريد منها الوغد ؟ .. إنهما يدنوان من الباب، وهو فى مخبئه يرتعد خوفا ، ثم سمعه يقول :

- هيا ياماتيلدا .. تعالى .. !

وكان تنهدا هذه المرة واهنا .. فقد ابتدأت مقاومتها تضعف وتتضاءل . وواصل الاثنان السير ، ومرت أمه بمخدعها ولكنها لم تدخل .. فألى أين هى ذاهبة ؟ .. ولماذا لا يسمع صوتها ؟ .. هل ناولها مخدرا ؟ .. وكاد الفتى يجن ، وبهد مرتشعة وارب الباب فرأهما ، وقد احتوى النذل أمه بين ذراعيه وراح يجذبها فى رفق ، وبدت مستلزمة لا تبدى مقاومة، حتى بلغا غرفة الرجل، وظن الفتى أنه سيدفعها قسرا ليرتكب جرمه .. فجن جنونه ، وفتح الباب فى عنف ووحشية، واندفع نحوهما ، فارتدت الأم مذعورة وصرخت صرخة مكتومة إذ رأت من يندفع نحوها بغتة فى الظلام، وبدا كأنه أغمى عليها .. وعاونها الجبان حتى لا تسقط على الأرض، وأحس فى تلك اللحظة بلطمة تسحق وجهه وشفتيه ، رغم اليد الواهنة الصغيرة التى هوت بها ، كما أحس بمن يتشبث بجسمه وكأنه قط متوحش أنشب مخالفه فى فريسته .. فترك المرأة التى فرت مبتعدة وقد تملكها الفزع دون أن تتبين ذلك المهاجم، بينما راح البارون يدافع عن نفسه وينهال لطما على غريمه ، ولم يتهيبه الفتى رغم الفارق بين عمريهما وقوتيهما ، فقد أراد أن يثأر لحبه الموعود .. فراح فى هياج يكيل اللطمات منفثا عن البغض الذى يكنه للرجل، وتبين البارون خصمه الذى يمقته لتجسسه وتعكير صفو أيامه ، والذى حال بينه وبين بلوغ مشتهاه ، وراح الفتى فى فورته يكيل الضربات للرجل دون أن ينسحب أو يستغيث ، وخجل البارون من نفسه أن ينازل طفلا، فهم

بإبعاده عنه .. ولكن الفتى عض بوحشية يد غريمه التى أمسكت برقبتة ،
فصرخ البارون من الألم ، وجذب يده ، فهرول الفتى الى غرفته ودخل ثم
أوصد الباب .. !

كانت المعركة خاطفة فى ذلك الليل ، فلم يسمع بها أحد ، وكأن شيئاً لم
يحدث ، ومسح البارون بمنديله يده الى أدمتها عضه الفتى ، وراح يجيل
بصره ، فأدرك أن أحدا لم ير ما حدث .. ولكن خيل له أن الكون يسخر
منه .. !

واستيقظ الفتى فى صبيحة اليوم التالى ، فوجد شعره مشعثا .. وأحس
بأنه نهب لآلم ممض ، فراح يتساءل فى حيرة :

- أحل بى كابوس مزعج فى نومي ؟ ..

وأحس بنوار يرهق رأسه ، وباضطراب ، وأدهشه أن يجد نفسه مازال
بملابسه .. واتجه نحو المرأة ، فطالعه وجهه شاحبا ، وجبينه قد تورم وامتلأ
بالكدومات والخطوط الحمراء .. وشيئا فشيئا استعاد هدوءه ، وتذكر والأسى
يعتصر نفسه ما حدث .. تذكر المعركة والعودة الخاطفة ، وأنه ارتقى على
فراشه دون أن يخلع ملابسه متأهبا للهرب ، فاستسلم لنوم مضطرب تخلله
الفرع ، حتى راح دمه الفائز يتجمع على أنفه !

وعادت الحركة والحياة إلى الطابق الأرضى ، شأنه كل صباح .. وغمرت
أشعة الشمس غرفة الفتى ، فأدرك أن النهار قد تقدم ، ونظر الى ساعته التى
خانتته وتوقفت عن الدوران لأنه نسى فى انفعاله أن يملأها .. فاغتسل
وصفف شعره وأصلح من هندامه بسرعة ، ثم هبط الى الطابق الأرضى وقد
اعترته صدمة نفسية واحساس بأنه اقترب إثما .. !

ورأى أمه فى قاعة الطعام ، وقد جلست بمفردها الى مائدتها ، وتنفس
الفتى الصعداء حين لم يلمح غريمه ، وتمنى ألا يرى ذلك الوجه المقيت الذى
كال له بالأمس اللطامات ، واقترب من المائدة فى حذر ، وحيا أمه فى أدب

جم تحية الصباح ، ولكنها لم ترد على تحيته .. بل ولم تكلف نفسها عناء النظر إليه، فقد جالت ببصرها فى الفضاء المترامى الممتد أمامها ، وبدا وجهها بالغ الشحوب وعيناها فى نصف إغماضة، وطرف أنفها يختلج تلك الاختلاجة التى يعرفها والتى تنم عن اضطرابها، فجز الفتى على شفثيه .. إن صمتها يزعجه وهو لا يعلم مدى إصابة البارون ، ولا يعرف إن كانت أمه تعلم بالمعركة، فأله ذلك، وبدا له وجه أمه الساكن مبعث قلق له ، حتى لم يجروء على مجرد التطلع إليها ، خشية أن تباغته وتحقق فيه !

ولاذ الفتى بالصمت ، فلم يتكلم .. ولم يجروء على أية حركة، حتى لقد حرص أن يرفع قدحه ويعيده فى حذر شديد كى لا يحدث صوتا، وراح يختلس النظر بين الحين والحين إلى أنامل أمه التى كانت تعبت بالملعقة فى حركات عصبية تنم عن غضب كامن ..! وظل على تلك الحال مدة ربع ساعة، فى انتظار ما تتمخض عنه الأمور ، ولم تلفظ أمه لفظاً يزيح عنه بعض اضطرابه ، وعندما نهضت، متجاهلة وجوده ، اختلط عليه الامر .. فلم يدر ماذا يفعل ، أيبقى جالسا أم ينهض هو الآخر ويصحبها ، وأثر النهوض فنهض وتبعهما فى ذلة ، وتظاهرت بأنها لا تراه ، وأحس الفتى بالخجل بسيره هكذا فى أعقابها ، فأخذ يتمهل فى السير حتى تبعد عنه .. إلى أن بلغت مخدعها ، فدخلت وأغلقت الباب فى وجهه .. !

ترى ماذا حدث ؟ لقد تحولا وكأنهما شخصان غريبان .. ففارقته طمأنينة النفس، هل جانب الصواب بمهاجمته البارون؟ أم هل يعدان له عقابا جديدا؟.. إنه يشعر أن حدثا رهيبا يوشك أن يقع، وتلوح فى الجو بوادر عاصفة توشك أن تحدث بينه وبين أمه ويحس أنها واقعة لا محالة .. لقد ظل ساعات طوال يذرع ردهات الفندق وقاعاته وهو ينوء تحت وطأة هذا الاحساس ، حتى ضاق به وجدانه الغض.. وحان موعد الغداء فجلس إلى المائدة كسيرا ذليلا..!

وحيا «إدجار» أمه فى هذه المرة أيضا ، لأنه يريد أن يضع حدا لهذا الصمت الرهيب الذى يثقل عليه .. ولكنها لم ترد على تحيته ، بل ولم تنطلق إليه ، فأحس الفتى بأنه أمام أزمة حادة ، وموقف لا عهد له به مع أمه ، إن خلافاتهما السابقة كانت مجرد خلافات بسيطة سطحية ، تزول بابتسامة أو اعتذار ولا تترك أثرا ، أما فى هذه المرة فإن الأمر يبدو مختلفاً ، ويظهر أنه أثار فى أمه شعورا عميقا ، وهو الآن يتوجس من ذلك .. وتناول طعامه وكأنه سم زعاف .. إنه كاد يختنق ، بون أن تأبه له .. وكأنها لا تلحظ شيئا ، والمرة الوحيدة التى أبدت فيها ما ينم عن شعورها بوجوده كانت حين نهضا ، إذ استدارت وكان ذلك مصادفة وقالت له :

- هيا بنا نصعد يا «إدجار» .. فإن لدى ما أقوله لك .. لم تقل ذلك بلهجة الأمر أو التهديد .. بل نطقته به فى منتهى الهدوء ، حتى لقد توجس .. لقد حطمت كبرياءه وأذلت نفسه فتبعها كالكلب الذليل ..

واحتوتهما الحجرة .. وظلت صامته فترة ثقلت وطأها على نفسه لفرط ما يعانیه وما يعتمل فى داخله ، وكان الصمت مطبقا حتى لقد سمع دقات ساعته ، وأخذت نبضات قلبه تدق تباعا .. كما كانت هى تعاني انفعالا جائحا ، فكانت تتحاشى النظر إليه وهى تخاطبه وتشيح عنه بوجهها .. ثم ابتدرته قائلة :

- لن أحدث عن تصرفك بالأمس .. إنها فضيحة مخزية يخلجنى مجرد التفكير فيها .. أنت المسئول عنها وستتحمل تبعاتها ، وكل ما أريد أن أفضى اليك به ، أن ليس لك بعد الآن أن تجلس بين من يكبرونك ، لقد بعثت إلى أبيك بذلك ، لكى يتخير لك رائدا أو يلحقك بالقسم الداخلى بإحدى المدارس .. حتى تتعلم آداب المعاشرة ، فلست أريد أن أقاسى من جرائك وأنعذب ..

استمع إليها الفتى وقد وقف مطأطأ الرأس ، وأحس بأن ما ذكرته ماهو إلا تمهيد لما سيليه .. للموضوع الذى ينتظره فى قلق .

واستطردت الأم قائلة :

- وأول ما يجب أن تفعله أن تذهب فوراً وتعتذر للبارون : وإذا سمع الفتى ذلك ، ارتعدت فرائصه .. وهم بأن يتكلم ولكنها لم تسمح له ، وأردفت:

- على أنه قد رحل اليوم .. لذلك ستكتب له خطاباً أمليه عليك ..

وعاوده الارتجاف ، ولكن أمه لم تكثرث لما اعتراه ، بل قالت فى حزم :

- ليس لك أن تعترض .. هاك الورق والقلم .. اجلس لتكتب ما أمليه

عليك ..

الفصل الثالث عشر

هارب من الجحيم

نظر إليها الفتى وقد تحجرت عيناه خضوعا وامتنالا، فإنه لم يعهد أمه قبل الآن حاسمة هكذا ، فجلس وتناول القلم، ومال برأسه على المائدة .. وأخذت أمه تملأ عليه بعد أن أرشدته الى كتابة التاريخ :

«سيدى .. بلغنى مع الأسف الشديد أنك غادرت «سيمرنج» ، ويحمل خطابى هذا ما كنت مزمعا أن أفعله شخصيا .. أى أننى أرجو أن تقبل أسفى على مسلكى بالأمس واعتذارى عنه ، ولعلك تذكر أن أمى أخبرتك أننى فى دور النقاهاة من مرض خطير خلف فى توترا فى أعصابى ، فأتهور فى بعض الأحيان وأقدم على أفعال أستشعر الندم عليها بعد ذلك ...»

وما أن انتهت الفتى من الكتابة، حتى اعتدل منتصبا .. ثم استدار ، وقد عزت عليه نفسه فاستكثر ذلك على كبريائه، وصاح فى وجه أمه :

- لن أسطر هذا .. لأنه يتعارض مع الحقيقة .. !

- ادجار .. ماذا تقول ؟ ..

- ليس ذلك صحيحا .. أننى لم أقترف شيئا أندم عليه، أو أعتذر عنه ، قد بادرت الى نجدتك عندما استنجدت ..! وغاض الدم من شفتى الأم ، فشحبتا .. واهتز طرف أنفها وهى تصيح :

- تقول إننى استعشت مستنجدة؟.. إنك تهذى ! .. أصابك خبل!..

فاستشاط الفتى غضبا ، ونهض فجأة وهو ينتفض ، وقال لها :

- نعم ، حدث ذلك فى الردهة مساء أمس .. فقد سمعت استغاثتك عندما أمسك بك ، فصحت فيه بصوت مسموع : «اتركنى .. اتركنى ..» ، وقد سمعت صياحك وأنا فى غرفتى .. !

- أنت كاذب .. فما كنت معه فى الردهة ، لأننى افترقت عنه عند أول

السلم .. !

- وغازه هذا الكذب الجرىء ، وكاد ينفجر .. ثم حلق فى أمه وجابهها .

- أحقا لم تكونى فى الردهة .. معه ؟ .. واحتواك بين ذراعيه ؟ ..
وضربك بقبضته .. ؟!

فانفرجت شفتاها بضحكة جافة فاترة، وقالت :

- لقد كنت تحلم .. !

وكان يعلم أن الكذب والخداع ميسوران .. أما إنكار الحقيقة والواقع فى غير حياء أو خجل فمما لا تحتمله النفس، لذلك ثار الفتى فسألها ، وهو يشير إلى الكدمات التى أصابته :

- وهذه الكدمات الدامية .. أهى من آثار الحلم أيضا ؟ ..

- كيف لى أن أعرف .. كيف، أو ممن ، أصابتك .. لا داعى للجدل ..
عليك أن تطيع وتكتب .. !

وبدت شديدة الشحوب .. تكاد لا تستطيع الاحتفاظ برباطة جأشها ..
وبغثة انبثق من أغوار الفتى قبس انبعث من وجدانه ويقينه، وعجب كيف
تطمس الحقيقة وتمتهن كأنها عود ثقاب ينطفئ .. فشعر بالتقرز ، وراح
يتكلم أسيا دامى الفؤاد :

- أكان حلما .. ماحدث بالردهة ؟ .. وهذه الكدمات الدامية ؟ .. ونزهتكما
بالأمس فى الخلاء يشهد عليكما القمر، ورغبته فى السير بك عبر الممر
المنحدر .. هل تراءى لى كل ذلك فى الحلم ! .. أظننت أننى أقبل الحبس فى
غرفتى .. كلا ثم كلا .. ! لست أبله بالدرجة التى تظنينها .. إننى أعرف
كيف أتصرف .. !

وأشاح عنها بوجهه فى أنفة .. وإذ رأت منه هذه المكابرة، زاليلها هذوؤها،
واحترق وجهها وفاض بالكراهية، وانطلقت فى غضب تقول:

- والآن .. اكتب فوراً ، وإلا .. ؟!

فتحداها مستثيراً إياها :

- وإلا ماذا .. ؟

- وإلا انهلت عليك ضربا .. !

ولم يتهيب الفتى ، بل اقترب منها وأطلق ضحكة زخرت بالسخرية، فصفعته على وجهه .. فصاح وشعر بألم فى أذنيه وطنين، وأخذ يطوح قبضتيه على غير هدى ، وبدت له الدنيا حمراء ، وأحس بأنه أصاب بقبضتيه وجهها ، وسمع صرخة، ردتة إلى رشفده .. لقد ضرب أمه وهو مالا يصدق، فاستبد به ألم ممض وخزى شامل ووجل شديد، ورغب فى أن يهرب ، وتمنى لو انشقت الأرض وابتلعتة ، وقفز نحو الباب وهبط السلم مسرعا وغادر الفندق ، وانطلق يعدو فى الطريق لا يلوى على شىء..

ونال منه الإعياء فوقف واستند الى شجرة، وساقاه ترتجفان وأنفاسه لاهثة، فقد هاله ما فعل، وشعر بوخز كاد يخنقه .. ترى ماذا يفعل ؟ .. وأين يلتمس المأوى ؟ .. وعذبتة الوحدة رغم أنه كان قريبا من الفندق ، وخيل اليه أن أحدا لا يكثرث له وأن لا سند له فى هذه الدنيا .. حتى الأشجار التى كانت حانية عليه بالأمس، قست بغتة وبدت وكأنها تتحفز للانقضاض عليه ، ولم يدر بخلده ما ينتظره من أمور أشد قسوة وإيلاما..! وأحس بلوعة إذ وجد نفسه وحيدا فى خضم الحياة.. بمن يلوذ ؟ .. إنه يخشى أباه السريع الغضب ، فقد يطرده ، كما لا يستطيع العودة إلى أمه وقد صفعها ، على وجهها ، فشعر بالرغبة فى خوض المجهول .. وتذكر جدته العجوز الطيبة القلب التى كانت تغمره بحنانها وتقف الى جانبه إذا تعرض لعقاب أو تأنيب .. إذن فليذهب إليها فى «بادن» ريثما يعتذر لأبويه بخطاب.

وأشعرته الوحدة بالذلة، لصغر سنه وافتقاره الى المعرفة والتجربة.. فسخط على اعتزازه بنفسه، وتمنى أن يظل طفلا طيعا مجردا من العناد، وتساءل كيف السبيل إلى «بادن» والشقة بينه وبينها بعيدة، وفرح حين تذكر أنه يحتفظ بقطعة نقود ذهبية من ذات العشرين فرنكا لم ينفقها ، كانت قد أهديت له فى عيد ميلاده .. ولكن هل تكفى ؟ .. إنه يجهل تكاليف الأسفار،

وتبين عدم إلمامه بالكثير من شئون الحياة، وأن المعلومات العامة بالأمور لها قيمتها..

واشتد تردده ، وتعثّر فى سيره ، عندما اقترب من المحطة ووقف يتطلع الى مبناها فى وجل، وانحصر تفكيره فى قطعة النقود التى معه وهل تكفى لسفره إلى جدته، وراح يتأمل القضبان الممتدة، وكادت المحطة تكون خالية.. واتجه بقلب واجف الى نافذة التذاكر، وسأل هامسا مرتبكا عن ثمن التذكرة، ودهش الموظف لهذا السؤال من فتى صغير، وأجابه بأن ثمن التذكرة الكاملة ستة كورونات ، فالقى الفتى مغتبطا مزهوا بقطعة النقود التى يعتز بها إلى الموظف وطلب التذكرة ، ثم تناول ما تبقى من النقود ، فشعر بأن جيبيه لا يزال عامرا ، وانتظر قدوم القطار وقد انزوى فى ركن بالمحطة ، وكان على الرصيف بعض الأشخاص ينتظرون القطار مثله، ظن الفتى أنهم يرمقونه بنظراتهم، وبدا لهم أنهم يدهشون لسفر فتى صغير مثله بمفرده .. بل لقد خيل إليه أن ذنبه يشى به .

وتنفس الصعداء حين سمع صوت القطار يقترب .. وتبين بعد أن ركب أن تذكرته بالدرجة الثالثة، وقد كان يركب فى أسفاره مع أبويه فى الدرجة الأولى ، فعرف أن الناس طبقات وأن البعض يمتازون عن البعض الآخر ، وكان لا يظن الى ذلك قبل الآن ، وجلس أمامه عمال أصواتهم خشنة ويمسكون فنؤسا، ارتسم التجهم فى عيونهم .. ولابد أن أعمالهم أضنتهم ، فقد استسلم بعضهم للنوم، وأدرك الفتى أنهم يكون من أجل الحصول على المال، كما أدرك أن فى الحياة طبقات مترفة كالطبقة التى يعيش فى محيطها، ومستويات أخرى زاخرة بالآلام والمشاق ..

وألقى الفتى بصره خلال النافذة فامتألاً إعجابا بجمال الطبيعة وإبداع الكون .. وعلى الرغم من أنه استشعر الخوف لهروبه على هذه الصورة، فإنه

أحس في الوقت نفسه باستقلال ذاته وبالاعتداد بنفسه وبأنه أقدم على عمل واقعى بإرادته .

وحز في نفسه أنه ربما غدا مبعث حيرة وقلق لأبويه، فراح ينظر إلى الدنيا بعين تكشف عنها الغموض الذى كان يحجب عنه مغاليق الأمور قبل اليوم، وخيل إليه أنه أصبح يدرك طبيعة الأشياء وكنهها وحوافزها .. ولاحت له المنازل كأنها أسراب حمام طائرة لفرط سرعة القطار، واتجه بفكره إلى ساكنيها ، وراح يتساءل : أهم فى رغد من العيش أم مدقعون ؟ .. سعداء أم تحت وطأة الشقاء يرزحون .. ؟ أتراهم مثله يتوقون إلى تذوق منابع المعرفة .. المعرفة بكل شىء ؟ .. وهل أطفالهم لا يحفلون بغير اللهو واللعب ، كما كان هو من قبل ؟ .. وأدرك أن كل من يراه يعمل فى الحياة ويكدح إنما يفعل ذلك من أجل العيش وتنازع البقاء ..

وضاعف القطار من سرعته وهو يتجه الى الوداي، مخلفا وراءه منطقة الجبال التى أخذت تتوارى ، فرأى السهل المنبسط .. ثم التفت مرة أخرى الى الجبال التى أخذت تتضاغل أمام ناظريه لبعدها ، فغدت كضباب يتأرجح، أو ما يشبه الظلال المتراقصة ..

وعندئذ خيل إليه أنه أودع طفولته فيها .. تلك التى أخذت تتلاشى شيئا فشيئا أمام عينيه .. !

وأخيرا وصل القطار إلى «بادن» ، وغشيت «إندجار» سحابة من الكابة عندما وجد نفسه وحيدا على رصيف المحطة الذى غمرته الأضواء المختلفة الألوان .. وفطن إلى أن الليل قد أقبل، لقد كان يستشعر الطمأنينة فى النهار الزاخر بالناس وجلبتهم ، تسرى عنه رؤيتهم فى غوهم ورواحهم ، أما الآن فكيف يكون حاله وسط هذا الظلام والفراغ ، فقد أوى الناس إلى بيوتهم، وأحس بعزلة اشتدت وطأتها على نفسه، وشعر بأنه شريد هائم

تلاحقه جريرته .. فعقد العزم على أن يلجأ إلى مكان يأويه ويقيه شر بيئة غريبة عنه ، وانطلق متجها إلى منزل جدته ، عبر الطريق الذى يعرفه.. ويقوم المنزل فى بقعة جميلة، تلفه أشجار حديقته، وقد لاح خلال تلك الأشجار كأنه شعلة، من لهب بسقفه الأحمر .. وتطلع الفتى خلال سياج الحديقة، فوجد السكون يشمل المكان، حتى النوافذ كانت مغلقة ، وحس أن هذه حال الواجهة، وأن سكانه فى الجانب الآخر، ووضع يده على مزلاج الباب، واستشعر عندئذ إحساسا غريبا : كيف يواجه جدته وكان يظن أن مواجهتها أمر عادى لا غرابة فيه ، وكيف يجيب عن أسئلتها ويتقبل نظرات الدهشة التى ستجابهه بها حين يجهز لها بفراره ، وكيف يبرر مسلكه الشنيع ؟! ..

وفتح الباب فجأة، فارتد الفتى مذعورا خشية أن يفاجئه أحد .. وأخذته الحيرة أين يذهب.. ووقف هنيهة أمام متنزه البلدية الذى خيم عليه الظلام، فعن له أن يستريح على أحد مقاعده ويفكر فى حاله.. فذلف إليه، وبدت له مصابيحه الواهنة خلال الأشجار كأنها أشباح .. وأوغل فى السير ، وخفق قلبه إذ مر ببعض أشخاص جلسوا يتحدثون، لقد ضاع أمله فى العزلة التى ينشدها .. ويمم شطر الممرات المعتمة ليخلو إلى نفسه فيها ، بيد أنه وجدها زاخرة بمزيج من الهمسات والضحكات والتنهدات مختلطة بحفيف الأشجار وأزيز الرياح ، فعرف أن الإنسان دائب الحركة تماما كالطبيعة التى لا تسكن ولا تهجع .. وأحس بهواجس أثارت فى نفسه القلق من تلك الحياة النابضة بنشوة الربيع، فاستشعر الألم والاضطراب ..

وانطوى على نفسه فوق أحد المقاعد يلفه الظلام الموحش، وراح يفكر فيما يفعله ويقول له لجدته، تاهت أفكاره واختلط عليه الأمر .. ويون إرادة منه كان يستمع إلى الهمسات والتنهدات والحركات المبهمة، وبالرغم من أن الظلمة كانت تفرعه، فقد رأى فيها فتنة وسحرا.. وساءل نفسه عن مبعث ما

يتناهى إلى سمعه من تنهدات ، فتبين له أن أزواجا من الناس هجروا المدينة بأضوائها ، وراحوا يعيشون حياة متخفية بين طيات الليل والظلام.. ترى ماذا حفزهم إلى ذلك؟.. ولماذا يتكلمون همسا ويتحركون فى حذر؟ .. وأخذ العجب والدهشة حين كان يرى بين لحظة وأخرى أطياف هؤلاء الناس وقد تلاصق كل اثنين تماما كما رأى أمه مع البارون.. لابد أنها جنت به ولعا وتعلقا ، فلولاً ذلك لما جنحت إلى الكذب والخداع والتمويه .. إذن يكمن هنا أيضا ذلك السر الرهيب الخفى المثير !.. وسرعان ما سمع خطوات تقترب وضحكات خافتة، خشى أن يلحبه أحد وتوارى بعيدا، ولم يره القادمان اللذان مالبثا أن وقفا بالقرب منه، فرأى وجهيهما يتلاصقان نون أن يتبين ما يحدث ، بيد أنه سمع زفرة تند عن صدر المرأة، وتمتمة حارة من الرجل .. فأحس الفتى بشعور غامض ملتهب أشاع رعشة فى كيانه ، وظل الواقفان هكذا فترة سمع بعدها وقع خطواتهما وهما يتبعدان ..

وأحس الفتى بفورة عارمة فى دمائه ، واستبدت به رجفة حادة .. وشعر بالوحدة فى هذا الظلام، وبالحنين إلى صوت ناعم عطوف، وإلى أحضان دفئة حانية، بين أناس يحبهم .. وخيل إليه أن الليل بظلمته قد استقر فى نفسه وراح يعتصر قلبه .. ونهض الفتى وقد ضاقت نفسه .. ماذا يمكن أن يكون ؟.. قد يضرب أو يعاقب أو يؤنب ، إنه لم يعد يبالي منذ عرف الظلمة وذاق العزلة.. وانطلق على غير هدى ، فبلغ بيت جدته نون أن يعى ، ووقف عند الباب ، ورأى الأنوار فى هذه المرة تتسلل خلال النوافذ، فتخيل أصحاب الدار وقد جلسوا فى القاعة، فشعر بشيء من الاطمئنان وهدا روعه لأنه أضحى قريبا من أحبائه، وتردد قليلا فى دق الجرس ليستمتع بذلك الشعور! وفجأة على حين غرة ، ثقب أذنيه صوت حاد منفعل :

- أنت هنا ؟ .. كيف جئت ؟ .. وماذا جاء بك يا «إدجار» ؟

لقد كان الخادم أول من رآه ، فراحت تربت على كتفه .. وإذ فتح الباب ، اقترب منه كلب أخذ يهز ذنبه، وطالعتة الأضواء من الداخل، ثم سمع أصواتا مختلطة تشيع فيها الغبطة والدهشة .. وإذ اقتربت منه الأصوات فى لهفة وابتهاج، تبين جدته فى المقدمة وقد بسطت له ذراعيها .. وعقدت الدهشة لسانه ، وكاد يكذب عينيه إذ رأى أمه من خلفها وقد اغرورقت عيناها بالدموع .. فشملته رجفة من أقصى رأسه إلى أخمص قدميه ، وتنازعه الوجل والحيرة، واختلط عليه الأمر ، فلم يدر ماذا يفعل أو ماذا يقول؟ بل لم يستطع أن يدرك حقيقة إحساسه .. أخوف هو أم سعادة .. ؟! وكانت أمه قد ارتاعت لفرار الفتى رغم حنقها عليه، فراحت تبحث عنه وقد استبد بها الانزعاج، إلى أن أقبل شخص أنهى إليها أنه رأى الغلام عند نافذة التذاكر، وبلاستعلام عرفت أنه يمّم شطره «بادن» التى كانت الأم قد أبرقت إليها كما أبرقت الى أبيه فى «فيينا» بنباً فراره، فروع ذلك الوالد وراح يتنسم أخبار ابنه .. ثم رحلت الأم إلى «بادن» فى أثر ابنها .. وراح الجميع يترقبون وصوله.. !

وأحاطت به الأسرة، وأغرقتة بالملاطفة ، وقد سادهم شعور بالبهجة لوصوله ، ولم تطل فترة التائب الخفيف الذى وجهوه اليه ، فلم يستشعر له وخزا .. إذ تبين مشاعر الحب تطفر من أسارير الأهل، وما لبثت جدته أن احتوته بين ذراعيها وهى تجهش بالبكاء ، ولم يعد أحد يسيء إليه بكلمة تقرير أو يشير إلى خطئه ، وازدادت رعايتهم له وحذبهم عليه .. وبدلت له الخادم ثيابه ، وراحت جدته تسأله عما يشتهى وعما إذا كان جائعاً ، وتغمره بفيض حنانها .

وإذ فطنوا إلى إعيائه، تركوه وشأنه كي يستجم، فاستشعر الغبطة إذ عاوده الإحساس بأنه مازال صغيراً ، وكان قبل ذلك يضيق بهذا الشعور،

وتمنى أن يتعدى طور الطفولة.. فإذا به يستمرئه الآن ويستعذبه.. ويندم على ما تولاه من كبرياء وصلف .. !

وانبعث رنين التليفون ، وسمع «إدجار» أمه تردد فى كلمات متقطعة :
- نعم .. إدجار .. وصل إلى هنا سالما .. فى آخر قطار .. وحير الفتى وأدهشه أن أمه لم تبد نحوه جفوة أو قسوة، بل راحت تغمره بنظرات هادئة.. فشعر بالندم فى نفسه ، وود لو قوبل بعكس ذلك، ليسعى إلى أمه يسألها الصفح والغفران ويؤكد لها أنه سيطيع أوامرها ، سمع جدته تسأله فى خوف وهو ينهض :
- إلى أين .. ؟!

فسمر فى مكانه وقد عراه الخجل ، إذ رآهم يتوجسون من كل حركة تبدر منه .. ونعلهم كانوا يخشون أن يهرب مرة ثانية وما دروا أنه أشد منهم ندما على ذلك الهرب .. !

وعلى المائدة ، قدم إليه عشاء خفيف .. وكانت جدته لا تحول عنه نظرها، بينما جلست خالته إلى جواره ، وأحس بالاطمئنان إزاء هذا العطف الذى غمروه به .. ولكن أقلقه أن أمه ليست بجانبه ، وتمنى لو أنها عرفت مبلغ ندمه ..

وتناهى الى سمعه صوت عربة تقف أمام الباب، فاستولى على الأهل ذهول أزعج الفتى ، وغادرت جدته الغرفة.. ثم سمع حديثا يجرى ، أدرك منه أن أباه قد وصل .. وإذا رأى أباه ، فهو الوحيد الذى يهابه ويخشى بأسه . فأرھف السمع، وبدا له الأب محنقا، ينم عن ذلك انفعاله وارتفاع صوته ، وسمع جدته وأمّه تهدئان من حنقه، بيد أن ثأثرته لم تهدأ وظل على انفعاله، وأخذت خطى أبيه تقترب حتى بلغت الباب الذى ما لبث أن فتح ، وتراعت للفتى الصغير نفسه ضئيلة إلى جانب أبيه البدين الذى دلف إلى الحجرة بخطى تنم عن حق وغضب، وصاح الأب :

- ماذا أصابك يابنى ؟ .. بل ماذا دهاك حتى تهرب على هذا النحو المزرى ، وتسبب لأمك هذا الانزعاج الفظيع .. ؟

ألقى الأب بهذا السؤال فى انفعال بالغ ، ويداه ترتجفان فى عنف .. بينما دخلت أمه فى هدوء ورفق وقد شحبت وجهها ، وانعقد لسان الفتى فلم ينبس بكلمة .. إنه يدرك تماما أن المطلوب منه أن يبرر مسلكه وهربه ولكن أنى له أن يفصح عن أساليب الخداع والكذب التى اتبعتها معه أمه وضروب القسوة التى عاملته بها ؟ ترى هل يدرك أبوه الموقف ويفهم الأمر ؟ .. وأردف أبوه يقول :

- ماذا جرى ؟ .. لماذا فررت بهذه الصورة ؟ ..

وحالت شجون «إدجار» دون انطلاق لسانه ، حتى إذا واثته القدرة على الكلام أومأت إليه أمه من خلف ظهر أبيه ألا يقول شيئا .. واهتز كيانه كله إذ شعر أن أمه تأتمنه وتثق برجولته فقرر أن يكون عند حسن ظنها ، واستعاد رباطة جأشها وقال :

- ليس هناك شىء إطلاقا .. وكل ما هناك أنه فرط منى ما لا يليق ، وخشيت أن تعنفنى والدتى فلذت بالفرار ..

وسرى عن أبيه ، وظهر الرضى على قسماط وجهه ، وقال :

- إن من يشعر بذنبه يكفر بهذا الشعور عن خطئه .. وهذه آية على اكتمال العقل وعلى أنك تجاوزت طور الطفولة!

وشخصت عينا الفتى نحو عيني أمه .. فراهما تغرورقان بالدموع ، والابتسامة تختلج على شفثيها وكأنها تسجل له شكرها ..

وعندما حان موعد نومه ، وذهب إلى فراشه ، رحب بتلك الخلوة كى يراجع انفعالات ذلك النهار .. فوجد لاسترجاعها لذة أشعرته بانتقاله فجأة من صفوف الصغار إلى صفوف الكبار! لأن الحياة كشفت له عن نقابها فراها على وجهها الحقيقى غير مزوقة بخيالات الطفولة وسذاجتها ، وانتباهته

من ذلك رهبة .. وقد بدأ يتبين ما ينتظره فى ممارسة الحياة من انفعالات عميقة ..

وكأنما أراضاه هذه الإحساس ، فغطى فى نفسه المتفتحة على مشاعر الحقد والكراهية .. حتى لقد خامره نحو البارون إحساس بالأمّتان ؛ لأنه كان المفتاح الذى فتح له باب الحياة الحقيقية الواعية على مصراعيه .. ! وأخذ الكرى يداعب أجفانه المثقلة ، وهو يقلب تلك الخواطر والأفكار .. فلم يستطع أن يتبين بوضوح من هو الشبح الصامت الذى تسلل إلى مخدعه فى الظلام ، وإن أحس بأنفاسه المعطرة وشعره الناعم وخده الدافئ يلتصق بوجهه .. كان يعلم فى أعماقه أن أمه جاءت تغمره بحنانها ، وتشكره على موقفه النبيل منها ..

وكانت هذه اللمسات الحانية مصدر سعادة كبرى وطمأنينة قلب «لإدجار» ، فأحس عندما غادرت أمه الغرفة مخلفة وراءها شذى عطرها أن آلامه جميعا قد تلاشت ، وأن الحياة قد أعطته أجمل تعويض عن كل ما تحمله من آلام .. وجادت عليه بسر كنزها الأعظم .. كنز الحب ، ولو بلغ ذلك الحب درجة الجنون !

تمت

مؤلف الرواية

أنجبت النمسا وطن «ستيفان زفايج» نخبة من أعظم الموسيقيين، وأنجبت مؤسس علم النفس الحديث «سيجموند فرويد» .. ولكنها لم تنجب كاتباً أعظم من «ستيفان زفايج» الذى تلقى العلم فى معاهد «فيينا» مسقط رأسه ، وظهر نبوغه فى الكتابة منذ وقت مبكر، وكان مولده عام ١٨٨١ .

وقد تميز أدب «زفايج» منذ البداية بأنه مزيج رائع من ثقافة العالم، واطلاع المؤرخ العارف بخفايا النفس والدارس لأطوار الإنسان، ومن رشاقة الفنان الذى يكاد نثره لرقته ينقلب شعراً .

وقد أُلّف «زفايج» فى التاريخ .. ويعد أعظم كتاب السير فى العصور الحديثة، إذ أن أحداً لم يبلغ منذ «بلوتارك» الذروة التى بلغها «زفايج» فى رسم الصور القلمية لشخصيات النابهين فى السياسة والعلم والأدب .

ومن الغريب أن شهرة «زفايج» لم تتأكد عند الجمهور القارئ باللغة الألمانية ، إلا عندما نشر ترجماته عن الفرنسية لشعر «بودلير» و«ذيرلين» مع دراسات نقدية أصيلة عميقة أثبتت مواهبه الفذة فى تنويع الأدب واستنباط البواطن النفسية للكتاب والشعراء .

وقد شجعه ذلك على الاستمرار فى هذا الاتجاه ، فنشر دراسات وصوراً أدبية نفسية لثلاثة من الفحول هم : «بلزاك» الفرنسى ، و«دستويفسكى» الروسى، و«ديكنز» الإنجليزى ، تعد أحسن ما كتب فى هذا الباب .

وأما فى التاريخ ، فكتب حياة «ماجلان» قاهر البحار، وحياة «مارى سيتورارت» ملكة اسكتلندا المنكودة الحظ . وحياة «مارى انطوانيت» ملكة فرنسا التى أطاحت برأسها مقصلة الثورة وسماها «صورة امرأة عارية!» لأنه بفطنته النفسية رأى فى تلك الملكة المستوى العادى جداً للأثنى بكل

خصائصها .. من المحاسن إلى العيوب . وكتب أيضا حياة «فوشيه» باعتبارها نموذجا للسياسى الداهية على النمط القديم وله مسرحية واحدة هى «أرميا» .. وفيها يصور حياة ذلك النبى تصويرا شعريا أخاذا على ضوء باهر من الدراسة النفسية العميقة .

وبهذا الثراء الضخم فى ثقافة العقل والوجدان ، وفى الاحساس الفنى ، كتب «زفايج» قصصا أجمع النقاد على روعة صياغتها الفنية، ومن أهمها : ٢٤ ساعة فى حياة امرأة، وجنون الحب، وخطاب من امرأة مجهولة، وأموك، والشمعدان المدفون، والشفقة، والخوف .

وقد لاحظ النقاد أيضا كما لاحظ القراء أن «ستيفان زفايج» عاشق متيم لما هو جميل، يؤمن بالإنسان وحرية وسعيه إلى الكمال، ولكنه يميل إلى الحزن ، فالقارئ دائما يخرج من قصصه والأسى يملأ جوانحه، لضعف الإنسان وقلة حيلته أمام طوفان عواطفه من جهة وأمام عتو القدر من جهة أخرى .

وقد وجد «زفايج» الحياة غير ممكنة فى النمسا عندما اجتاحتها النازى ، وهو من أعدى أعداء الطغيان بكل كيانه ، ففر هاربا إلى إنجلترا وتجنس بالجنسية الإنجليزية .. ثم هاجر هاربا من لفظ الحرب وإرهاقها لأعصابها إلى أرض بعيدة .. أقرب إلى الفطرة وأبعد عن انحلال المدنية المجنونة بالدمار ، واختار البرازيل مقرا له .

ولكن الحياة لم تطب له هناك .. ولم يستطع موطنه الجديد أن يبعد عن نفسه صدى الحرب الدائرة ، ولا صورة المجزرة المستمرة ، فانتحر فى عام ١٩٤٢ .

رواية الهيال

حكيم

د. زكي سالم



كتاب الهلال

د. رمسيس عوض

فلاديمير نابوكوف

حياته وأدبه 1899 - 1977



المالكم

يوليو 2010 - الثمن 5 جنيهات

مفتى الديار المصرية فى اليابان
صالح جودت.. قيامة مصر
التنوير والدين: وهم الأعداء

استطلاع
مصور

عُمان.. أرض البخور والسندباد

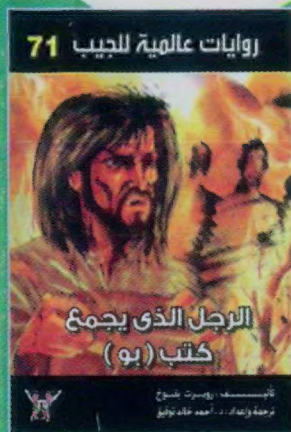


التحول الاقتصادى والاجتماعى فى مصر
الإنسان فى فكرنا العربى الحديث والمعاصر



روايات مصرية للجيب

إنها بالفعل شيء ملائكي رائع



شلال متدفق من الروايات لا يهدأ ، ولا يخمد .. يستولى على ألباب القراء ، ويبحر بهم إلى آفاق رائعة من الثقافة ، والمتعة ، والإثارة .

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10 ، 16 ش كامل صدقى الفجالة ، 4 ش الإسماعيل بنميشية البحري روكسى مصر الجديدة - القاهرة . ت : 25928202 - 26823792 - 22586197 فاكس - 202/25966650 ج.م.ع ، 4 ش بدوى محرم بك - الإسكندرية ت : 03/4970850 - 03/4970840